كيف تتحمس لطلب العلم الشرعي ؟

(أكثر من ١٠٠ طريقة للتحمس لطلب العلم الشرعي)

بقلم الفقير إلى ربّه تعالى :
محمد بن صالح بن إسحاق الصيعري

الطبعة الثالثة
رجب من عام ١٤٢٠ هـ

ح محمد صالح إسحاق الصيعري ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصيعري ، محمد صالح إسحاق
كيف تتحمس لطلب العلم الشرعي - الرياض .
٣٢٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : X - ٦٩٩ - ٣٥ - ٩٩٦٠
١ - الإسلام والعلم ٢- العلوم الشرعية
٣ - الوعظ والإرشاد أ- العنوان
ديوي ٢١٩.٧ ١٩/٤٦٥٩

رقم الايداع ١٩/٤٦٥٩
ردمك : X - ٦٩٩ - ٣٥ - ٩٩٦٠

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ... ويُبقِي الله ما كتبتْ يداهُ
فلا تكتب بكفِّكَ غير شيءٍ ... يسرّكَ في القيامة أن تراهُ

مُقدِّمة الكتاب

"الحمد لله الذي شيَّد منار الدين وأعلامه ، وأوضحَ للخلق شرائعهُ وأحكامه ،وختم الدعوة بنبينا محمد ﷺ سيد المرسلين ، وفضَّلهُ على مَنْ سبقَ من الأولين والآخرين ، وجعل شريعته مُؤيدةً إلى يوم الدين ، ووكَّل بحفظها من الصحابة والتابعين مَنْ تقوم به الحجة ، وترتفع بقوله الشبهة ، وهم العلماء الذين ألزمهم حراسة شريعته ، والتفقه في دينه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) ، ... ، فجعلهم فرقتين أوجبَ على إحداهما الجهاد في سبيله ، وعلى الأخرى التفقه في دينه ، فحرسَ بيضة الإسلام بالمجاهدين، وحفظَ شريعة الإيمان بالمتعلّمين "(٢) ... ، ثمَّ أما بعد:

إنَّ العلم الشرعي هو ميراث الأنبياء الذي خلّفوه لنا ، وحملهُ الصالحون من بعدهم جيلاً بعد جيلٍ ، وقبيلاً بعد قبيلٍ ، ينفون عنه تأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وما زالت هذه المسيرة المباركة المظفَّرة مستمرةً عبر صفحات التاريخ الإسلامي المديد ،كلما تُوفي عالمٌ من العلماء الربانيين ، وأسدٌ من أُسودِ العلم والدين ، حملَ الراية مِنْ بعده الأشبال

---

(١) : سورة التوبة الآية رقم (١٢٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب " الفقيه والمتفقه " للخطيب البغدادي رحمه الله .

، وهم طلاَّب العلم الشرعي الصادقون ، ليُكملوا المسيرة الإيمانية العلمية ، ويحفظوا شرع ربِّ البرية ،ويرفعوا عن أنفسهم وعن إخوانهم المسلمين الجهل ، فليت شعري ماذا ينتظرهم عند الله تبارك وتعالى من الأجر العظيم والثواب الجزيل ، الذي تقرُّ به العيون ؟!! .

*قال "ابن القيم" رحمه الله :" مَن طلبَ العلم ليُحييَ به الإسلام ، فهو من الصديقين ، ودرجته بعد درجة النبوة "(١) .

وما نزال نستشرف في هذا العصر ، إلى طلائع الشباب المؤمن الصادق المرتقبة ، لتُبرزَ لنا خبايا المواهب ،وتتبوأ من مقاعد البذل والعطاء وحفظ شرع الله تعالى أسمى المراتب ، ولتنصرَ دين الله عزَّ وجلَّ ، وتدحض ما سواه من العقائد والمذاهب.

ومَنْ تأملَّ واقع الناس في العصر الحاضر ، رأى أنَّ اهتمامهم بطلب العلم الشرعي قد قلَّ !! وأنَّ الهمم والعزائم قد فترت عن تحصيله !! وأنَّ الناس قد اشتغلوا عنه بزخارف الدنيا ومفاتنها ، أو بأمورٍ مفضولةٍ لا خير فيها ، وأعرضوا عن طلبه وتعلُّمه ، متعللين بأعذارٍ واهيةٍ وحُججٍ باطلةٍ .

بل لقد أصبح العلم الشرعي في عصرنا هذا ثغرةً طالما احتجنا إلى مَنْ يسدُّها ، وسُنَّةُ عزَّ فينا مَنْ يهتم ويحفَلُ بها !! فأين عُمَّال الله في هذه الأعصار ؟!! أين الراجون للجنان الخائفون من النار ؟!! أين المستغفرون بالأسحار ؟!!

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً ... فقد صاروا أقلَّ من القليل .

فلما رأيتُ الحال هكذا، عزمتُ مستعيناً بالله تعالى على كتابة هذا الكتاب لأحثَّ

---

(١) : نقلاً عن كتاب" مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٨٥) .

الكتاب ،لأحثَّ به نفسي وإخواني على طلب العلم الشرعي والتحمس له ، ولأحييَ بأخبار سلفنا الصالح موات قلوبنا ، ولأوقظَ بهذه السطور نفوسنا من رقدتها وغفلتها.

وختاماً أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا للخير وصَّافين ، وبه عاملين وموصوفين ، كما أساله سبحانه أن يُخرج لهذه الأمة العلماء الربانيين الصادقين ، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ، و صلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه الفقير إلى ربه :
أبو القعقاع: محمد بن صالح بن إسحاق الصيعري
خميس مشيط ــ ص . ب " ١٤٤٢ "
هاتف رقم : ٠٧٢٢٣٩٠٩٠
جوال رقم : ٠٥٤٧٤٩٤٥٢
فاكس رقم : ٠٧٢٣٥٩٢١٧

تمهيد

لماذا الحديث عن هذا الموضوع؟!!

(*) نتحدث عن موضوع التحمس لطلب العلم الشرعي ، لأن أيَّ صحوةٍ إسلاميةٍ لاتقوم على العلم الشرعي الصحيح ، المستمد من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم ، فإنَّ مصيرها إلى التهاوي والسقوط والضياع والاضمحلال.

لأنها متى خلت وتجرَّدت عن العلم الشرعي صارت كالريشة في مَهَبِّ الريح ، فتارةً تُحرِّكها العواطف الهوجاء المجرَّدة عن العلم الشرعي الصحيح ذات اليمين ، وتارةً تميل بها حماسات بعض المتهورين ذات الشمال ، وحينئذٍ تكون النتيجة الحتمية لأيِّ صحوةٍ بهذه الصورة ، هي التهاوي والسقوط ــ بكل أسف ــ ، وفي فترة زمنيةٍ قصيرةٍ جداً .

وعلى النقيض من ذلك ،إذا رُبِّيَ شباب الإسلام على طلب العلم الشرعي الصحيح الموافق للأدلة الشرعية والنواميس الكونية الربانية ، وعلى العمل بمقتضاه والتمسك به ، فإن هذه الصحوة تنمو شيئاً فشيئاً ، وتبدأ تُزهر وتَكبر ، إلى أنْ تصل إلى مرحلة "النضج" ، ثم تبدأ بعد ذلك في إيتاء الثمار الطيبة الناضجة ، كما قال الله تعالى: ﴿والبلدُ الطيب يخرج نباتُه بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يخرجُ إلا نَكِداً﴾(١) .

---

(١) : سورة الأعراف الآية (٥٨) .

وما تلبث هذه الصحوة المباركة إلا قليلاً ،حتى تجتذب إليها قلوب العامة والخاصة على السواء ، وحينئذٍ يعلو صوت الحق ، ويخفُتُ وينطفئ صوت الباطل ، ﴿ ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله * ينصر من يشاء ﴾ (١) .

* ونتحدث عن الحماسة لطلب العلم الشرعي لأننا في زمانٍ ماتت فيه الهمم ، وضَعُفت فيه العزائم عن طلب العلم وتحصيله ، وقلَّت فيه رغبة الناس في دراسته ومُدارسته .

✓ ويرحم الله الإمام "ابن جرير الطبري" ، فإنه قال ذات مرةٍ لتلاميذه : هل تنشطونَ لكتابة التاريخ ؟! فقالوا : في كم صفحةٍ ؟! فقال لهم : في ثلاثين ألف ورقةٍ !! فقالوا: هذا شيءٌ عسيرٌ تفنى دونه الأعمار!! فقال : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله !! ماتت الهمم !!"(٢) ، فليتَ شعري لو أدرك "ابن جرير" زماننا هذا ــ الذي لا يستطيع المرء فيه أن يُكرِهَ نفسه على كتابة أو حفظ ثلاثين ورقةً فقط ــ فما عساهُ أن يقول ؟!! وإلى الله وحده المشتكى .

ولما كان الحال هكذا ،كان لزاماً على دعاة الحق أن يسلُّوا سهام النصيحة والبيان ، ويخطُّوا بها كتباً بل مجلداتٍ ضخام ، في الحث على طليب العلم الشرعي وتحصيله ، ليُحيوا سُنَّةً من سنن أئمة الهدى والدين كادت أن تندثر وتندرس!!

(*) ونتحدث عن الحماسة لطلب العلم الشرعي لأن هذا العلم هو شرع الله تعالى ، وهو ميراث النبي ﷺ الذي خلَّفه لنا ، ومن حقوقه علينا عليه الصلاة والسلام ، أن نحفظ ميراثه من الضياع والاندراس،وهذا كله لا يكون إلا بطلب العلم الشرعي وتحصيله.

---

(١) : سورة الروم الآيتان (٤ ــ ٥) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي رحمه الله جــ ٢ .

* ونتحدث عن التحمس لطلب العلم الشرعي لأنه وُجِدت بين صفوف شباب الأمة دعوات ضالةٌ مسعورةٌ ، تدعوهم إلى إهمال العلم الشرعي والإعراض عنه ، وتحثهم على الاهتمام والاشتغال بأمورٍ تافهةٍ وخُزعبلاتٍ فارغةٍ ، وتُربيهم على مناهج هزيلةٍ منحرفةٍ ؛ لا تُخرّج الشاب المسلم الصادق المحصّن بالعلم الشرعي والتربية الإيمانية ، الشاب الذي يحمل على عاتقه مهمة نصر هذا الدين والدعوة إليه وبذل الغالي والنفيس من أجله ، كما فعل سلفنا الأوائل ، رحمهم الله تعالى .

بل قد يصل الشطط بهؤلاء السفهاء ، إلى درجة أنه لو حفظ أحد شباب الإسلام كتاباً من كتب السنة النبوية ، أو قرأ كتاباً من كتب أئمة السلف الأبرار وأتقَنَه ، لقالوا هازئين وساخرين : وماذا في ذلك ؟!! زادت نسخةٌ في البلد !! ، وهذه والله فريةٌ أثيمةٌ باطلةٌ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (١) .

ومِن هنا لزم دعاة الحق أن يمتطوا ويركبوا خيول التبيان ، ويسلُّوا سيوف النصيحة والبيان ، ويرموا هؤلاء المرجفين والمبطلين بسهام اللسان ، دفاعاً وذبّاً عن شرع الملك المنّان ، وإظهاراً للحق بأوضح بيان ، وهتكاً وفضحاً لهذه الدعاوى الباطلة التي تهدم دين الرحمن ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٢) .

* ونتحدث عن الحث على طلب العلم الشرعي وتحصيله ، لأن نصوص الكتاب العزيز ، وسُنَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، جاءت تحث على ذلك وتُرغّب فيه ، ثمَّ إنَّ هذا هو منهج سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ،

---

(١) : سورة الكهف الآية (٥) .

(٢) : سورة الأنفال الآية (١٧) .

الذي به فازوا وسَعُدوا في الدنيا والآخرة ، ولن يَصْلُحَ أمر آخر الأمة إلا بما صَلُحَ به أمر أولها .

(*) ونتحدث عن الحماسة لطلب العلم الشرعي ، لأنَّ العلماء الربانيين هم سادة الأمة وقادتها ، وهم نجومها ومصابيحها التي تُضيء لها الطريق ، في غياهب الضلال والجهل والحضارة المادية اللا دينية ، فما أعظمَ أثرهم وفضلهم على الخلق !! فكم مِن ضالٍ قد هَدَوه ؟! وكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوه ؟! وكم من مريضٍ قد شَفَوه ؟! وكم من تائهٍ قد أرشدوه ؟! .

(*) ونتحدث عن التحمس لطلب العلم الشرعي ، لأنَّ كثيراً من شباب هذه الصحوة الإسلامية الطيبة ، لديهم حماسةٌ واندفاعٌ للعمل لأجل هذا الدين ، وهذا شيءٌ طيبٌ ومحمود ،ونحن نؤيدهُ وندعو إليه ولا ننكرهُ ، ولا نُطالب الشاب المسلم بأن يكون جامداً لا عواطف له ، فلا يتأثر بما يصيب دينه وعقيدته وأمته من نكباتٍ ومصائب !! كلا فهذه بلادةٌ وعدم مبالاة بقضايا دينه وأمته ، لكنَّ الشيء الذي نستنكره ، هو أن تصبح العواطف الجياشة المجرَّدة عن العلم الشرعي ، هي التي تحرك المرء وتتحكم في تصرفاته ومواقفه ، فحرصاً منّا على إيجاد الشباب المسلم المتحمس للعمل لدينه ونُصرته ، حماسةً يقودها ويُوجهها العلم الشرعي الصحيح ، المستمد من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح ، نتحدث عن هذا الموضوع .

وأختم هذا المبحث بتنبيهين مهمين :

التنبيه الأول : إنَّ العلمَ الشرعي الذي نحث على طلبه ، ونُرغّب في تحصيله ،ليس هو أيّ علم شرعي كيفما اتفق،بل هو ما كان جامعاً للأوصاف التالية:

١ـ هو علمٌ شرعيٌّ صحيحٌ ، مستمدٌ من كتاب الله تعالى ، وسنّة رسوله ﷺ

ومنهج سلفنا الأبرار ؛ وأما ما عدا ذلك من الخزعبلات والخرافات والضلالات فما هي بالعلم النافع ، فاحذروها كل الحذر .

٢ ـ العلم الذي نحث على تحصيله ، هو العلم الشرعي الذي يُوصِل صاحبه إلى تقوى الله ومراقبته وخشيته جلَّ وعلا في الغيب والشهادة ، وقد مدح المولى جلَّ وعلا العلماء الربانيين بذلك ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

* قال "عبد الله بن مسعود" رضي الله عنه : " ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنَّ العلم الخشية " (٢)، فأيُّ علمٍ علمٌ يُقسّي القلب ويُضعف الإيمان ، ولا يزداد المرء بسببه قرباً إلى الله تعالى ، ولا اجتهاداً في الطاعات ، ومسابقةً إلى الباقيات الصالحات ، فأُفٍّ وتُفٍّ لعلمٍ كهذا !! .

(*) ورحم الله " أبا إسحاق الألبيري" حين قال لولده مُبيناً له هذه الحقيقة :

ورأسُ العلم تقوى الله حقاً ... وليس بأن يُقالَ لقد رؤوستا

(*) عن "عبد الله بن الإمام "أحمد" رحمهما الله ، قال : قلتُ لأبي : هل كان مع "معروف الكرخي" شيءٌ من العلم ؟! فقال لي : يا بُنيَّ : كان معه رأس العلم !! وهو خشية الله تعالى" (٣) .

٣ ـ إنَّ العلم الشرعي الذي نحث على تحصيله ، هو علمٌ يدفع بصاحبه إلى العمل والتطبيق والامتثال ، فهو علمٌ المقصود منه العمل به ، لا مجرد الثقافة ، أو زيادة المعلومات ، أو الحصول على المناصب والشهادات ، ولا تنسَ رعاك

---

(١) : سورة فاطر الآية (٢٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "الفوائد" لابن القيم .

(٣) : نقلاً عن كتاب " فضل علم السلف على علم الخلف" لابن رجب الحنبلي رحمه الله .

الله أنَّ علماً بلا عمل كشجرٍ بلا ثمر ، لأنَّ ثمرة العلم الحقيقية هي العمل به وتطبيقه .

(*) عن "أبي الدرداء" رضي الله عنه قال :" إنما أخشى أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول لي: ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!! " (١) .

التنبيه الثاني : اعلم رعاكَ الله أنَّ حثّنا وحضّنا على طلب العلم الشرعي وتحصيله ، لا يعني أن يُغفل المرء بقية الجوانب ، التي يكون بها تكامل الشخصية الإسلامية ، ولا يستلزم أن يقتصرَ المرء على طلب العلم فقط ،كلا هذا فهمٌ خاطئٌ !! ، بل إن الجوانب الأخرى كتربية النفس والإكثار من النوافل ، والدعوة إلى الله تعالى ، وقيام الليل وقراءة القران ، و... و... و ... ، مهمةٌ بل ضروريةٌ جداً لطالب العلم الشرعي .

(*) واستمع إلى شيخ الإسلام"ابن تيمية"رحمه الله ، وهو يُقرر لنا هذه الحقيقة فيقول : "لا بدَّ للعبد من أوقات يتفرَّد فيها بنفسه ، في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبته لنفسه وإصلاح قلبه" (٢) .

ومن أهم الجوانب لطالب العلم ، جانب العبادات القلبية والبدنية والإكثار من النوافل كقيام الليل وقراءة القران وكثرة الاستغفار والذكر، والصيام و... و... ، إلى غير ذلك من العبادات التي تربي النفس وتُهذبها ، وترفع مستوى الإيمان في القلب، وتُسمو بالروح وتحلّق بها في الملكوت الأعلى ، وتجعل لكلام هذا العالم أو طالب العلم أعظم التأثير في نفوس السامعين ، لأنه لما أقبل بقلبه وقالبه على الله تعالى ، أقبلَ المولى تعالى عليه بقلوب الناس .

---

(١) : نقلا عن كتاب"جامع بيان العلم وفضله "للإمام"ابن عبد البر الأندلسي"رحمه الله .

(٢) : نقلا عن كتاب " مجموع الفتاوى " لابن تيمية (١٠/ ٦٣٧) .

إذن لا يسوغ أبداً ــ وبأيّ حالٍ من الأحوال ــ أن يكون علماء الشريعة وطلاب العلم قُساة القلوب جامدي الأعين !! تقسو القلوب برؤياهم !! .

✓ إننا نريد إيجاد العلماء الربّانيين ، وطلاب العلم الصادقين ، الذين تلين القلوب برؤيا سمتهم وخشوعهم ووقارهم وزهدهم في الدنيا ، ورغبتهم وإقبالهم على الآخرة ، وتأمل كيف وصف الرب تعالى أهل العلم الصادقين بذلك ، فقال عنهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١) .

✓ إننا نريد العلماء وطلاب العلم ، الذينَ يعظونَ الناس بلسان حالهم قبل أن يعظوهم بلسان مقالهم ، فهؤلاء هم قادة الأمة ومصابيحها في ظُلَمِ الدياجي ، وإليهم بعد الله تعالى المفزع والملتجى .

(*) ورحم الله "الحسن البصري" حين وصفَ لنا حال العلماء وطلاب العلم في عصره ، فقال : " كان الرجل (يعني من السلف) يطلب العلم فلا يلبثُ إلا يسيراً ، حتى يُرَى أثرُ العلم في صلاته وخشوعه وكلامه وسمته" (٢) .

✓ إننا نريد إيجاد العلماء وطلاب العلم الربانيين الصادقين ، وهذه "الربّانية" لا يُحصّلها المرء إلا بتربيته لنفسه على أعمال القلوب ،والعبادة ، والإكثار من النوافل ، والزهد في الدنيا، ومراقبة الله وخشيته في السرّ والعلن ، وحينئذٍ يجمع المرء بين الزادين : زاد العلم الشرعي ، وزاد التربية الإيمانية والخشية والمراقبة ، وكلاهما ضروريٌ جداً لكل سالكٍ في طريق الدعوة إلى الله تعالى، المليء بالعقبات والصعاب.

---

(١) : سورة الإسراء ، الآيات (١٠٧ ــ ١٠٨ ــ ١٠٩).

(٢) : نقلاً عن كتاب "الزهد" للإمام أحمد رحمه الله .

الإسلام يدعوك إلى علو الهمّة

الإسلام هو دين الهمّة العالية والطموح إلى المعالي ، والتعلق بعظائم الأمور وكبارها ، ولتباعد عن سفسافها وصغارها ، فتدبر معي أخي الحبيب بقلبك وعقلك هذه القطوف والشذرات عن "الإسلام وعلو الهمّة ":

(*) استمع إلى ربك تبارك وتعالى ، وهو يُناديك ويقول لك :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

(*) وتأمل وصفَهُ تعالى لعباده الصالحين بالمسارعة إلى الخيرات ،حيث قال عنهم :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ (٢) .

(*) واستمع إلى مولاك الجليل ، وهو يدعوك إلى المنافسة في الخيرات ، والمسابقة إلى الباقيات الصالحات فيقول : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٣)، فيا أخي هلاّ أجبتَ النداء !! وسابقتَ إلى جنة رب الأرض والسماء !!.

(*) وهذا الحبيب ﷺ يدعوك إلى علو الهمة ، وإلى المسابقة إلى الطاعات والاجتهاد فيها فيقول : (بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكونُ فتنٌ كقِطع الليل المظلم ، يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً ، ويُمسي كافراً ويُصبح مؤمناً ، يبيع أحدهم دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل) .

(*) وتأمل في همّة الصحابي الجليل "ربيعة بن كعب الأسلمي" رضي الله عنه ، حين قال له الرسول عليه الصلاة والسلام :" يا ربيعة سَلْني !!"، فقال :"أسألكَ

---

(١) : سورة آل عمران الآية (١٣٣) .

(٢) : سورة الأنبياء الآية (٩٠) .

(٣) : سورة المطففين الآية (٢٦) .

مرافقتكَ في الجنة !!"فقال عليه الصلاة والسلام : أوَ غير ذلك ؟!! فقال :
هو ذاك !! فقال له ﷺ: " فأعنّي على نفسك بكثرة السجود " (١) ، فشتان بين مَنْ همته معلّقةٌ بالمأكولات والمشروبات والشهوات !! وبين مَنْ همته معلّقةٌ بالدور والقصور والحور العين في الجنات !! .

* أخي: أما سمعتَ النداء ؟!! ... أخي أما بلغكَ وحي السماء ؟!! ... أخي أما أشرق في قلبك النور والضياء ؟!! ... أخي أين الهمة العلياء؟!! .

إنْ لم تكن للحقّ أنتَ فمَنْ يكون ؟! ... والناس في محراب الدنايا عاكفون

* قال"ابن رجب الحنبلي"رحمه الله :" لما سمع القوم حادي﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ ، ونداء ﴿ وسابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ ، فهموا أنّ المراد أن يجتهدوا ، ليكون كل واحد منهم هو السابق إلى هذه الكرامة ، فكان تنافُسُهم في درجات الآخرة ، ثم خَلَفَهم قومٌ تنافسوا في الدنيا الدَّنية وحظوظها الزائلة "(٢) .

* قال"الحسن البصري"رحمه الله :"إذا رأيتَ الرجل يُنافسكَ في الدنيا فنافِسهُ في الآخرة" (٣).

*وقال:"مَنْ نافسك في دينك فنافسه،ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره"(٤) .

.قال"وُهيب بن الورد":" إنْ استطعتَ ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعَلْ" (٥) .

* قال"ابن القيم": " إذا طلع نجم الهمّة في ظلام ليل البطالة ، وردَفَه قمر العزيمة أشرقتْ الأرض بنور ربها ، ....، واعلم أن الهمة همّتان : همّةٌ تدور حول الأنتان (٦) والحُشّ (٧) ، .....، وهمّةٌ قد ارتبطتْ بمَن فوق العرش

---

(١) : رواه مسلم في صحيحه.
(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) : نقلا عن كتاب "لطائف المعارف " لابن رجب.
(٦) : هي القاذورات .
(٧) : هو موضع قضاء الحاجة .

جلّ وعلا " (١)

* أخـــي: "إنّ النية الصالحة والهمة العالية نفسٌ تُضــــيء ،وهمــةٌ تتوقــد ، واعلــم أنّ مَنْ جدّ وجد ،وليس مَنْ سهر كمَنْ رقدَ،وإنّ سِلَعَ المعــــالي غاليــةُ الثمـــن"(٢) .

* أخــي : قد هيأوكَ لأمرٍ لو فطنتَ له ... فاربأ بنفسكَ أن ترعـــى مـــع الهَمَـــلِ .

* يا فتى الإسلام : " إنّ وقتَ المومن جِدٌّ كلـــه لعلمـه بِشـرف الزمـــان ، ومَـــنْ تلمّح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف ، وكلمـــا تعـــاظمت الهمــم تصـــاغرت الجثث :

إذا اشتغل اللاهونَ عنك بشُغلهم ... جعلتُ اشتغالي فيكَ يا مُنتهى شُـــغلي "(٣) .

* أخي : " اغتنم وقتك ، فإنّ الثواء قليلٌ ، والرحيـــل قريـــبٌ ، والطريـــق مَخُـــوفٌ ، والاغترار غالبٌ ، والخطر عظيمٌ ، والناقد بصيرٌ ، وإذا قـــال لـــك البطّـــالون مـــن الكُسالى : لو تفرّغت لنا!! فاقرع أسماعهم بقول"عمر بن عبـــد العزيـــز"رحمـــه الله : "وأين الفراغ ؟!! ذهب الفـــراغ فـــلا فـــراغ إلا عنـــد الله !! " ، واعلـــم أنـــه لا مُستراحَ للعابدين ،إلا تحت شجرة طوبى في جنـــات النعيـــم ".(٤) .

* يـــافـــتى الإســـلام : " ليكن شعارك الصبر ، وراحتـــك التعـــب .

* أخي: "ليكن شعارك هو قول الإمام "أحمد" لولده : لقـــد أعطيـــتُ المجهـــودَ مـــن نفسي !!"، ولما سُئل الإمام "أحمد" : متى يجد العبـــد طعـــم الراحـــة ؟!! ، فقـــال : عند أول قدمٍ يضعها في الجنـــة !!

رحـــمكَ الله يا ابنَ حنبلٍ ... نـــفسٌ لـــهـــوُهـــا التـــعـــبُ " (٥) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الفوائد" لابن القيم . (٢) : نقلاً عن كتاب " الرقائق " لمحمد الراشد .

(٣ ، ٤ ، ٥) : نقلاً عن نفس المصدر السابق .

وختاماً : يا فتى الإسلام : تذكّر كلمة "شُميط بن عجلان" رحمه الله ، حين قال :

" صبراً على لأوائها (١)، والموعدُ الله " (٢).

واعلم أنك إنْ تخاذلتَ أو تكاسلتَ أو ركنتَ إلى الدنيا وزخرفها ولذائذها ، فهناك مَنْ سيحمل الراية غيرك ، ويُواصل المسيرة الإيمانية والعلمية المظفرة :

لئن عرفَ التاريخُ أوساً وخزرجاً ... فللهِ أوسٌ قادمونَ وخزرجُ .

---

(١) : أي شدة الدنيا ونكباتها ومصائبها .

(٢) : نقلاً عن كتاب " الرقائق " للراشد .

١٠٢ طريقة للتحمس لطلب العلم الشرعي

النفس البشرية مطبوعةٌ ومجبولة على التأثر بالمؤثرات والاستجابة لها ، فإذا كانت هذه المؤثرات دافعةً ومحفزةً تحفزت النفس ونشطت ، وإن كانت هذه المؤثرات مانعةً ومثبّطةً تراجعت النفس وتكاسلت ، وسنذكر الآن أكثر من (١٠٠) طريقة للتحمس لطلب العلم الشرعي ، والله المستعان على كل حال .

١ الإخلاص لله تعالى في طلب العلم

من أعظم الوسائل المساعدة على التحمس لطلب العلم الشرعي ، "إخلاص النية والصدق مع الله في طلب العلم "، فهذان الأمران دواءٌ وبلسمٌ رباني ، يُغيث الله بهما القلوب، أكثر من أيّ دواء آخر .

واعلم يا مُوفق، أنَّ مَنْ أخلص في طلبه للعلم لله وحده ، وصدق فيه مع ربه ومولاه ، فهو لا يريد بعلمه ثناءً ولا سمعةً ولا منصباً ولا شهادةً ولا متاعاً دنيوياً زائلاً ، فإنَّ الله تعالى يُوفقه لطلب العلم ، ويُعينه عليه ، ويقوّي همّته لطلبه وتحصيله ، فترى هذا المخلصَ شعلةً ملتهبةً من الحماسة والتوقد والتلهف لتلقي العلم !! .

والسبب في تلك الهمة والحماسة المتوقدة للطلب ، عند أولئك المخلصين الذين يريدون وجه رب العالمين ، هو أن هذا العلم الشرعي هبةٌ ومنحةٌ ونورٌ من الله تبارك وتعالى ، لايقذفه جلّ وعلا ولا يمنحه إلا للصادقين

المخلصين من عباده ، لأنهم وحدهم هم المستحقون لحمل هذا الشرف العظيم ، وهم وحدهم المؤهلون للقيام بما يترتب عليه ، من نشرٍ له ودعوةٍ إليه وعملٍ وتطبيقٍ له ، والأمر كما قال تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(١) .

*وقد أمرنا الرب تبارك وتعالى بإخلاص العبادة له وحده دون سواه، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾(٢) ، وطلب العلم الشرعي من أجلّ العبادات وأفضلها عند الله تبارك وتعالى .

* وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ أنَّ طلب العلم الشرعي لغير وجه الله تعالى،كبيرةٌ من الكبائر العظام، وبيَّن لنا العقوبة الشديدة التي أعدَّها الله عزَّ وجلَّ لهذا الصنف الفاجر :

*عن"أبي هريرة" رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال: (مَنْ تعلَّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليُصيبَ به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْفَ الجنة(٢)يوم القيامة)(٣) .

*وعن "جابر بن عبد الله" رضي الله عنهما قال : قال الرسول ﷺ : (لا تعلَّمُوا العلم لتُباهوا به العلماء ،أو تُماروا به السفهاء ، ولا لتجترئوا به المجالس ، فمَنْ فعلَ ذلك فالنارَ النارَ !!)(٤) .

وقد كان أئمتنا وسلفنا الأبرار يحثون على الإخلاص في طلب العلم الشرعي ويحذرون من طلب العلم لغير وجه الله تعالى :

---

(١) : سورة الملك الآية (١٤) . (٢) : أي رائحتها .

(٣) : رواه أحمد في المسند وأبوداود والحاكم وصححه "الألباني" في "صحيح الجامع"برقم (٦١٥٩).

(٤) : رواه الحاكم وابن حبان وابن ماجة ، وصححه "الألباني" في"صحيح الجامع" برقم (٧٣٧٠) .

*قال "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه :" يا حملة العلم :اعملوا به ، فإنه سيكون أقوامٌ يحملون العلم لا يُجاوز تراقيهم ، تُخالف سريرتُهم علانيتَهم ، ويُخالف عملُهم علمَهم ، يجلسون حِلَقاً يُباهي بعضهم بعضاً ، حتى إنَّ أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله "(١).

*قال"حماد بن سلمة"رحمه الله :" مَن طلبَ الحديث لغير الله ، مُكِر به !! "(٢).

*قالوا "لسفيان الثوري"رحمه الله : مَنْ الناس ؟! فقال : العلماء ، قيل: فمَنْ الملوك ؟!! فقال: الزهاد ، فقيل: فمَن السَفَلَة ؟!! قال : الذين يكتبون الحديث يأكلون به الناس "(٣).

*قال "إسرائيل بن يونس" رحمه الله : "مَنْ طلبَ هذا العلم لله ، شَرُفَ وسَعُدَ في الدنيا والآخرة ، ومَنْ لم يطلبه لله خسر الدنيا والآخرة".

فإن قلتَ لي :كيف أكون مخلصاً لله تعالى في طلبي للعلم الشرعي؟!! فأقول لك :

* استمع إلى الإمام" ابن جماعة "رحمه الله وهو يُجيبك عن هذا السؤال فيقول :

" حسن النية في طلب العلم أن يقصد به وجه الله سبحانه وتعالي ، والعمل به ، وإحياء الشريعة ، وتنوير قلبه ، وتحلية باطنه ، والقرب من الله يوم القيامة ، والتعرض لما أعدَّه لأهله (أي أهل العلم) من رضوانه وعظيم فضله ..... ، ولا يقصد به الأغراض الدنيوية ، مثل تحصيل الرياسة والجاه والمال ، ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له ، وتصديره في المجالس ، ونحوذلك ...."(٤).

(١ ، ٢) : نقلا عن كتاب "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"للخطيب البغدادي ج ١ .

(٣) : نقلا عن كتاب"إحياء علوم الدين"للغزالي(١/١٢) .

(٤) : نقلا عن كتاب" تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم"لابن جماعة الكناني،ص ٦٨ .

واعلم يا مُوفَّق : أنه على قدر صدقك مع الله تعالى ، وإخلاصك له في طلب العلم الشرعي ، يكون حفظك وفهمك وسعة علمك !! .

* قال"ابن عباس" رضي الله عنهما : " إنما يَحفظُ الرجلُ على قدر نيته !! " .

* قال"أبو يوسف" رحمه الله :"يا قومُ أريدوا بعلمكم وجه الله تعالى ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوَ (أي أُريدُ به الثناء والسمعة والرفعة على الأقران) ، إلا لم أقُم (أي من ذاك المجلس) حتى أُفتضَح !! (أي عند أهل ذاك المجلس بأني لا علمَ عندي)" .

* واستمع إلى الشيخ "الشوكاني "رحمه الله ، وهو يقرر ذلك فيقول :

"إن لحسنِ النية وإخلاص العمل تأثيراً في هذا المعنى (أي في حفظ العلم وفهمه والتحمس لطلبه) ، فمَنْ تعكَّست عليه أموره من طلبة العلم،أو أُكلِفَ عليه مطالبه (تضايقت مقاصده) فليعلم أنه بذنب أُصيبَ ، وبعدم إخلاصه عُوقِبَ ، أو أنه أُصيبَ بشيءٍ من ذلك محنةً له وابتلاءً واختباراً ، لينظرَ كيف صبرهُ واحتمالهُ ، ثم يُفيضُ عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازين العطايا" [١] .

* قال"سفيان الثوري"رحمه الله :"ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نيتي!!" [٢].

* واستمع إلى"الإمام"ابن القيم" وهو يزيد الأمر وضوحاً بقوله :

المطلب الأعلى موقوفٌ حصوله على همَّةٍ عالية ونيَّةٍ صحيحة، فمَن فقدهما تعذَّرَ عليه الوصول إليه ، ... ، وإذا كانت النيَّة صحيحةً سلك العبد الطريق الموصلة إليه (أي إلى مطلوبه) ، فالنية تُفرِدُ له الطريق ، والهمَّة تُفرد له المطلوب ... ، وإذا كانت النية غير صحيحة ، كانت طريقهُ غير موصلةٍ إليه ، فمدار الشأن على همَّة العبد ونيَّته ؛ وهما مطلوبه وطريقه ،..."[٣] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " أدب الطلب " للشوكاني ، ص ٩١ .

(٢) : نقلاً عن كتاب " الجامع لأخلاق الراوي " للبغدادي ، (٣١٧/١) .

(٣) : نقلاً عن كتاب " الفوائد " لابن القيم .

فـإنْ سألتَ : هل الأولى بمـن لم يشـعر مِـن نفسـه بـالإخلاص في طلب العلم الشرعي ، أن يترك طلب العلم ويُعرض عـن تحصيلـه ؟!

فالجواب: كلا وألف كلا !! ليس هذا هو العلاج ، بـل الواجـب عليـه أن يُجـاهد نفسه ويُكرهها على الإخلاص لله تعالى ،وعليه أن يُحاول إصـلاح نيتـه وتصفيتهـا من الشوائب والأدران ، وإنْ كان هـذا شـاقاً في بـادئ الأمـر ، لكـن إنْ علـمَ المولى سبحانه وتعالى من عبده الصدق والرغبـة الجازمـة في إخـلاص عملـه لـه ، يسرَّ عليه ذلك وأعانه عليه وأمدَّه ووفقه إليه ، وأما أن يـدع المـرء طلـب العلـم وتحصيله بدعوى عدم الإخلاص لله ، فهـذه حيلـةٌ شـيطانيةٌ ووسوسـةٌ إبليسـيةٌ يجب الحذر منها والإعراض عنهـا .

.. فـإن قلتَ لي : ولكن كيف أُجاهد نفسي وأُربّيهـا علـى الإخـلاص في العمل لله وحده دون سواه ؟! ... فأقول لك : لقد سـألتَ عـن عظيـمٍ،فاسـتمع إلى الإمام "ابن القيم" و، هو يشرح لك ذلك الأمر المهـم الخطـير ، فيقـول :

" لا يجتمع الإخلاص في القلب ، ومحبة المدح والثناء والطمـع فيمـا عنـد النـاس ، إلا كما يجتمع الماء والنار ، ... ، فإذا حدثتكَ نفسـكَ بطلـب الإخـلاص ، فـأقْبِلْ على الطمع (أي في مدح النـاس وثنـائهم عليـك ، والطمـع في أموالهـم ومنـاصبهم) أولاً فاذبحـهُ بسكينِ اليأس (أي اليأس مما في أيدي الناس) ، وأقبِل علـى المـدح والثنـاء فـازهد فيـه زُهدَ عشاق الدنيا في الآخرة ، فإذا استقام لـك ذبـح الطمـع والزهـد في الثنـاء والمدح سَهُلَ عليك الإخـلاص.

فإنْ قلتَ : ما الذي يُسهّل عليّ ذبح الطمع والزهـد في الثنـاء والمـدح ؟!!

قلتُ : أما ذبح الطمع فيُسهله عليك علمك يقيناً بأنه ليس من شيءٍ يُطمَـع فيـه إلا وبيدالله وحده خـزائنه ،... ، وأما الزهد في الثناء والمدح فيُسهله علمك أنه ليس أحدٌ

ليس أحدٌ ينفع مدحه ويزين ، ويضر ذمُّه ويشين إلا الله وحده " (١) .

فيا أخي الحبيب : راقب ربّك ومولاك ، واعصِ نفسكَ وهواك ، وأخلِصْ لله تعالى في حركاتك وسكناتك ، واصدق مع المولى سبحانه في كل أحوالك ، و ليكن شعارك دائماً :

"يا نفسُ أخلِصي تتخلَّصي" .

(١) : نقلاً عن كتاب " الفوائد" لابن القيم .

٢ معرفة مدى حرص السلف على تحصيل العلم

أخبار العلماء العاملين ، وقصص أئمة الدين المهديين من أعظم الوسائل التي تغرس في القلوب الفضائل ، وتُشعلها حماسةً وتوقداً للخير والبر والتقى :

* قال " أبوحنيفة النعمان "رحمه الله : "الحكايات عن العلماء ومحاسنهم ، أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقه ، لأنها آداب القوم وأخلاقهم " (١)، وشاهدهُ من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

* قال بعض السلف :"الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى ، يُثبّت الله بها قلوب أوليائه " (٣) ، وشاهدهُ على ذلك قوله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٤) .

ولقد ضربَ سلفنا الأبرار أروع الأمثلة ، وقدموا لنا أعظم النماذج في الحرص على طلب العلمْ وتحصيله والشوق إليه ، فتعال بنا- أخي الحبيب لنرحل معهم ، ونقطف من أزاهيرهم وشذاهم :

* قال"عبد بن حميد"رحمه الله : "سألني"يحي بن معين"عن حديث أولَ ما جلسَ إليّ ، فقلتُ : حدثنا "حماد بن سلمة" عن ،....، فقال : لو كانَ من كتابكَ (أي لوّ أمليتهُ عليّ من كتابك لكان أفضلَ وأضبطَ) ، قال : فقمتُ لأُخرجَ كتابي ، فقبضَ

---

(١) : نقلا عن كتاب" جامع بيان العلم وفضله " لابن عبد البر الأندلسي (١/١١٧) .

(٢) : سورة يوسف الآية (١١١).

(٣) : نقلا عن نفس المصدر السابق (١/١١٧) .

(٤) : سورة هود الآية (١٢٠) .

على ثوبي !! وقال : أمله عليَّ (أي الآن من حفظك) ، فإني أخاف ألا ألقاكَ !! (أي أخشى أن تموت في أثناء ذهابك لإخراج كتابك من بين الكتب) .

فأمليتهُ عليه ، ثم أخرجتُ كتابي فقرأتهُ عليه " (١).

* كان الشيخ "عبد الله بن حمود الزبيدي" رحمه الله ، يدرسُ ويتتلمذُ على الشيخ "أبي علي القالي" رحمه الله ، وكان "لأبي علي" بيتٌ للدواب بجوار بيته ، وكان يربط فيه دابته، وفي ذات مرةٍ ، نام تلميذه "عبدالله الزبيدي" في بيت الدواب !! ... لأجل أن يسبق بقية الطلبة إلى الشيخ قبل أن يزدحموا عليه !! ، وليتمكن من سؤاله عن أكبر قدرٍ ممكن من الأسئلة قبل الزحام .

فقدَّر الله تعالى أن خرج "أبوعلي القالي " ، في تلك الليلة من بيته ، مبكراً قبل طلوع الفجر ، فأحسَّ به تلميذه "الزبيدي " ،فقام يتبعه في الظلام !! ... فشعر" أبوعلي" بشخصٍ يتبعه ، فخاف وظنَّه لصاً يريد الفتك به !! فصاح فيه قائلاً :ويحكَ مَنْ تكون ؟! ... فقال : أنا تلميذك "الزبيدي"!!

فصاح فيه "أبوعلي " قائلاً: إلى متى تتبعني؟! ... واللهِ ما على الأرض أحدٌ أعلمَ بالنحو منكَ !! (أي فدعني واتركني ولا تتبعني) " (٢) .

فتأمل رعاك الله ، هذه الهمة العالية ، وهذا الحرص الشديد على طلب العلم وتحصيله ، هذه الهمة التي أدَّت بهذا التلميذ إلى النوم مع البهائم والدواب ؛ لأجل المسابقة إلى لقاء شيخه ، وتلقي العلم عنه !!فأين نحن من هؤلاء ؟!!

* جاء "شعبة بن الحجاج " إلى "خالد الحذَّاء" رحمهما الله ، فقال"شعبة لخالد": يا أبا مُنازل" عندك حديث كذا وكذا فحدثني به ، وكان "خالد" إذ ذاك عليلاً، فقال"خالد": أنا وَجِعٌ !! ، فقال"شعبة":إنما هو حديثٌ واحدُ فحدِّثني به ، فحدَّثهُ به .

---

(١) : نقلا عن كتاب " الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب البغدادي .

(٢) : نقلا عن كتاب"إنباه الرواة على أنباء النحاة " للقفطي رحمه الله (٢/١١٩) .

فلما فرغ ، قال له شعبة : مُتْ الآن إذا شئتَ !! " (١) .

* قال"شعبة بن الحجاج"رحمه الله :"ما رأيت أحداً قطّ يعدو (أي يركض في الطرقات) إلا قلتُ : مجنونٌ أو صاحب حديث !! (أي أنه لا يفعل هذا الفعل المنافي للأدب والوقار ، إلا أحد شخصين : إما مجنون فلا يُستنكر منه ذلك ، وإما طالب علمٍ يركض ويُسابق إلى حلقة شيخه حتى لا يفوته الدرس ، وهذا شيءٌ محمودٌ) "(٢) .

* قال"جعفر بن درستويه"رحمه الله :" كنا نأخذ المجلس (أي نحجز لنا مكاناً من شدة الزحام) في مجلس "علي بن المديني" ، وقتَ العصر اليوم لمجلس الغد ، فنقعد طوال الليل (أي في أماكننا) ، مخافة ألا نلحق من الغد موضعاً نسمعُ فيه !! (أي نسمع فيه درس الحديث لشدة الزحام) ، ورأيتُ شيخاً في المجلس ، يبول في طيلسانه ، ويُدرج الطيلسان (والطيلسان هو نوع من اللباس كالجُبّة) حتى فرغَ !! ، مخافة أن يُؤخذَ مكانه إن قامَ للبول !! " (٣) .

ولا غرابة في مثل هذه القصة ،لأن موضع الدرس لم يكن في المسجد ، بل في ساحةٍ من الساحات الكبيرة وسط البلدة أو في أطرافها ، وهذا "التلميذ النجيب" كان ينتظر حضور الشيخ لإلقاء درسه في غير وقت صلاةٍ ، كبعد الفجر أو بعد العصر ، أو بين الظهر والعصر ، فأحسّ برغبته في قضاء الحاجة ، ولكنه خشيَ إنْ قامَ عن مكانه أن يُؤخذ مكانه ، فبالَ في مكانه في طيلسانه ، بحيث لا يرى عورته أحد !! لأن ساحة الدرس تكون غالباً كبيرة وواسعة ، ثم أدرجَ الطيلسان ولفّهُ ، ثم لما انتهى الدرس سكب البول من الطيلسان ، وغسل طيلسانه ، فأيُّ غرابةٍ في هذا !! .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " شرف أصحاب الحديث" للخطيب البغدادي ، ص ١١٦ .

(٢) : نقلاً عن كتاب "الجامع لأخلاق الراوي" للخطيب البغدادي (١/١٥٢) .

(٣) : نقلا عن كتاب"الجامع لأخلاق الراوي" للخطيب البغدادي (٢/١٩٩) .

* قـــال"ابن أبي حاتم ": سمعتُ "المزنـــي"يقـــول:"

قيل للإمام"الشافعي"رحمه الله :كيف شهوتك للعلم ؟!! فقال:أسمعُ بالحرف (أي بالكلمة) مما لم أسمعه ،فتودُّ أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم بما تنعمت به الأذنان !! ... فقيل له : فكيـــف حرصك عليه ؟! ، فقال : حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال !!

فقيل له : فكيف طلبكَ له ؟! ، فقال: طـــلب المـــرأة المضلَّـــة ولــــدها، ليـــس لها غيرهُ !! " (١) .

* قـــال"ابن جندل القرطبي": " كنتُ أختلف إلى "ابـــن مجـــاهد"رحمـــه الله (أي أدرسُ عليه) ، فأدلجتُ إليه (أي بكّرت إليه ذات مرةٍ قبل الفجر) ؛ لأتقـــرَّب منـــه (أي لأحصّـــل مكانـــاً في الحلقة قريباً منه) ، فلما انتهيتُ إلى الدرب (أي البوابـــة) الـــذي كنـــت أخـــرج منـــه إلى مـــجلســـه ، وجدتهُ مغلقاً ، وعَسُرَ عليَّ فتحـــهُ ، فقلـــتُ : ســـبحان الله !! أُبكِّـــرُ إليه هذا البكور!! وأُغلَبُ على القرب منـــه !! ... فرأيـــتُ حفـــرةً بجـــوار الـــدار ، فاقتحمتها ودخلتُ فيها !! (أي لأجل أن يزحف تحـــت الأرض حتـــى يصـــل إلى نهايـــة الحفـــرة ثـــم يخرج منها ويذهب إلى مجلس العلـــم !!) .

فلما صرتُ في وسط الحفرة،ضاقتْ بي ، ولم أتمكن من الخـــروج منهـــا ، ولا مـــن النهوض ، فاقتحمتُ الحفرة أشدَّ اقتحـــام !! حتـــى خرجـــتُ منهـــا وقـــد تخرَّقـــت ثيابي وتقطَّعتْ !! ، وقد أثَّرت الحفرة في جسمي ، حتـــى انكشـــف اللحـــم عـــن بعض العظم !! ومنَّ الله تعالى علـــيَّ بـــالخروج منهـــا ، فـــأدركتُ مجلـــس الشـــيخ وحضرتهُ ، وأنا على هذه الحـــال العجيبـــة !!.." (٢) .

* عـــن "سعيد بن جبير" رحمه الله قال:"كنت أسير مع "ابن عـــباس" رضي الله عنهما ، في طريق مكـــة ليلاً ، وكـــان يُحدّثـــني بالـــحديـــث ، فـــأكتبـــهُ في واســـطة

---

(١) : نقلاً عن كتاب"توالي التأسيس بمناقب "محمد بن إدريس" لابن حجر العسقلاني، ص ١٠٦ .

(٢) : نقلا عن كتاب"إنباه الرواه على أنباء النحاة"للقفطي(٣٦٣/٣) بتصرف .

الرَّحْل ، حتى أُصبحَ فأكتبه !!(أي أكتبه في الورق) " [١] .

*وهذا "الشافعي" يقول : " كنت يتيماً في حجر أمي ، فدفعتني إلى الكُتّاب (أي مدرسة المسجد) ، ولم يكن عندها ما تُعطي المعلّم (أي من المال مقابل تدريسه لي) ،... ، وكنتُ أسمعُ الحديث أو المسألة فأحفظها ، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيس (أي ورق للكتابة فيه) ، فكنتُ إذا رأيتُ عظماً يلوح (أي يلمع بياضاً) آخذه فأكتب فيه !! فإذا امتلأ طرحتهُ في جَرَّة كانت لنا قديمة !! " [٢] .

*حكى "سليم الرازي" : " أن الشيخ"أبا حامد الإسفراييني"رحمه الله ، كان في أول أمره يحرس في بعض الدروب ، ويُطالعُ العلم في زيت الحرس !! (أي يقرأ الكتب على ضوء مصباح الحراسة لشدة فقره وعجزه عن شراء زيتٍ لمصباحه !!) ، وكان يأكل من أجرة الحرَس ،..." [٣] .

*قال"ابن عساكر" في ترجمة العبد الصالح"أبي منصور محمد بن الحسين النيسابوري" رحمه الله :

"... ، وجَدَّ واجتهدَ (أي في طلب العلم) في فقرٍ وقلة من ذات اليد ، حتى أنه كان يُعلّق دروسه (أي يكتب عليها تعليقات ومعلومات إضافية) ويُطالعها في القمر!! (أي على ضوء القمر لعجزه عن شراء زيتٍ للمصباح) ؛ لضيق يده عن تحصيل دهن السراج!! وهو مع ذلك يُكابد الفقر ويُلازم الورع،ولا يأخذ من مال الشبهة شيئاً!!" [٤] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " سنن الدارمي " للإمام الدارمي رحمه الله (١/١٠٥) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "جامع بيان العلم وفضله"لابن عبد البر (١/٩٨) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين السبكي (٤/٦١) .

(٤) : نقلاً عن كتاب "تبيين كذب المفتري" لابن عساكر الدمشقي رحمه الله .

٣ إدراك فضل العلم الشرعي وشرفه

الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره وإدراك خصائصه ومزاياه ، وهذا أمرٌ متفق عليه بين العقلاء جميعاً ، وهذا العلم الشرعي شرَّفه المولى جلَّ وعلا بمزايا عديدة ، وخصه بخصائص فريدة ، لم يجعلها سبحانه لسواه من العبادات ، فتأمل معي أخي الحبيب هذه القبسات اليسيرة عن شرف العلم الشرعي وفضله :

(*) استشهد الرب جلَّ وعلا ، أهل العلم الربانيين ، على أجلِّ مشهود وأعظم حقيقة ، ألا وهي توحيد الله تعالى وإفراده دون سواه بالألوهية ، فقال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (١) .

ووجه الدلالة من هذه الآية ، على شرف العلم وفضله من ثلاثة وجوه ، قررها الإمام "ابن القيم" بقوله:

" أولها : أنَّ الله تعالى استشهد العلماء دون غيرهم من سائر البشر ، وهذا دليلُ فضلهم ، وثانيها : أنَّ الله تعالى قرن شهادة العلماء بتوحيد الله وانفراده بالألوهية ، بشهادته جلَّ وعلا لنفسه بهذا الأمر ، وثالثها : أنَّ في ضمن هذا الاستشهاد تزكيةً للعلماء وتعديلاً لهم ، لأنَّ الله لا يَستشهدُ مِن خلقه إلا العُدولَ " (٢) .

(*) أمرَ الرب تبارك وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ، أن يدعوه ويسأله أن يزيدهُ من العلم النافع ، فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٣) ،

---

(١) : سورة آل عمران الآية (٥٢) . (٢): نقلا عن كتاب "مفتاح دار السعادة" لابن القيم ج ١.

(٣) : سورة طه الآية (١١٤) .

جلّ في علاه ، لم يأمره بالدعاء بالازدياد من أيّ شيء سوى العلم الشرعي ،وما ذاك إلا لفضل العلم وشرفه ، ورفعة قدره عنده تبارك وتعالى .

* أمر الرب تعالى ، الناس بالرجوع إلى أهل العلم ، وسؤالهم عما أشكل عليهم من أمور دينهم ، وجعل ذلك فرضاً واجباً ، يأثم تاركه ، فقال تعالى في محكم القرآن : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

* أوجبَ الرب سبحانه وتعالى ،علينا طاعة أهل العلم الصادقين ، في غير المعصية ، فقال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٢] .

* قال"الشوكاني"رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية : " ... ، وقال"جابر بن عبد الله"و "مجاهد": أولوا الأمر هم أهل العلم والقرآن ،... ، وقال"عطاء : هم أولوا الفقه والعلم ،... ، وقال "أبوهريرة" : هم الأمراء ،..."[٣] ، والراجح أن الآية تشمل الصنفين جميعاً .

* ولأجل شرف العلم وفضله ، أباح الله تعالى لنا أكل الصيد الذي اصطاده الكلب المعَلّم (أي الذي دُرّب على الصيد) ، وحرّم علينا أكل ما صاده الكلب غير المعَلّم ، وهذا دليلٌ على أن البهائم والعجماوات تتفاضل بالعلم !! فكيف الحال ببني آدم ؟! .

* قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾[٤] ، فتأمل كيف أنه لولا فضل العلم وشرفه لكان صيد الكلب المعَلّم والجاهل سواءً .

---

(١) : سورة النحل الآية (٤٣) .
(٢) : سورة النساء الآية (٥٩) .
(٣) : نقلا عن"تفسير فتح القدير" للشوكاني ج ٢ .
(٤) : سورة المائدة الآية (٥) .

* وإن شئتَ أن تعرف الشرف الإسلامي الحق ، فاستمع إلى قوله ﷺ :
" تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فَقِهُوا " (١) .

* قال "الحافظ ابن حجر العسقلاني" رحمه الله تعقيباً على هذا الحديث :
"... ، أما قوله: "إذا فَقِهُوا" ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين ،... " (٢) .

* ومما يدلك على شرف العلم الشرعي ، أن تعلم أن المقدَّم في تولي الولايات والمناصب الشرعية هو الأعلم والأتقى :

* عن "أبي مسعود البدري" رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال :
" يؤمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمُهم بالسنَّة ، فإن كانوا في السنَّة سواءً فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سنّاً " (٣) .

* وما أجمل قول "ابن القيم" مُعقباً على هذا الحديث :" فقَدَّم في الإمامة فضيلة العلم على تَقَدُّم الإسلام والهجرة ، ولمَّا كان العلم بالقران أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدَّم العلم به ، ... ، وهذا يدل على شرف العلم وفضله ، وأنَّ أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية "(٤) .

* ويدلك على فضل العلم الشرعي ، أن النبي ﷺ أمر بتبليغه وتعليمه للناس ، فقال : " بلِّغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومَنْ

---

(١) : رواه البخاري ومسلم .
(٢) : نقلاً عن كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"(٦/٥٢٩) .
(٣) : رواه مسلم في صحيحه .
(٤) : نقلا عن كتاب "مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/٧٣) .

كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) (١) ، فتبليغ العلم أمر يحبه الرسول ﷺ ، وكفى بذلك دلالةً على شرف العلم الشرعي وفضله .

(٧) وقد ذمّ النبي ﷺ الدنيا وما فيها إلا ذكر الله تعالى ، وطلب العلم الشرعي ، وهذا دليلٌ واضحٌ على شرف العلم الشرعي وعظيم فضله ، عند المولى جلّ في عُلاه :

* عن "أبي هريرة" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : " الدنيا ملعونةٌ (أي مذمومةٌ) ، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاهُ، أو عالماً أو متعلماً" (٢)

(٨) وهذا العلم الشرعي ، هو ميراث النبي ﷺ :

*روى "الخطيب البغدادي" : (أن أعرابياً مرّ و"عبدالله بن مسعود" رضي الله عنه ، يُعلّم ويُحدّث طلابه ، وهم حوله مجتمعون ، فقال الأعرابي : علامَ اجتمع هؤلاء؟ فقال "ابن مسعود" :على ميراث محمد ﷺ يقتسمونهُ بينهم " (٣)

* قال "سفيان الثوري" رحمه الله :" ما أعرف شيئاً أفضل من طلب الحديث ، إذا أُريدَ به الله "(٤) .

*واستمع إلى "ابن القيم" وهو يقول مبيناً فضيلة العلم :

" فأفضل ما اكتسبته النفوس ، وحصّلته القلوب ، ونال العبد به الرفعة في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان ولذا قرن بينهما سبحانه في قوله : ﴿ وَقَالَ الذينَ أُوتُوا العِلمَ والإيمَانَ لَقَد لَبِثتُم فِي كِتَابِ اللهِ إلى يَومِ البَعثِ ﴾(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ يَرفَعِ اللهُ

---

(١) : رواه البخاري ومسلم . (٢) : رواه "ابن ماجة" في "سننه"،والطبراني" في "معجمه الأوسط" من حديث "ابن مسعود" رضي الله عنه، وحسنه "الألباني" في "صحيح الجامع" برقم (٣٤١٤) .

(٣) : عن "شرف أصحاب الحديث" للخطيب . (٤) : عن "تهذيب تاريخ دمشق" لابن عساكر (٣/٣٤٥) .

(٥) : سورة الروم الآية (٥٦) .

الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾[١] ، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولُبُّه ، والمؤهلون للمراتب العلية ، ..." [٢] .

* وهذا" محمد بن شهاب الزهري" رحمه الله يقول : " ما عُبِدَ الله بشيءٍ أفضل من العلم " [٣] .

* وهذا "سفيان الثوري"رحمه الله ، يقول : " لا أعلمَ بعد النبوة أفضل من بثِّ العلم "[٤] .

*ومما يدلك على شرف العلم الشرعي وفضله عند الله تعالى ، أن تعلم أن العلم الشرعي يصل ثوابه إلى العبد حتى بعد موته وهو في قبره ، فكأن جريان أجر العلم عليه بعد موته حياةٌ ثانيةٌ له :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :"إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية ، أو علمٍ يُنتفَع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له"[٥] .

*قال الإمام"أحمد":"لا يُثبِّط عن طلب العلم إلا جاهل !! " [٦] .

وإن شئتَ دليلاً واقعياً ، على فضل العلم الشرعي وشرفه ، فاستمع إلى الإمام "ابن عبد البر" وهو يقول : " كل من نُسبَ إليه (أي إلى العلم) فرح بذلك ، وإن لم يكن من أهله !!(أي وإن لم يكن من أهل العلم) ، وكلُّ من دُفِعَ عنه ونُسب إلى الجهل ، عزَّ عليه (أي حزن لذلك) ، ونال ذلك من نفسه، وإنْ كان جاهلاً " [٧] .

* واستمع إلى هذه المناظرة الطريفة بين العلم والعقل :

---

(١) : سورة المجادلة الآية (١١) . (٢) : نقلا عن كتاب"الفوائد" لابن القيم .

(٣) : نقلا عن كتاب "البداية والنهاية"للحافظ" ابن كثير الدمشقي" (٣٤٥/٩) .

(٤) : نقلا عن كتاب"تاريخ بغداد"للخطيب البغدادي(١٦٠/١٠) .

(٥) : رواه البخاري ومسلم . (٦) : نقلا عن كتاب" غذاء الألباب" للسفاريني ، جـ ٢ .

(٧) : نقلاً عن كتاب"جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (٥٩/١) .

علمُ العليمِ وعقلُ العاقلِ اختلفا
مَنْ ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزتُ غايتهُ
والعقل قال :أنا الرحمن بي عُرِفا
فأفصحَ العلم إفصاحاً وقال له
بأيِّنا الرحمن في فرقانه اتصفا
فبانَ للعقل أنَّ العلمَ سيدهُ
فقبَّل العقلُ رأسَ العلم وانصرفا

٤ قتل أسباب الملل والقضاء عليها

قد تكون لدى المرء همة وحماسة ، للقراءة في كتب العلم الشرعي ، فيأخذ كتاباً ما ويبدأ بالقراءة فيه ، أو الحفظ منه ، ولكنه ما تكاد تمضي فترة قصيرة على ذلك ، حتى يبدأ يشعر بالنعاس يتسرب إليه ، وبالنوم يداعب عينيه !! وفي كثير من الأحيان يشعر البعض بعد مرور فترة قصيرة من بدء القراءة أو الحفظ ، بالملل والسآمة وانقباض الصدر ، وهذه في الحقيقة مشكلةٌ عويصةٌ ،لكن يمكن التخلص منها عن طريق بعض الوسائل والحلول ، ومنها :

١ ـ غسل الوجه بالماء البارد ، أو الاستحمام الخفيف ، عند شعورك بالنعاس أو الملل ، فإنَّ هذا يُكسب الجسم نوعاً من الحيوية والنشاط .

٢ ـ تغيير هيئة الجلوس للقراءة ،فإنْ كنتَ تقرأ مضطجعاً فاعتدل في جلستك ، وإنْ كنت تقرأ وأنت قاعد فقف واقرأ وأنت قائم ، أو وأنت تدور في أرجاء الغرفة .

٣ ـ الانتقال من الغرفة التي كنت تقرأ فيها ، إلى غرفة أخرى في المنزل ـ إنْ تيسر ذلك ـ فإنَّ هذا التغيير يُكسبك قدراً من الحيوية .

٤ ـ استنشاق الهواء الطلق ، إما بالوقوف عند النافذة قليلاً ، أو بفتح نوافذ أخرى في الغرفة لأجل زيادة التهوية .

٥ ـ المشي والتجوُّل لفترة قصيرة في أرجاء البيت ، أو في حديقة المنزل .

٦ ـ الحديث لفترة قصيرة مع الوالد أو الوالدة أو أحد إخوتك ،حديثاً مباحاً لا محظور فيه ولا معصية ، فإن هذا التجاذب يجعلك أكثر قابليةً للقراءة أو الحفظ .

٧ ـ القيام بإعداد كوب من الشاي أو القهوة أو اللبن أو العصير الطازج ، فإن

ذلك يُساهم في طرد السآمة والملل عن النفس ، ويساعد على صفاء الذهن .

٨ ـ عند الشعور بالملل والسآمة ، يمكنك الاسترخاء قليلاً ، وأخذ قسط من الراحة لفترةٍ قصيرةٍ ،ولكن احذر أن يتحول هذا الاسترخاء إلى نومٍ عميقٍ عميقٍ!! .

٩ ـ تغيير نوعية الطاعة ، فإذا قرأتَ في كتابٍ لمدة ساعتين مثلاً ، ثم شعرتَ بنوعٍ من الملل ، فانتقل إلى الاستغفار أو الصلاة ،أو الاستماع إلى شريطٍ إسلامي لمدة ساعة مثلاً ، ثم عُد إلى القراءة وقد زال عنك كل ملل وسآمة .

١٠ـ تغيير نوع الحاسة التي تعتمد عليها في عبادتك ، فإذا كنتَ تقرأ في كتابٍ مثلاً ، فأنت تعتمد على حاسة"البصر" ، فإذا مللتَ من القراءة ، فغيِّر نوع الحاسة وانتقل مثلاً إلى سماع درس علمي أو تربوي ؛ فإن الاستماع للشريط يعتمد على حاسة "السمع" لا "البصر" .

فإذا مللتَ من الاستماع للشريط ، فانتقل إلى "الكتابة والتدوين" ، التي تعتمد على حاسة"اليد" ، وهكذا تجد أنّك تنتقل من حاسةٍ لأخرى وأنتَ لا تشعر ، فيزول عنك الملل والكلل ، ويتجدد نشاطك .

١١ ـ القيام بأعمال بدنية نافعة ، لا تستغرقُ وقتاً طويلاً ، مثل إعادة الكتب إلى مواضعها في مكتبتك ، أو ترتيب الأشرطة وصَفّها في الدولاب الخاص بها ، أو ترتيب الغرفة وتنظيمها ، فإنَّ كل ذلك يجدد الحيوية والنشاط ويطرد الملل .

٥ معرفة كيف كان السلف يتحسرون ويبكون على فوات العلم

هـــذا العلم الشرعي هو كـــنزٌ نفيـــس ، وجوهـــرةٌ غاليـــة ، ولمـــا عَقَلَ السلف هذه المعاني كانوا يتحسرون على فواتــه عليهــم ، كتحســرهم علــى فقد الأبناء والزوجات والأمـــوال !! ، فتـــأمل معـــي هـــذه الدمـــوع والحســـرات والزفرات على فوات العلم الشـــرعي:

* ذكـــروا "لشعبة بن الحجاج" حديثاً لم يسمعه ، فجعل يقول: وآ حُزناه !! (أي أنه يتحسر على أنه لم يسمع هذا الحديث من الشيخ) "(١) .

* عـــن "عبد الرحمن بن أحمد الباغباني" رحمه الله قـــال : "رحلـــت إلى "ابـــن خلـــف الشيرازي" بنيسابور لأسمع منه الحديث ، فدخلتُ "نيسابور" وأنا أعدو إلى بيت "ابـــن خلف" (أي من شدة الشوق والحرص على لقاء شيخي) ، فلقيتُ أبا نصر الأصبهاني" رحمـــه الله ، فعاتبني وقال : تعالَ معي أُطعمكَ أولاً ، فقدَّم لي الطعام ، فلما أكلنا وفرغنا ، أخـــرج لي "مسموعاته" (أي الأحاديث التي سمعها من الشـــيخ) عن "ابن خلف" ، وقال : لقد مات ودفنته بيدي !! ، قال "عبد الرحمن": فكادت مرارتي تنـــشق!! (أي من الحسرة والألم والحزن علـــى موت "ابن خلف" وأني لم أطلب العلم على يديه) "(٢) .

* قـــال "أبوعلي الفارسي" رحمه الله : " وقع حريقٌ ببغداد ، فأكلَ كلَّ كتبي ، وكنـــتُ قد كتبتها بخط يدي !! ، فبقيتُ شهرين لا أُكلم أحداً !! من شدة الهمَّ والغمَّ الذي نزل بي !! ، ... ، وأقمتُ مدةً ذاهلاً متحيراً " (٣) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " شرف أصحاب الحديث" للخطيب البغدادي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٢٨٧/٤) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "معجم الأدباء" لياقوت الحموي (٢٥٧/٧) .

* وصدقَ مَنْ قال :

وفَقْدُ الكتاب كفقد الصواب .... فيا هولَ مَنْ قد أضاع الكتب .

* رحل المحدّث " أحمد بن محمد الأصبهاني" رحمه الله ، إلى بغدادَ وهو ابن ست عشرة سنة ، مُسارعاً ومُسابقاً ، لُيدرك الشيخ المحدّث " أبا نصر الزينبي " رحمه الله ، ليسمع منه أحاديثَ "علي بن الجعد" التي رواها عن"شعبة" .

فلما وصل إلى بغداد ، تلقاه نبأ وفاة "الزينبي" ، فأخذ "الأصبهاني" يبكي ويصيح ويقول: من أين لي "علي بن الجعد" عن"شعبة" ؟!! " [١] .

* وتأمل في هذه الحرقة والحسرة العجيبة على فوات العلم الشرعي ، والتي يُحدثنا عنها الإمام "شعبة بن الحجاج" رحمه الله ، فيقول :

"إني لأذكرُ الحديثَ يفوتني (أي يفوتني سماعه من الشيخ) فأمرض !! (أي من شدة الحسرة والحزن على فواته) "[٢] .

* وهذا " أحمد بن إبراهيم بن العباس" يقول : " لما ورد خبر موت الإمام "محمد بن أيوب الرازي"رحمه الله ، (وكان"أحمد"يرغب في السفر إلى"الرازي" ليطلب العلم منه، ولكنَّ أهله منعوه من ذلك) ، دخلت الدار وبكيتُ !! ، فاجتمع عليَّ أهلي ، وقالوا: ما أصابك ؟!! ...

فقلت لهم : مات "محمد بن أيوب الرازي " !! ... منعتموني من الارتحال إليه ، قال "أحمد" : فطيّبوا خاطري ،وأذنوا لي في السفر والرحلة لطلب العلم عند الشيخ "الحسن بن سنان" ، ... "[٣] .

* قال"الصفدي" في ترجمته للوزير"جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي"

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تذكره الحفاظ " للذهبي (١٢٨/٤) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" شرف أصحاب الحديث" للخطيب البغدادي ، ص ١١٥ .

(٣) : نقلاً عن كتاب"طبقات الشافعية" للسبكي (٨٠/٢) بتصرف .

رحمه الله : "وله حكايات عجيبة في غرامه بالكتب!! ، منها أنه وقعت له نسخةٌ مليحة من كتاب"الأنساب" "لابن السمعاني" بخط يده ، وكان ينقص تلك النسخة عدة أجزاء منها ، فبحثَ عن تلك الأجزاء المفقودة بكل وسيلةٍ ممكنة فلم يصل إليها ، فلما كانَ بعد فترة اجتاز بعض أصحابه بالسوق ، فوجدَ أوراقاً من كتاب"الأنساب" المفقود عند أحد الباعة، فاشتراها وأحضرها إلى الوزير"القفطي" ، لعلمه بحرصه عليها، فاستدعى الوزير البائع وسأله عنه (أي عن الكتاب) ، فقال الرجل : اشتريته في جملة أوراق ، وعملتهُ قوالبَ للقلانس !! .

فلما سمع الوزير ذلك ، حدث عنده من الهمّ والغمّ والوجوم ما لا يمكن التعبير عنه ، حزناً على ما فاته من أوراق الكتاب ، حتى أنه بقي أياماً لا يركب إلى القلعة!! (وهي قصر الحكم) ، وقطعَ جلوسهُ !! (أي لقضاء حوائج الناس) ، وحضر عنده الأعيان يُسلُّونه ويُعزُّونه كما يُسلَّى من فُقِدَ له عزيزٌ !! ... والحكايات الدالة على عشقه للكتب كثيرةٌ!! " (١).

* قال "يعقوب بن سفيان الفسوي"رحمه الله : " أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنةً !! ... وكنتُ في رحلتي ، فقلّت نفقتي ، فكنتُ أدمن الكتابة ليلاً وأقرأ نهاراً !! فلما كانَ ذات ليلة ،كنت جالساً أنسخُ في السراج (أي على ضوء السراج) ، وكان الوقت إذ ذاك شتاءً ، فنزل الماء في عيني ، فلم أُبصر شيئاً (أي أنه أصبح أعمى)، فبكيتُ على نفسي لانقطاعي عن بلدي ، وعلى ما فاتني من العلم (أي بسبب العمى) ، فغلبتني عينايَ (أي نمتُ) ، فرأيتُ النبي عليه الصلاة والسلام ، في النوم ،فناداني :

يا يعقوب :لِمَ بكيتَ ؟!! ... فقلتُ : يا رسول الله ذهب بصري ، فتحسرتُ على ما فاتني !!(أي من العلم) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء " للطباخ ، جـ ٤ .

، فقال لي : ادنُ مني ، فدنوتُ منه فأمرَّ يده على عينيَّ ، كأنه يقرأ عليهما ، ثم استيقظتُ فأبصرتُ ، فأخذتُ نُسخِي وقعدتُ أكتبُ !! "[١] .

وبعدُ أيها الأخ الحبيب ، وأيتها الأخت الغالية :

فهذه هي حسرات الصالحين على مافاتهم من العلم الشرعي ، وتلكَ أنَّاتهم وزفراتهم ولوعاتهم !! وذي دموعهم وعَبَراتهم !!...

فيا رفيقَ الغفلة ... ويا قرينَ الكسل :

أين حسراتكَ وزفراتكَ على ما فاتك من العلم الشرعي ؟!! بل أين دموعك وعبراتك ؟!!... وصدق الله إذ يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٢] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تهذيب التهذيب" للحافظ "ابن حجر العسقلاني " (١١/٣٨٦) .

(٢) : سورة الحج الآية (٤٦) .

٦ إدراك أهمية العلم الشرعي

لعل من نافلة القول ، أن نُذكّر بأنَّ شعائر الإسلام تتفاوت في أهميتها ومنزلتها عند الله تبارك وتعالى ، على حسب احتياج المخلوقين إليها ، وما دام الأمر كذلك ، فقد حاز العلم الشرعي أهميةً كبيرة بين شعائر الدين الإسلامي الحنيف ، فهلمّ أخي الحبيب نتلمس ونستكشف بعضاً من أهمية العلم الشرعي في الحياة الإسلامية:

* قال الإمام " أحمد بن حنبل " رحمه الله :" الناس إلى العلم أحوجُ منهم إلى الطعام والشراب ، وذلك لأنَّ الرجل قد يحتاج إلى الطعام أو الشراب مرةً أو مرتين ، أما حاجته للعلم فهي بعدد أنفاسه !! "(١) .

* واستمع إلى الإمام "ابن القيم" وهو يُحدثك عن أهمية العلم الشرعي ، وضرورته للخلق ، فيقول عن هذا المعنى :

" والإنسان إنما يتميز عن غيره من الحيوانات ، بفضيلة العلم والبيان ، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه ، وأقوى بطشاً ، وأكثر جماعاً وأولاداً ، وأطول أعماراً ، وإنما مُيِّز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه ، فإذا عُدمَ العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب ، وهي "الحيوانية المحضة " ، فلا يبقى فيه فضلٌ (أي مزية) عليهم (أي على البهائم) ، بل قد يبقى شراً منهم !! .

والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علمٌ بما يُصلحه في معاشه ومعاده ، كان الحيوان الحيوان البهيم خيراً منه !! ، لسلامته في المعاد مما يُهلكه ، دونَ الإنسان الجاهل " (٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تهذيب مدارج السالكين " للراشد .

(٢) : نقلاً عن كتاب " مفتاح دار السعادة " لابن القيم (٧٨/١) .

* ورحمَ اللهُ منْ قـــالَ :

فليجتهدْ رجلٌ في العلم يطلبهُ ... كيلا يكون شبيهَ الشاء والبقرِ .

* قال "الحسن البصري"رحمه الله:"لولا العلماء لصـار النـاس كالبهـائم !! " (١) .

والعلم الشرعي عاصمٌ من الضـلال والانحـراف والعمـل علـى غـير بصيرة :

* قال "ابن القيم" :" العامل بلا علم كالســائر بـلا دليـل ، ومعلـومٌ أن عطـبَ مثل هذا أقرب من سلامته ، وإن قُدّر سلامته اتفاقاً نادراً ، فهـو (أي العمـل بـلا علـم) فهو غير محمودٍ بل مذمومٌ عند العقلاء ، وكـان شـيخ الإسـلام " ابـن تيميـة " يقول:" منْ فارقَ الدليلَ ضلَّ السبيل " ، ولا دليل إلاّ ما جـاء بـه النـبيﷺ .

* قال "الحسن " :"العامل على غير علم كالسالك عـلـى غـير طريـق ، والعـامل على غير علم يُفسد أكثر مما يُصلح ، فاطلبوا العلم طلباً لا تضـروا بـه العبـادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا تضروا بـه العلـم ، ... " (٢) .

وطلب العلم الشرعي وسيلةٌ لتحصيل محبـة الله تعـالى للعبـد :

* قال " ابن القيم" :" ولا شيء أطيبُ للعبد ولا ألذُّ ولا أهنأُ ولا أنعمُ لقلبه وعيشـه ، من محبة فاطره وباريه ، ودوامِ ذكره والسعي في مرضانه ، وهذا هو الكمال الـذي لا كمال للعبد بدونه ، وله خُلقَ الخلقِ، ... .

ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك (أي إلى محبة الله والتنعم بذكره) ، إلا من باب العلم ، فإن محبة الشيء فرعٌ عن الشعور به ، وأعرفُ الخلق بالله أشدُّهم حبّاً له ، فكلُّ منْ عـرفَ الله أحبّهُ ، ومنْ عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم ، فالعلم يفتحُ هذا الباب العظيم ، الذي هو

---

(١) : نقلاً عن كتاب " مختصر منهاج القاصدين " للمقدسي .

(٢) : نقلاً عن كتاب " مفتاح دار السعادة " لابن القيم (٨٣/١) .

سرُّ الخلق والأمـــر " (١) .

والعلم الشرعي هو زاد الداعيـــة إلى الله تعـــالى :

* إنَّ الدعوة إلى الله تعالى لا يمكن أن تكون إلاّ بـــالعلم الشـــرعي الصحيـــح ، كمـــا قال الله تبـــارك وتعـــالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٢) .

* قال "ابن القيم" معقّباً على هذه الآيـــة :"

وإذا كانت الدعوة إلى الله تعالى ، أشرف مقامات العبد وأجلّهـــا وأفضلهـــا ، فهـــي لا تحصل إلاّ بالعلم الذي يدعو به وإليـــه ، بـــل لابـــدّ في كمـــال الدعـــوة ، مـــن البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليـــه السّـــعي " (٣) .

والعلم الشرعي سببٌ لحصول اليقـــين والطمأنينـــة في القلـــب:

* قال "ابن القيم " :" ولو لم يكن من فوائد العلم ، إلا أنـــه يُثمـــر اليقـــين ، الـــذي هو أعظمُ حياةٍ للقلب ، وبه طمأنينتـــه وقوتـــه ونشـــاطه وســـائر لـــوازم الحيـــاة ، ولهذا مدح الله أهله في كتابه ، وأثنى عليهم بقوله ســـبحانه وتعـــالى:

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

وذمّ عزّ وجلّ منْ لا يقينَ عنده ، فقـــال تعـــالى :

﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) " (٦) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " مفتاح دار السعادة " لابن القيم (١٣٦/١) .

(٢) : سورة يوسف الآية (١٠٨) .

(٣) : نقلاً عن نفس المصدر السابق (١٥٤/١) .

(٤) : سورة البقرة الآية (٤) .

(٥) : سورة النمل الآية (٨٣) .

(٦) : نقلاً عن كتاب " مفتاح دار السعادة " لابن القيم ج١ .

٧ التنويع في المادة المقروءة

النفس البشرية بطبيعتها تحب التنويع والتجديد ، وتكره وتنفر من الشيء المكرور ، ولذلك لو خصص المرء يومياً خمس ساعات من وقته ، لطلب العلم الشرعي ، وأراد أن يقضي تلك الساعات الخمس كلها ، في القراءة في نوعٍ واحدٍ من أنواع العلوم الشرعية ، فإنه ما تكاد تمضي ساعة أو ساعتان على أحسن الأحوال ، إلا وقد ملَّ من القراءة ، وفتر عن الطلب والتحصيل ، وربما استمر معه هذا الفتور أسابيع أو شهوراً .

وبضدّ ذلك ، لو قسّم المرء تلك الساعات الخمس ، على خمسة أنواع من العلوم الشرعية ، بحيث يقرأ في كل ساعةٍ علماً من العلوم ، فساعة لتفسير القرآن الكريم ، وساعة لأحاديث الرسول الأمين ﷺ ، وساعة للعقيدة ، وساعة للفقه ، وساعة للرقائق والإيمانيات ، وهكذا يتنقل من علمٍ لآخر ، بحيث إذا ملَّ من القراءة أو الحفظ في علمٍ ما ، انتقل إلى غيره من العلوم ، وحينها سيجد المرء أن تلك الساعات الخمس قد مرّت وانقضت بسرعة وبدون أن يشعر باي مللٍ أو سآمة ، وسيجد نفسه قد اغتنم وقته فيها ، وحصّل خلالها فوائد عظيمة ، وفرائد جليلة ، بل ربما زاد ساعةً سادسة في اليوم التالي ، وهذا والله هو عين الربح والغنيمة .

والتنويع في المادة العلمية المقروءة والمسموعة له فوائد متعددة منها :

* هذا التنويع فيه توسيع لمدارك طالب العلم ، بحيث يكون مُطلعاً على كثيرٍ من العلوم الشرعية ، ولا تكون معلوماته قاصرةً على علمٍ واحدٍ بعينه ، فإنَّ العلوم الشرعية

كحلقات السلسلة ، بعضها يأخذ برقـــاب بعـــض .

* والتنويع والتجديد في المادة المقروءة أو المسموعة ، يجعـــل المـــرء لا يشـــعر بمـــرور الوقت أثناء القراءة والتحصيل ، بل ربمـــا انتهـــى الوقـــت المخصـــص لعلـــمٍ مـــن العلوم ، والمرء يتمنى لو أنهُ لم ينتهِ !! ، لشدة حرصـــه علـــى التحصيـــل والطلـــب ، وهذه هي قمة الحماسة لتحصيل العلـــم الشـــرعي .

* وهذا التنويع فيه إراحةٌ للنفس البشرية ، وتجديدٌ لنشاطها ، وموافقةٌ لطبيعتها .

٨ معرفة كيف باع السلف ملابسهم لأجل العلم

دين الله تبارك وتعالى ، لا يُنصرُ إلا برجالٍ صادقين مخلصين ، يبذلون المال والنفس والنفيس في سبيل مرضاة مولاهم جلَّ في علاه ، فأنفسهم وأموالهم وثيابهم ومساكنهم ، قد جعلوها وقفاً على طاعة الله تعالى .

ولقد أدرك سلفنا الكرام ، هذه الحقيقة الكبرى ، فضحوا في سبيل طلب العلم الشرعي بكل غالٍ ونفيسٍ ، حتى أنهم باعوا ثيابهم وملابسهم لأجل طلب العلم ، لأنهم قد أيقنوا أن لباس العلم والتقوى والإيمان خيرٌ من لباس الأجساد والأبدان ، فتعال معي ـ يا رعاك الله ـ نتلمس شيئاً من روائعهم الخالدة التي سطروها لنا في هذا الميدان :

* قال" شعبة بن الحجاج" :" بعتُ طستَ أمي (وهو إناء من النحاس تُغسَل فيه الثياب) ، بسبعة دنانير !! (أي لأجل الحصول على المال اللازم لطلب العلم) " (١) .

* وهذا "أبو حاتم الرازي" رحمه الله يقول :"بقيتُ بالبصرة ثمانية أشهر ، سنةَ أربع عشرة ومئتين، وكانَ في نفسي أن أُقيم سنةً (أي لأجل طلب العلم) ، فانقطعتْ نفقتي،فجعلتُ أبيعُ ثياب بدني شيئاً فشيئاً !! حتى بقيتُ بلا نفقة !! " (٢) .

* واستمع إلى الإمام "بقي بن مخلد الأندلسي" رحمه الله،حين قال يوماً لطلبته : " أنتم تطلبون العلم ؟!! ... وهكذا يُطلبُ العلم ؟!! (أي أنكم ما شعرتم ولا ذقتم شيئاً من مشقة طلب العلم والتضحية في سبيله بالغالي والنفيس) ، إنما أحدكم إذا لم يكن عليه

---

(١) : نقلا عن كتاب" تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/١٩٥) .

(٢) : نقلا عن كتاب "الجرح والتعديل " لابن أبي حاتم ، ص ٣٦٣ .

شغلٌ يقول : أمضي أسمعُ العلم !! ... إني لأعرفُ رجلاً (يعني نفسه) تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ، لا يكون له عيشٌ (أي طعامٌ) إلا من ورق الكرنب الذي يُلقيه الناس !! .

وإني لأعرفُ رجلاً (يعني نفسه) باع سراويله !! غير مرةٍ في شراء كاغدٍ (وهو ورق الكتابة) ، حتى يسوقَ الله إليه من حيث يُخلفُها !!(أي أنه كان إذا قلّت نفقته اقتصر على السروال الذي يلبسه ، وباع بقية سراويله وثيابه التي معه ، ليستعين بثمنها على طلب العلم !!)"(١) .

* قال العلامة "أبو زيد الدبّاغ "وهو يترجم للشيخ "أبي جعفر أحمد القصري" رحمه الله : "وكان ربما باع بعض ثيابه !! ، واشترى بثمنه كتاباً أو رقوقاً (أي ورقاً) لنسخ كتابٍ .

قال"أبوبكر المالكي" : " ووصل إلى مدينة "سوسة" ، برسم زيارة "يحي بن عمر" ، فوجده قد ألّف كتاباً ، لم يجد ما يشتري به رقّاً يكتب فيه ، فباع قميصه الذي كان عليه !! ، واشترى بثمنه رقوقاً !! ، وكتب الكتاب وقابلهُ ، وأتى به معه إلى القيروان!!"(٢).

* قال "أبومحمد الفرغاني" :" ورحل الإمام" ابن جرير الطبري" رحمه الله ، لما ترعرع ، ... ، وكان حينها ابن ثنتي عشرة سنة !! ، وسمح له أبوه بالسفر ، وكان أبوه طول حياته يُوجه له بالشيء بعد الشيء إلى البلدان (أي يُرسل له نفقة يستعين بها على طلب العلم) .

قال"ابن جرير": ابطأت عني نفقة والدي ، واضطررتُ إلى أن فتقتُ كُمّي قميصي (أي جيبي قميصي ، وكانهما كانا كبيرين) فبعتُهُما !! (أي لأستعين بثمنهما على طلب العلم) "(٣) .

فتأمل ـــ يا رعاك الله ـــ هذا البذل ، وتلك التضحية لأجل العلم ،وتدبر عزّة

---

(١) : نقلاً عن كتاب" معجم الأدباء " لياقوت الحموي (٨٣/٧) .

(٢) : نقلا عن كتاب " معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان " للدباغ ، (١١/٣) .

(٣) : نقلا عن كتاب " تذكره الحفاظ " للذهبي (٧١١/٣) .

النفس التي كان عليها طلاب العلم الشرعي على عهد السلف الكرام .

*ورحم الله " ابن جرير الطبري" حين يقول واصفاً عزّة نفسه :

إذا أعسرتُ لمْ يعلم رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظٌ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحتُ ببذل وجهي ... لكنتُ إلى الغنى سهل الطريق (١) .

* عن "أبي حاتم الرازي" رحمه الله ، قال :" رحلتُ إلى مصر ، فلما رأيتُ كثرة العلم بها ، عزمتُ على الإقامة ، وأرسلتُ إلى كاتب بمصر لينسخ لي كتب "الشافعي" ، وكنتُ قد اشتريتُ من مصر ثوبين لأخيطهما لنفسي إذا رجعتُ إلى بلدي .

فلما عزمتُ على نسخ كتب "الشافعي ، لم يكن لديَّ مالٌ ، فبعتُ الثوبين بستين درهماً ، فاشتريتُ ورقاً بعشرة دراهم ، وأعطيتُ الباقي للكاتب الذي نسخ لي كتب الشافعي رحمه الله "(٢) .

* قال الشيخ "بكري الكاتب " في ترجمته للشيخ " أحمد الحجّار" :

" وكان رحمه الله ، يحب اقتناء الكتب ، حتى سمعنا أنه رأى كتاباً يُباع ، ولم يكن معه دراهم ، وكان عليه ثياب ، فنزع بعضها وباعه !! واشترى الكتاب في الحال "(٣) .

---

(١) : نقلا عن كتاب" تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي ، (١٦٥/٢) .

(٢) : نقلا عن كتاب " الجرح والتعديل " لابن أبي حاتم (بتصرف) .

(٣) : نقلا عن كتاب "إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء" للطباخ (٣١١/٧) .

٩ معرفة الثواب العظيم الذي أعدّه الله للعلماء الربانيين

إنما تعظم الجائزة على قدر عظم المهمة ، ولما كانت لطلب العلم الشرعي منزلةٌ عظيمةٌ في هذا الدين ، فقد أعدَّ الله تعالى للعلماء الربانيين ، وطُلاب العلم الصادقين ، ثواباً عظيماً جزيلاً ، إذا سمعتهُ قلوب المؤمنين اهتزت فرحاً وطرباً له ، واشتاقت إلى نيله وتحصيله ، فهلمَّ يا فتى الإسلام ، نتأمل سويةً في الجوائز والنفائس التي تنتظر أهل العلم الصادقين :

* عن "أبي هريرة" رضي الله عنه ، أنَّ النبي ﷺ قال: " مَن سلك طريقاً يلتمسُ فيه علماً ، سهَّل الله له طريقاً إلى الجنَّة "(١) .

* قال الشيخ "عبد الرحمن بن سعدي" رحمه الله ، تعقيباً على الحديث المتقدم : "فكل طريقٍ حسي أو معنوي ، يسلكه أهل العلم ، يُعين على العلم أو يُحصِّله ، فإنه داخلٌ في قوله عليه الصلاة والسلام : (مَنْ سلكَ طريقاً ...) "(٢) .

* وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنَّ طلب المرء للعلم الشرعي ، علامةٌ على إرادة الله تعالى بذلك العبد الخير في الدنيا والآخرة :

* عن "معاوية بن أبي سفيان" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : " مَنْ يُرد الله به خيراً ، يُفقهه في الدين "(٣) .

* وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن العلماء الصادقين ، هم عند رب العالمين ، منزلةٌ عظيمةٌ لا ينالها سواهم ، وهي أنهم ورثة الأنبياء في حمل هذا الدين وتبليغه ونشره في العالمين .

---

(١) : رواه مسلم في صحيحه . (٢) : نقلاً عن كتاب "الفتاوى السعدية" للسعدي ، (٦٢٣/١).

(٣) : رواه البخاري ومسلم .

* عن "أبي الدرداء" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال :" فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ،وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا درهماً ولا ديناراً ، وإنما ورّثوا العلم ، فمَن أخذهُ أخذَ بحظٍ وافرٍ "(١) .

* وبلغ من منزلة وثواب أهل العلم الربانيين ، أنَّ كل شيء في الأرض وفي السماء ، يستغفر لهم ، حتى البهائم والحيتان والدواب :

* عن"أنس" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال :"صاحب العلم يستغفر له كلُّ شيء ، حتى الحوت في البحر "(٢) .

* وبلغ من إكرام الله تعالى ، لأهل العلم الربانيين وطلابه الصادقين ، أنه جلَّ وعلا وملائكته الكرام الأطهار يُصلّون عليهم :

* عن "أبي أمامة" رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال: " إنَّ الله وملائكته ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، ليُصلون على مُعلّم الناس الخير!! (وصلاة الله على عبده بمعنى رحمته ومغفرته له عزَّ وجل ، وأما صلاة الملائكة على العبد فهي بمعنى الدعاء له والاستغفار لذنوبه) "(٣) .

* وأخبرنا الرسول ﷺ أنَّ مَنْ مشى إلى مجلس علمٍ ليحضرَه ، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى :

* عن"أبي هريرة" رضي الله عنه ، أنَّ الرسول ﷺ :قال:"مَنْ جاء مسجدي هذا ، لم يأته إلا لخيرٍ يتعلّمه أو يُعلّمه، فهو بمنزلة المجاهدِ في سبيل الله"(٤) .

---

(١) : رواه"أبوداود والترمذي وابن ماجه"،وصححه "الألباني" في "صحيح الجامع " برقم (٤٢١٢) .

(٢) : رواه "أبويعلى" في "مسنده" ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" برقم (٣٧٥٣) .

(٣) : رواه "الطبراني"في "معجمه الكبير"،وصححه"الألباني" في"السلسلة الصحيحة"برقم (١٨٥٢) .

(٤) : رواه "ابن ماجة" في سننه، وقال"الهيثمي" في"مجمع الزوائد": إسناده صحيح على شرط مسلم .

* وقد دعا الرسول ﷺ لأهل العلم الصادقين ، بالنُضرَة وبهاء الوجه وإشراقه :

* فعن "زيد بن ثابت" رضي الله عنه :أن النبي ﷺ قال : " نضَّر الله امرءاً سمعَ منا حديثاً فحفظه ، حتى يُبلغه غيره ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه ، ورُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه "(١) .

* ومن أعظم الثواب الجزيل ، الذي أعده الله تعالى لأهل العلم ،أنهم إذا ماتوا ، فإن ثواب علمهم وأجره يصل إليهم ، وهم في قبورهم ، مادام الناس ينتفعون بعلمهم ، فكأنَّ هذا الثواب ــ إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم ــ حياة أخرى لهم بعد الموت ، فكأنَّ العالم حيٌّ لم يمت!! .

* فعن "أبي هريرة" رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ يُنتفَع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له "(٢) .

* وعن "سلمان الفارسي" رضي الله عنه : أن الرسول ﷺ قال : " أربعٌ من عمل الأحياء تجري للأموات : رجلٌ ترك عَقِبًا صالحاً (أي ولداً أو بنتاً صالحين) يدعو له ينفعه دعاؤهم ، ورجلٌ تصدق بصدقة جارية مِنْ بعده ، فله أجرها ما جرت بعده ، ورجلٌ علَّم علماً فعُمِلَ به مِن بعده ، له مثل أجر مَن عَمِلَ به من غير أن ينقص مِن أجر مَن يعمل به شيء"(٣) .

* وعن"أنس" رضي الله عنه :أنَّ النبي ﷺ قال : "سبعٌ يجري للعبد أجرهنَّ، وهو في قبره بعد موته : مَنْ علَّم علماً ، أو أجرى نهراً ، أو

---

(١) : رواه "الترمذي" والضياء المقدسي" في كتاب "الأحاديث الجياد المختارة"،وصححه"الألباني" في"صحيح الجامع" برقم (٦٧٦٣).

(٢) : رواه البخاري ومسلم .

(٣) : رواه الطبراني في"معجمه الكبير"،وحسنه "الألباني"في "صحيح الجامع"برقم(٨٨٨) .

حفر بئراً ، أو غرس نخلاً ، أو بنى مسجداً ، أو ورَّث مصحفاً ، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته"(١).

* عن "سهل بن سعد " رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال "لعلي بن أبي طالب"رضي الله عنه : " لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم (أي خيار الإبل وأشرافها) "(٢) ، ولا يمكن للمرء أن يهدي غيره إلى الحق إلا بالعلم ، فما أعظمه من ثواب ؟! وما أجزله من عطاء؟! .

* وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ أن "نافلة العلم" ، إذا صحَّت فيه النية ، خيرٌ من نافلة العبادة البدنية :

* عن "حذيفة" رضي الله عنه :أن النبي ﷺ قال : " فضلُ العلم (أي نافلة العلم) أحبُّ إليَّ من فَضلِ العبادة ، وخير دينكم الورع"(٣) .

* قال"الحسنُ البصري"رحمه الله :" يُوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة ، فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء"(٤) .

* قال"ابن القيم": "منْ طلب العلم ليُحيَ به الإسلام فهو من الصديقين ، ودرجته بعد درجة النبوة "(٥).

*واستمع إلى"ابن عقيل الحنبلي"رحمه الله ، وهو يصف لنا الثواب العظيم الذي أعدَّه

---

(١) : رواه "البزار"في مسنده، وحسّنه"الألباني"في"صحيح الجامع" برقم (٣٦٠٢) .

(٢) : رواه البخاري ومسلم .

(٣) : رواه"البزار ، و"الطبراني"في"المعجم الأوسط"، وصححه "الألباني" في"صحيح الجامع" برقم (٤٢١٤) .

(٤) : نقلاً عن كتاب"إحياء علوم الدين"لأبي حامد الغزالي" (١٥/١) .

(٥) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١٨٥/١) .

أعده المولى سبحانه ، لأهلِ العلم وطلابه الصادقين ،فيقول :

"حاشا المبديء الخالق لهم (أي لأهل العلم) على تلك الأشكال والعلوم ، أن يرضى لهم في الوجود بتلك الأيام اليسيرة ، الممشوبةِ بأنواع الغُصصِ (أي النكبات والمصائب)، وهو المالك ، وبتلك اللمحة التي عاشوها في الدنيا وُقد مُزِجَت بالعلاقم .

لا والله !! لا رضيَ لهم إلا بضيافةٍ تجمعهم على مائدةٍ تليق بكرمه سبحانه:

نعيمٌ بلا ثبورٍ، وبقاءٌ بلا موتٍ ، واجتماعٌ ببلا فرقةٍ ، ولذاتٌ بغير نغصةٍ (أي تنغيصٍ وكدرٍ) "(١) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " المنتظم في تاريخ الملوك والأمم " لابن الجوزي ، (٩/٢١٥) .

١٠ إدراك أن العلم من أعظم الوسائل لمواجهة البلاء في ذات الله

طلب العلم الشرعي النافع شجرة مباركة ، ﴿ تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ﴾(١)، وإنَّ من ثمار شجرة العلم الشرعي المباركة في الدنيا قبل الآخرة ، أن طلب العلم الشرعي النافع يمنح المرء قوة للثبات على الحق ، ومواجهة الفتن والابتلاءات في ذات الله تعالى ، وإليك البيان :

* قال تعالى: ﴿ وَالذينَ اهتَدوا زادَهمْ هُدىً وآتاهمْ تَقواهمْ ﴾(٢) .

*واستمع إلى الحبيب عليه الصلاة والسلام ، وهو يقرر لنا هذه الحقيقة :

* عن"أبي سعيد الخدري" رضي الله عنه في قصة لدجال ، ونزوله في بعض السِّباخ (أي الأراضي الملحية) التي تلي المدينة ، قال الرسول ﷺ :

" فيخرج إليه رجلٌ هو خير الناس أو من خير الناس ، فيقول له (أي للدجال) : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا الرسول ﷺ حديثه !! .

فيقول الدجال (أي لأتباعه) : أرأيتم إنْ قتلتُ هذا (أي هذا الشاب) ثم أحييتهُ !! ، أتشكُّون في الأمر؟!! ، قالوا : لا ، قال الرسول ﷺ: فيقتلهُ ثم يحييه !! ، فيقول(أي الشاب) حين يُحييه : والله ما كنتُ فيكَ قطُّ أشدَّ بصيرةً مني الآن !!.

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: فيريد الدجال أن يقتلهُ(أي مرةً أخرى)فلا يُسلَّط عليه"(٣) ، فتأمل رعاك الله ،قول هذا الشاب : " إنك الدجال الذي حدثنا رسول الله حديثهُ"، ألا ترى أنه يدل على أن ذلك الشاب قد قرأ حديث الرسول عليه الصلاة

(١) : سورة إبراهيم الآية (٢٥) .

(٢) : سورة محمد الآية (١٧) .

(٣) : رواه مسلم في صحيحه .

والسلام وعرّفه واطـلع عليه ؟!! .

ثم تأمل كيف عـصمه الله وحفظه بهذا العلم الشرعي ، مـن الانقياد والانجراف مع هذه الفتنة والمحنة !! .... فيا لله ما أعظم العلم الشرعي وأنفعه !!

وإنْ شئت مزيداً من البيان والإيضاح ، فتأمل معي فـتنة الإمـام "أحمد بن حنبل" رحمه الله ، حـين طُلـبَ منه أن يقـول بمقولـة "خلـق القران" ، تلك المقولة الضآلة المبتدعَة ، فـأبى ورفـض وجعـل يُناقش المبتدعـة ، ويُبْطِل حُججهم التي استدلوا بها لـترويج بـاطلهم علـى عامـة النـاس ، فـأخذ يهتك ستر هذه الشُبه الباطلة ، ويُبين زيفها بما آتاهُ الله مـن علمٍ وفقـهٍ وبصيرةٍ بنصوص الشرع المطهر ، فلمّا تهاوت حجـج أهـل الباطل والضلال لجأوا إلى أسلوب الأذى والتعذيب الجسـدي ، فضُرِب الإمـام "أحمـد" بالسياط ، وأُوذيَ وعُذّب في ذات الله تعالى ، وهو صابرٌ ثابتٌ على الحق الـذي يدعـو إليـه ، لسـان حاله :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيْتِ ... وفي سبيل الله ما لقيتِ

ثم كشف الله سبحانه الكربة ، وأزال الغمّة ، وارتفع لـواء أهـل السـنّة ، وسـقطَ وتهاوى لواء أهل الباطل والبدعة ، فالحمد لله علـى فضلـه وإحسـانه .

* حتى قال بعض السلف:"لقد حمى الله جلَّ وعلا دينـه برجلين :

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، يوم الردة ، والإمام أحمـد يـوم المحنـة !! ".

فيا أيها الحبيب: هل سألت نفسك : أكـان الإمـام "أحمـد" يسـتطيع الصمود أمام هذا البلاء والأذى الشديد ، لـو لم يكـن متترسـاً بسـياج العلـم والإيمان ، ومُحصنَاً بحصن تقوى الله وخشـيته ،الـتي هـي ثمرة العلم الشرعي ولُـبُّه .

ثم قل لي :كيف كـان الإمـام أحمـد سيسـتطيع دحـض وإبطـال شُـبهِ

وتلبيسات أهل البدع ، التي خدعوا بها الجهلة والسُذج من الناس ،لتمرير باطلهم وبدعهم عليهم . ثم أخبرني :كيف كان سيستطيع الرد علي تلك الضلالات والشبهات ، لو لم يكن متسلحاً بسلاح العلم والفقه والبصيرة في الدين؟! .

وإنْ شئتَ شخصيةً أخرى تتجلى فيها هذه الحقيقة الكبرى ، حقيقة أن طلب العلم الشرعي النافع ، عاصمٌ من التخاذل والتراجع عن هذا الدين ، وسببٌ من أسباب الثبات أمام البلاء والفتن في ذات الله ، فتأمل معي في سيرة "شيخ الإسلام ابن تيمية" رحمه ذلك العالم الرباني والمجاهد القدوة ، الذي نافح عن هذا الدين بقلمه ولسانه وماله ودمه ، وقدّم الغالي والرخيص في سبيل الدفاع عن مبادئه ومعتقداته الحقّة التي يتعبد بها لربه ومولاه ، فماذا كانت النتيجة؟!! .

جرت عليه سنّة الله تعالى ،في ابتلاء عباده وأوليائه الصالحين ؛ رفعةً لدرجاتهم وتكفيراً لذنوبهم وسيئاتهم ، وتمحيصاً لقلوبهم من التعلق بأي أحد سوى المولى تبارك وتعالى ، فأُوذي هذا الشيخ الجليل في ذات الله ، وتعرّض للضرب ، وحُبِسَ في سجن "القلعة" بدمشق ، فماذا كانت النتيجة ؟! ، هل تراجع عن الحق ورضخ للباطل ، وباع نفسه لأجل دنيا دنيّة ؟!! .

كلا وربِّ الكعبة !! ، بل إنّ العلم الشرعي الذي طلبه وتعلّمه ، ثم عمل به وعلّمه لغيره ، قد جعل موازينه وأفكاره غير موازين وأفكار أهل الدنيا وأرباب المناصب ، جعله هذا العلم لايبالي بالحبس في ذات الله ، بل كان لسان حاله ومقاله ينطق قائلاً : المحبوس مَنْ حُبسَ قلبه عن الله تعالى ، والمأسور مَنْ أسرهُ هواه !! "(١) .

نعم هذا هو المحبوس الحقيقي ، وليس مَنْ كان محجزاً في غرفة مغلقة ، بين جدران أربعة ، ومعه ربه يراه ويطّلع عليه ، وبين يديه كتاب ربه وكلامه ،يتلوه ويتلذذ بقراءته ويُناجي به مولاه !! .

---

(١) : نقلا عن كتاب " الوابل الصيب من الكلم الطيب" لابن القيم .

ـد جعلتهُ خشية الله تعالى ومراقبته وتقـــواه ، يقـــول وهـــو في قعـــر السجن تلك الكلمات الخالدة : "ما يفعلُ أعدائي بـــي ؟!! ، أنـــا جنـــتي وبســـتاني في صدري !! (ومراده بالجنة والبستان ما رزقه الله إيـاه مـن علـم بديـن الله وبصيرة فيـه وخشية لله ومراقبة له وتلذذ بذكره وعبادته وأنس بالخلوة بـــه سبحانه) ،أينمـــا ذهبـتُ فهـي معـي !! إنَّ حبسي خلوةٌ ، وقتلي شهادة ، ونفيي من أرضـــي ســـياحة !! "(١) .

واســـتمع إلى الإمام "ابن القيم" ، وهو يبين لك أثـــر العلـــم الشـــرعي النافع الذي يُوصل صاحبه إلى خشـــية الله في مواجهـــة البـــلاء والأذى في ســـبيل الله تعالى ، فيقول واصفاً حال شيخه "ابن تيمية" خلال فـــترة حبســـه:

"وكان يقول في مَحبسه في القلعة : لو بذلتُ ملء هذهِ القلعـــة ذهبـــاً ، مـــا عَـــدَلَ عندي شكر هذه النعمة !! (أي نعمـــة الحبس!!) ، أو قـــال : مـــا جزيتهـــم (أي أعدائـــي) على ما تسببوا لي فيه من الخـــير !! .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعـــني علـــى ذكـــرك ، وعلـــى شـــكرك وعلى حسن عبادتك !! " ما شاء الله !!(أي أنه كان كثـير الـترداد لهـذا الدعـاء).

وعَلِمَ اللهُ : ما رأيتُ أحداً أطيب عيشاً منه (أي من ابن تيمية) قط !! ، مع ما كان فيه مـــن ضيق العيـــش ، وخلاف الرفاهـــية والنـــعيم (أي الفقر وقلة ذات اليد) ، ومع مـــا كـــان فيه من الحبس والتهديد والإزجـــاف ، وهو مع ذلك مـــن أطيـــب النـــاس عيشـــاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ،وأسرّهم نفـــساً، تـــفوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منّا الظنـــون ، وضـــاقت بنـــا الأرض أتينـــاهُ (أي وهو في سجنه) ، فما هوَ إلا أن نراه ونسمع كلامـــه ، فيذهـــب عنـــا ذلـــك كلـــه !! ،وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينةً !! ، فســـبحانَ مَـــنْ أشـــهد عبـــاده جنتـــه قبل لقـــائه !! (أي جنـــة انشراح الصدر وطمأنينة النفس وحلاوة الذكر والمناجـــاة) ، وفتـــحَ لهـــم

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الوابل الصيب" لابن القيم .

أبوابها في دار العمل (أي في الدنيا) "(١) .

فيا أيها الحبيب ، ويا أيتها الغالية :

تأملا كيف جعل العلم الشرعي النافع البلاء في ذات الله نعمة !!

وكيف صيّر العلمُ الشرعي الحبسَ والاعتقالَ في سبيل هذا الدين مِنحةً ومِنّة !!

وكيف أصبحَ الضرب والأذى من أجل الله تعالى خير هدية !!

وكيف تحولت السخرية واستهزاء المرجفين ، إلى أعظم عطية !! .

فيا لله ما أعظمَ العلم !! وما أنفعَه !! وما أشدَّ أثره على النفس المؤمنة الصادقة !!.

---

(١) : نقلا عن كتاب " الوابل الصيب" لابن القيم .

١١ معرفة كيف ضحى السلف بأنفسهم لأجل العلم

شجرة العلم الشرعي المباركة لا تنمو وتُثمر إلا إذا سُقيت بماء البذل والتضحية بالنفس والنفيس لأجل العلم ، وإنَّ سلع المعالي غالية الثمن :

*وهذا"ابن الجوزي" رحمه الله يقرر ذلك فيقول :

" تأملتُ عجباً ، وهو أنَّ كل شيءٍ نفيسٍ خطير يطول طريقه ، ويكثر التعب في تحصيله ، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة ،حتى قال بعض الفقهاء : " بقيتُ سنين أشتهي الهريسة فلا أقدرُ عليها !!؛ لأنَّ وقت بيعها وقت سماع الدرس !!"(١) .

* واستمع إلى الإمام"ابن القيم" رحمه الله ، وهو يؤكد تلك الحقيقة بقوله:

" وأما سعادته (أي سعادة العلم ولذته) فلا يُورثك إياها ، إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية ، ... ،وقد أحسنَ القائل في ذلك:

فقل لِمُرَجّي معالي الأمور ... بغير اجتهادٍ رجوتَ المحالا

وقال الآخر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يُفقِرُ والإقدام قَتّالُ .

فالمكارم منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يُعبرُ إليها إلا على جسر المشقة ، ولا تُقطَع مسافتها إلا في سفينة الجدّ والاجتهاد ، ...

فيا واصلَ الحبيب ما إليه ... بغير مشقةٍ أبداً طريقُ "(٢).

*ورحمَ الله مَنْ قالَ :

---

(١) : نقلاً عن كتاب " صيد الخاطر " لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١٠٨/١) .

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلهُ ... لن تبلغ المجد حتى تلْعَق الصبرا .

ولقد سطَّر سلفنا الكرام ،أروع النماذج في هذا المجال،فإليك بعضاً منها:

*)قال"سليمان بن المغيرة": " قدم علينا البصرة"سفيان الثوري" رحمه الله (وكان سفيان آنذاك مُطارداً من السلطان لفرَّ وهرب إلى البصرة) ، فأرسلَ إليَّ : بلغني عنك أحاديثُ!! (أي أنك تحدثها عن الرسول عليه الصلاة والسلام) ، وأنا على ما ترى من الحال (أي لا أستطيع أن آتيك خوفاً من أن يراني جنود السلطان فيقبضوا عليَّ) ، فأتني إن خفَّ عليكَ (أي إن تيسر لك لأسمع منك الأحاديث) !! .

قال"سليمان": فأتيته فسمعُ مني !! (أي أخذ تلك الأحاديث عني) "[١].

*) رحل الإمام "عبد الله بن فرُّوخ القيرواني " إلى"أبي حنيفة النعمان " رحمهما الله تعالى ، ليطلبَ العلم على يديه ، فبينما" عبد الله" جالسٌ في دار أبي حنيفة ، إذ سقطت آجُرَّة (وهي الطوبة) من أعلى دار "أبي حنيفة" على رأسه ، فشَجَّته وسال الدم منه ، فقال لي "أبوحنيفة ": اختر الأرش (أي قيمة الجناية) ، أم ثلاثمئة حديث ؟! فقلت : أختارُ ثلاثمئة حديث ! ... فحدَّثني بها !! "[٢].

*)قال"ابن خلكان " في ترجمة المفسِّر المشهور " محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي": " وكانت إحدى رجلي "الزمخشري" ساقطةً !! ، وكان يمشي في جارنِ خشبٍ (أي برميل خشبي) ، وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفاره لطلب العلم ببلاد خوارزم ، فأصابه ثلجٌ كثير وبردٌ شديد في الطريق ، فسقطت منه رجلهُ !! بسبب شدة البرد !! ، وكان مع"الزمخشري" شهادةٌ ، بأنَّ رجله انقطعت لهذا السبب ، لئلا يظنَّ أحد أنها قُطِعت لجريمة ارتكبها ، والثلج والبرد كثيراً

---

(١) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء" للذهبي (٤١٨/٧) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"ترتيب المدارك" للقاضي" عياض" (١١٠/٣) (بتصرف) .

ما يُؤثِّر على الأطراف في تلك البلاد فتسقط ،فلا يستبعده مَن لا يعرفه "(١) .

*عن"خزيمة بن علي"قال : " سقطت أصابع"عمر بن عبد الكريم الرواسي"رحمه الله ، في الرحلة لطلب العلم ، من شدة البرد !! "(٢) .

*قال"هشام بن عمار" رحمه الله : " باع أبي بيتاً له بعشرين ديناراً ، وجهزني للحج ، فلما وصلتُ المدينة ، أتيتُ مجلس الإمام "مالك بن أنس" رحمه الله ، ومعيَ مسائل أريد أن أسألهُ عنها ، فأتيتهُ وهو جالسٌ في مجلسه في هيئة الملوك !! (أي من الهيبة واحترام الناس له) ، والناسُ يسألونه وهو يُجيبهم .

فلما دخلتُ على"مالك" ، وحان دوري : قلتُ له : حدِّثني !! ... فقال : لا !! بل اقرأ أنتَ ، فقلت : لا !! بل حدثني !! ، فقال : بَل اقرأ!! .

فلما رادتهُ وراجعتهُ وجادلتهُ ، غضب عليَّ ، وقال : يا غلام !! تعال اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر (أي خمسة عشر سوطاً) !! ، قال : فذهب بي فضربني خمس عشرة دِرَّة !! ، ثم ردَّني إلى "مالك" وقال : قد ضربتهُ !! .

فقلتُ حينها : قد ظلمتني !! ، فإنَّ أبي باع منزله وأرسلني إليك ، أتشرَّف بالسماع منك وطلب العلم على يديك ، فضربتني خمس عشرة درَّة بغير جرمٍ اقترفتهُ !! ، لا أجعلكَ في حِلٍّ !! ، فقال"مالك" : فما كفارة هذا الظلم ؟!! ، فقلت : كفارتهُ أن تُحدثني بخمسة عشر حديثاً .

قال"هشام" : فحدثني"مالك" بخمسة عشر حديثاً ، فلما انتهى منها قلتُ له : يا إمام : زد في الضرب وزد في الحديث !! فضحك "مالك" وقال لي : اذهب وانصرف"(٣).

*قال الحافظ"السخاوي": "كان "أبو أيوب سليمان الشاذكوني ، رحمه الله ، أحد

---

(١) : نقلاً عن كتاب" وفيات الأعيان" لابن خلكان" (٨٢/٢) (بتصرف) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٢٣٧/٤) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "معرفة القراء الكبار" للذهبي (١٩٦/١) (بتصرف) .

الحفاظ الكبار ، ... ، رؤي بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك؟!! فقال : غفر لي ، فقيل له : بماذا ؟!! ، فقال : كنت أسير مسافراً في طريق أصبهان ، وكانت معي كتبي ، فهطل المطر ، ولم أكن تحت سقف أو شيء يقيني ، ويقي كتبي من المطر ، فخشيتُ أن تتلف كتبي بسبب المطر ، فانكببتُ على كتبي أُغطّيها عن المطر بجسمي ، حتى طلع الصباح ، وهدأ المطر !! فغفر الله لي بذلك في آخرين !!"[١].

* قال "ابن المقرئ" رحمه الله : "مشيتُ بسبب نسخة "المفضّل بن فضالة" ، (والنسخة عبارة عن مجموعة من الأحاديث يرويها الشيخ) سبعين مرحلة !! ، ولو عُرِضَتْ على خبّازٍ برغيفٍ لم يقبلها !! ودخلتُ بيت المقدس عشر مرات (أي رحلتُ إليه عشر مرات لأجل طلب العلم) "[٢].

وبعدُ أيها الحبيب ، وأيتها الغالية :

فهذه أخبار الصالحين ، وتلك تضحياتهم وإنجازاتهم ، فهل من سائرٍ على دربهم ؟!! ... وهل من مُقتفٍ لأثرهم ؟!! ... ليسعدَ في الدنيا والآخرة ؟!! ...

---

(١) : نقلاً عن كتاب" فتح المغيث بشرح ألفية الحديث" للسخاوي .

(٢) : نقلاً عن "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣/٩٧٣) .

١٢ دعاء الله أن يوفقك لطلب العلم

أخـــي : إنَّ طلب العلم الشرعي وتحصيله ، هـــو هبـةٌ ومنحـةٌ مـن المولى جلَّ وعلا ، يمنُّ ويُنعِم بها على مَنْ كان مُستحقاً لهـا مِـن عبـاده الصـالحين ، وما دام الأمر كذلك ، فإذا أردت أن تشـتعل همتـك وتقـوى حماسـتك لطلـب هذا العلم ، فاطرق باب مَنْ يملكه ، والجأ إليه جـلَّ وعـلا ، وتذلـل لـه لعلـك أن تكون من المقبولـــين ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[١] .

* وقـد أمرنا المولى تبارك وتعالى ، بدعائه واللجوء إليـه في كـل أحوالنـا ،فقـال عـزَّ مِـنْ قـائل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[٢] .

* وشـوَّقـنا جلَّ وعلا لدعائه والانكسار بين يديه ، بقولـه تعـالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[٣] .

* وقـد أخبرنا الرسول ﷺ أن الدعاء هو أكرم شيء علـى الـرب تعـالى :

* عـن "أبي هريرة "رضـي الله عنـه ، أن النـبي ﷺ قـال : "ليـس شـيءٌ أكـرمَ على الـلـه تعالى من الدعـاء"[٤] .

---

(١) : سورة يس ، الآية (٨٢) .
(٢) : سورة غافر الآية (٦٠) .
(٣) : سورة البقرة الآية (١٨٦) .
(٤) : رواه أحمد والترمذي وابن ماجة، وصححه "الألباني" في "صحيح الجامع" برقم (٥٣٩٢) .

* وحثنا النبي ﷺ : على الإكثار من دعاء الله ، واللجوء إليه في كل أحوالنا :

* عن "ابن عمر" رضي الله عنهما ، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : " الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء" (١).

*ولأهمية الدعاء وعظيم منزلته في الدين ،جعله الرسول ﷺ هو العبادة :

* عن" النعمان بن بشير" رضي الله عنهما ،أن النبي ﷺ قال : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ "(٢).

* وقد بشَّر النبي ﷺ الداعي ببشارةٍ عظيمةٍ ، وهي أنَّ الله تعالى ، يستحي أن يردَّ مَنْ دعاه صفراً خائباً :

* عن "سلمان الفارسي" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : " إنَّ الله تعالى حييٌّ كريمٌ،يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردَّهما صفراً خائبتين " (٣)

* وكان سلف الأمة الأبرار وأئمتها الأخيار ، يلجأون إلى اللطيف القهار على الدوام ، ويدعونه في كل أحوالهم وشئونهم ، ومن ذلك إذا أشكلت عليهم مسألة علمية أو عَسُرَ عليهم فهمها ، فكان الرب تعالى يستجيب دعاءهم ويفتح عليهم من خزائن علمه وفضله وجوده :

* قال "شيخ الإسلام ابن تيمية" رحمه الله : ربما طالعتُ في تفسير الآية الواحدة مئة تفسيرٍ فلا أفهمها ، ثم أسأل الله الفهمَ وأقول: يا مُعلِّم آدم وإبراهيم علِّمني !!...

---

(١) : رواه "الحاكم" في "المستدرك" وحسنه "الألباني" في "صحيح الجامع" برقم (٣٤٠٩) .

(٢) : رواه أبوداود والنسائي وابن ماجة والترمذي وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) : رواه أحمد في "المسند" و"ابن حبان" وصححه ، و"الحاكم" وصححه ،والترمذي وحسنه.

وكنتُ أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ،وأمرّغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يا معلم آدم وإبراهيم علّمني!! "(١).

فماذا كانت النتيجة ؟!! ... لقد علّمه معلّم آدم وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، ولقد فهّمه مُفهّم سليمان عليه السلام ، فكان "ابن تيمية" أعجوبةً في الفهم والحفظ والاستنباط !! .

فيا أخي : إذا أردت أن تتحمس لطلب العلم الشرعي ، وأن ترتفع همتك لتحصيله ، فالجأ إلى ربك ومولاكْ ، وانطرح على بابه جلّ وعلا ، وتذلّل له وانكسرْ لعظمته وجلاله ، واسأله التوفيق والتسديد ، فإنه لا يحدث شيءٌ في هذا الكون إلا بإذنه ومشيئته ، ولا يستطيع العبد مهما بلغ من التقى والصلاح ، أن ينال شيئاً من الخير والبرّ ،إلا بتوفيق الله ومعونته .

(*) ورحم الله التابعي الجليل" مطرف بن الشخير" ، حين عبَّر عن هذه الحقيقة بقوله :

" لو أُخرج قلبي فجُعِل في يدي اليسرى ، وجيء بالخير فجُعِل في يدي اليمنى ، ثم قُرِّبت إحداهما من الأخرى ، ما استطعتُ أن أُدخل في قلبي شيئاً من الخير ، حتى يكون الله هو الذي يقذفه في قلبي !! " (٢) .

فيا مُوفّق : تحرَّ أوقات الإجابة ،كحال السجود في الصلاة ، ودبر الصلاة قبل السلام ، وفي جوف الليل الآخر ، وغير ذلك من الأوقات الفاضلة ، فالجأ فيها إلى مولاك ، وانطرح على بابه ، واسأله سؤال الخاشعين المخبتين ، وادعهُ دعاء الفقراء المساكين قائلاً :

---

(١) : نقلا عن كتاب"تفسير سورة الإخلاص" لابن تيمية .

(٢) : نقلا عن كتاب"الزهد" للإمام"أحمد"(بتصرف) .

" إلهي وسيدي ومولاي : عبيدكَ سوايَ كثيرٌ !! وليس لي ربٌّ سواك !!

إنْ طردتني فمَنْ يُؤويني ؟!! ...

وإنْ أبعدتني فمَنْ يُقرّبني؟!! ...

وإنْ خذَلتني فمَنْ ينصرني؟!! ...

اللهم يا مُفهّم سليمان فهّمني !!!...

اللهم يا معلّم آدم وإبراهيم علّمني!!! ...

اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني !!! ..." .

فيا لله ما أحلاها وألذّها من كلمات ؟!

وما أجملها وأرقّها من ألفاظٍ وعباراتٍ ؟!! .

١٣ إقامة مسابقات في حفظ القرآن الكريم

القران الكريم هو أعظم كتاب على الإطلاق ، ومن هنا كان لزاماً توجيه العناية والاهتمام بحفظه وفهمه ، ومما يُعين على إشعال الحماسة وتقوية الهمة لحفظه ، أن تُقام مسابقات بين طلاب الفصل الواحد ، أو المسجد الواحد ، أو الحي الواحد ، أو بين الأقران والزملاء في حفظ ما تيسر من هذا الكتاب العزيز .

بحيث يتم تحديد مقدار معين من الآيات القرآنية للحفظ ، ثم يُعطى المتسابقون فترةً زمنيةً كافية للحفظ ، ثم بعد ذلك تُقام بينهم المسابقة ، ويُحدد الفائزون ، وتُمنَح لهم بعض الجوائز التشجيعية ، وهكذا تتكرر هذه المسابقات حتى يتم الانتهاء من حفظ القرآن الكريم كاملاً ، فيا لها من غنيمة !! فأين طُلابها ؟!! ...

١٤ معرفة كيف ترك السلف النوم لأجل طلب العلم

لطلبُ العلم الشرعي لذةٌ وحلاوةٌ في القلب ، تُنسي المرء كلَّ لذةٍ دنيويةٍ ، ولما استشعر سلفنا الكرام هذه اللذة والحلاوة ، انهمكوا في القراءة والتحصيل ، حتى أنَّهم وصلوا الليل بالنهار جِدّاً واجتهاداً في التحصيل ، فلم يكونوا ينامون إلا أقلَّ القليل ، الذي يُعينهم على طاعة الله ، لأن لذة العلم قد شغلتهم عن لذة النوم ، فتعال معي نتتبع أخبار الساهرين بالليل ، على طلب العلم الشرعي :

*قال"عبد الرحمن بن القاسم المصري"رحمه الله :" كنتُ آتي الإمام"مالك بن أنس" رحمه الله ، غَلَساً (أي في آخر الليل قرب الفجر) ، فأسأله عن مسألتين أو ثلاث أو أربع ، لأني كنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدرٍ ، وقلة تلاميذ ، فكنت آتيه في كل سَحَرٍ (والسَحَرُ هو آخر الليل قبل الفجر) .

فأتيته مرةً ، فتوسَّدت عتبة بابه كعادتي ، أنتظر خروجه للصلاة لأسأله عمَّا أُريدُ ، فغلبتني عيناي فنمتُ !! ، وخرج "مالك"إلى المسجد ولم أشعر به !! ، فركضتني جاريةٌ سوداء له برجلها ، وقالت لي : إن مولاكَ قد خرج (أي إلى المسجد) ، ليس يغفلُ كما تغفل !!» ..."[1] ، فتأمل كيف ظنت تلك الجارية ،هذا التلميذ النجيب"ابن القاسم" عبداً مملوكاً للإمام"مالك" ، لما رأتهُ من تردده عليه في السحر في كل ليلةٍ!! وتوسده لعتبة بابه !! وهجره للذيذ المنام .

*ورحمَ الله مَنْ قال:

---

(١) : نقلاً عن كتاب " ترتيب المدارك" للقاضي عياض (٣/٢٥٠) .

ماتوا فأحياهمُ إحياءُ ليلهمُ ... ومَنْ سواهم أناسٌ بالكرى ماتوا

والمراد أنَّ أئمة السلف الأبرار ،لما أحيوا ليلهم بالعبادة والطاعة وطلب العلم الشرعي ، وهجروا لذيذ المنام في الظلام ، طلباً لمرضاة الملك العلام ، أحياهم المولى جلَّ في علاه بعد موتهم ؛ بما أبقى لهم من الكتب والمصنفاتِ والثناء الجميل الحسن عليهم عند الناس، فكأنهم أحياء ما ماتوا ، وأما اللاهون والغافلون والبطَّالون الذين لا همَّ لأحدهم إلا النوم الساعات الطوال ، فهؤلاء في الحقيقة موتى القلوب ، وصرعى الغفلة ، قد قتلهم النوم الكثير ، وإنْ كانوا يأكلون ويشربون!!.

(*)رحل الإمام"أسد بن الفرات"رحمه الله ، إلى العراق ، ليطلب العلم عندَ الإمام "محمد بن الحسن الشيباني"رحمه الله ، فلما وصل إليه،قال"أسد" "للشيباني": إني غريبٌ قليل النفقة ، والسماع منك نَزرٌ (أي دروسك العلمية قليلة) ، والطلبة عندك كثير، فما حيلتي؟!!(أي كيف أستطيع سماع أكبر قدر ممكن من العلم منك ، رغم قلة دروسك وكثرة طلابك ، واضطراري للرحيل عنك بعد فترةٍ) .

فقال له"محمد بن الحسن": اسمع مع العراقيين(أي مع بقية التلاميذ) بالنهار ، وقد جعلتُ لك الليل وحدك ، فتبيتُ عندي وأُسمِعُكَ العلم !! ، قال"أسد": فكنتُ أبيتُ عنده في بيته ، وينزل إليَّ ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء !! ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونَعستُ ، ملأ يده بالماء ونضح به وجهي فأنتبهُ !! ، فظلَّ على هذه الحال معي حتى أنهيت ما أريد سماعه منه من العلم ،..."(١).

(*)قال"أبوعمر يوسف المغامي": "طرقت الباب ذات يوم بغَلَسٍ (أي بعد صلاة الفجر مباشرةً) ، على "عبد الملك بن حبيب الأندلسي"رحمه الله ، حرصاً على الاقتباس منه ، فاستأذنتُ عليه فأذِنَ لي ، فدخلتُ عليه ، فإذا هو جالسٌ في مجلسه ، عاكفٌ على كتبه وقد أحاطت به وهو يقرأ فيها ، والشمعة بين يديه

---

(١) : نقلاً عن كتاب "بلوغ الأماني في سيرة"محمد بن الحسن الشيباني" للكوثري(بتصرف)

تشتعل ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ السلام وقال لي : أوَ قد طلع الفجر؟! قلت : نعم !! وقد صلينا الفجر !!(١)، فقام إلى صلاة الصبح فصلاها .

ثم رجعَ إلى مجلسه فقال : ما صليتُ هذه الصلاة إلا بوضوء العشاء الآخرة (أي أنه ظل ساهراً طوال الليل على كتب العلم) "(٢) .

* قال"محمد بن أبي حاتم": " كان " أبوعبد الله البخاري" رحمه الله ، إذا كنتُ معه في سفر،يجمعنا بيتٌ واحد ، ... ، فكان يضطجع على فراشه لينام ، فتمر بخاطره الفائدة، فيقوم عن فراشه ، ويأخذ القدَّاحة (أي ما يُعرف في عصرنا "بالكبريت") ، ويُوقد السراج،ويُخرِج أحاديث فيُعلِّم عليها !! (أي يضع عليها علامات) ، ثم يضع رأسه لينام فتمرُّ بخاطره الفائدة فيوقد المصباح ويُخرج أحاديثه فيُعلِّم عليها !! ، وهكذا يفعل ذلك في الليلة الواحدة من خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة !! ، وكان يُصلي وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم به ،..."(٣) .

* قال" أبوالقاسم المقريء":"كان الإمام "الحازمي"رحمه الله ، يدخل بيته في كل ليلة ، فيُطالع في الكتب ويُصنِّف إلى الفجر !! ، فقال أحدهم لخادمه : لا تدفع إليه بزراً (أي زيتاً) للسراج !! ، فلعله يستريح الليلة (أي لعله ينام ولا يقرأ ولا يكتب، ولا يصلي ولا يُرهق نفسه ، لعدم وجود الضوء) .

فلما أقبل الليل ،طلب"الحازمي" من خادمه"بزْراً" ليُوقد السراج ، فاعتذرَ إليه

---

(١) : قلتُ : الظاهر أنَّ "عبد الملك" لم يسمع أذان الفجر و لم يعلم بطلوع الفجر ، فلا لومَ عليه حينئذٍ في ترك الصلاة مع الجماعة في المسجد ، وليس معنى هذا أنه ترك الصلاة في المسجد مع الجماعة لأجلِ طلب العلم !! فهذا ضلالٌ مبين)

(٢) : نقلاً عن كتاب"ترتيب المدارك" للقاضي"عياض" (٤٤/٣) (بتصرف) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"تهذيب الأسماء واللغات" للنووي(٧٥/١) (بتصرف) .

الخادم بانقطاع البزر ،فدخل"الحازمي" بيته ،وصف قدميه يضلي لله في الظلام حتى طلع الفجر !!" (١) .

* قال"أبو إسحاق المرادي" : "جاورت الحافظ "المنذري"رحمه الله ، في المدرسة (أي كان بيتي فوق بيته في المدرسة بالقاهرة) ثنتي عشرة سنة !! ، فلم أستيقظ في ليلةٍ من الليالي في ساعةٍ من ساعات الليل ، إلا وجدتُ ضوء السراج في بيته ! وهو مشتغلٌ بالعلم،حتى كانَ في حال الأكل والكتب عنده يشتغل فيها !! "(٢).

*ذكر"أبو بكر بن اللبَّاد": " أن "محمد بن عبدوس القيرواني"رحمه الله صلى الصبح بوضوء العشاء ثلاثين سنة !! (أي أنه خلال ثلاثين سنةً ما نام طوال الليل ! ، بل كان نومه بالنهار !!) خمس عشرة سنةً يقضي الليل في طلب العلم الشرعي وتحصيله،وخمس عشرة سنةً يقضي الليل في العبادة وقيام الليل!!"(٣) .

* ورحم الله تعالى ، مَنْ قال واصفاً لذة السهر على كتب العلم الشرعي :

سهري لتنقيحِ العلوم ألذُّ إليَّ
مِن وَصْلِ غانيةٍ وطِيبِ عِناق
يا من يُحاول بالأماني رتبتي
كم بينَ مُسْتَفِلٍ وآخر راقي
أأبيتُ سهران الدجى وتبيتُهُ
نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي ؟

* قال"السبكي"في ترجمة العبد الصالح "أبي الفتح بن برهان البغدادي"رحمه الله : "وحُكيَ أن جماعة سألوه أن يُدرّس لهم درساً في كتاب"الإحياء" للغزالي فقال : لا أجدُ لكم وقتاً !! فكانوا يُحددون له وقتاً معيناً فيقول : في هذا

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٣٦٤/٤) (بتصرف) .

ما غرّك بي ؟!! ثـلاث مراتٍ !! ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟!! كيـف عملـتَ فيمـا علمتَ ؟!!"(١)

* قـال"ابن المنكدر" رحمه الله : " العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابهُ وإلا ارتحل!! ".

*واستمع إلى هذه المحاسبة للنفس على العمل بالعلم ، عند أحد علمائنـا الأبـرار: * قـال"ابن الجوزي:"وجدتُ رأي نفسي في العلم حسناً !!(أي أنها تتحمس له وتحرص عليـه) ، فهي تُقدّمه على كل شيء ، ... ، إلا أني رأيتها واقفةً مع صورة التشـاغل بـالعلم ، فصِحْتُ بها : فما الذي أفادكِ العلم ؟! أين الخوف (أي من الله) ؟!! أين القلـق؟!! أيـن الحذر؟!! أوَ ما سمعتِ بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم وتهجدهم ؟!!.

أما كان الرسول عليه الصلاة والسلام سيد الكل ،ثم إنه قام حتى تورمت قدماه ؟! .

أما كان "أبو بكر" رضي الله عنه ، شجيَّ (أي حزين) النشـيج ، كثـير البكـاء؟! .

أما كان في خد "عمر" رضي الله عنه ، خطان من آثـار الدمـوع ؟!.

أما كان "عثمان" رضي الله عنه ، يختم القـران في ركعـة ؟! .

أمـا كان "علي"رضي الله عنه ، يبكي في الليل في محرابـه ، حتـى تخضـلَّ (أي تبتلّ) لحيتهُ بالدموع ؟!! ... وبقول : يا دنيا غُـرِّي غـيري !!

أما كان "الحسن البصري" يحيا على قوة القلـق (أي الخـوف مـن الله) ؟!! .

أما كان "سعيد بن المسيب" ملازماً المسجد فلم تفته صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنةً ؟!

أما قالت "بنت الربيع بن خثيم" له (أي للربيع) : ما لي أرى الناس ينامونَ وأنت لا تنام (أي بالليل) ؟!! ، فقال لها : إن أباكِ يخاف البياتَ (أي أن ينزل به عذاب الله وهو نائمٌ بالليل) !! .

أما كان "أبو مسلم الخولاني" يُعلّق سوطاً في المسجد ، يُؤدب به نفسه إذا فـتر؟!.

أما صام "يـزيد الرقاشي"أربعيـن سنة ؟!!وكان يقول : وآ لهفاه !! سبقـني العابدون العابدون وقُطِعَ بي (أي تخلفـتُ عنهـم) !!.

---

(١) : نقلاً عن كتاب"أخلاق العلماء"للآجري .

أما صامَ "منصور بن المعتمر" أربعين سنةً ؟!!.

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم :

أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ؟!!.

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فإنها حالة الكسالى الزمنى"(١).

* قال"الحسن البصري رحمه الله :" وآ عجباه من ألسنةٍ تصفُ !! (أي تدعو الناس إلى الخير وتصفه لهم وتدلهم عليه) ، وقلوبٍ تعرفُ !! (أي تعرف الخير والهدى) ، وأعمالٍ تُخالفُ !!(أي أن الأعمال بخلاف الأقوال) "(٢) .

* قال "ابن القيم" : " ولم يكن السلف يُطلقونَ اسم الفقه ، إلا على العلم الذي يصحبه العمل !! "(٣) .

* وما أجمل ما قاله الشاعر مُبيناً عظَم الفتنة بالعالم الذي لا يعمل بعلمه :

فسادٌ كبيرٌ عالمٌ مُتهتكُ ... وأكبر منه جاهلٌ مُتنسكُ

هما فتنةٌ في العالمين عظيمةٌ ... لمن بهما في دينه يتمسكُ

* قال"إبراهيم بن أدهم"رحمه الله : " أعْرَبنَا في القول !! (أي أتقنّا الكلام وأفلحنا فيه) ، ولَحَنَّا في العمل !! (أي وأما العمل بما نقوله وندعو إليه فقد تركناه!!) " .

* وخذها بديعةً من بدائع الإمام " ابن القيم "حيث يقول :

" للعلم ست مراتب ، أولها حسن السؤال ، والثانية : حسن الإنصات والاستماع ، والثالثة :حسن الفهم ، والرابعة : الحفظ ، والخامسة : التعليم

---

(١) : نقلاً عن كتاب " صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"رهبان الليل" للعفاني ، (٢/٤٦٧) .

(٣) : نقلاً عن"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٤٠) .

،والسادسة وهي ثمرته :

العمل به ومراعاة حدوده "(١) .

* وهذا الإمام "الشاطبي" رحمه الله ، يقول : "

العلم الذي هو العلم المتعبّد به شرعاً ، أعني الذي مدح الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، أهله على الإطلاق ، هو العلم الباعث على العمل ، الذي لا يُخلّي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان ، بل هو المقيّد لصاحبه بمقتضاه ، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً"(٢) .

* وما أجمل ما قاله "محمد بن أبي علي الأصبهاني " حاثاً على العمل بالعلم :

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل
لا ينفع العلم إنْ لم يَحسُنِ العملُ
والعلم زينٌ وتقوى الله زينتهُ
والمتقونَ لهم في علمهم شُغُلُ
وحجة الله يا ذا العلم بالغةٌ
لا المكر ينفع فيها،لا ولا الحِيَلُ

نقل"ابن القيم" عن"ابن قتيبة"رحمه الله ، في تعريف"الحكمة :

أنّها إصابة الحق والعمل به ، وهي العلم النافع والعمل الصالح"(٣) .

واستمع إلى"ابن الجوزي" وهو يُحدثك عن أثر العالم الذي يعمل بعلمه في قلوب الناس ، فيقول :

لقيت مشايخَ أحوالهم مختلفة ، يتفاوتونّ في مقاديرهم من العلم ، وكان

---

١) : نقلا عن كتتاب " مفتاح دار السعادة " لابن القيم (٤٢/٢) .

١) : نقلا عن كتاب"الاعتصام" للشاطبي .

١) : نقلا عن "مفتاح دار السعادة"لابن القيم(٧٣/١) .

أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه ، وإنْ كان غيره أعلم منه ، ولقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ،ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة، يُخرجونها مخرج جرحٍ وتعديل، ويُسرعون بالجواب لئلا ينكسر الجاه !! وإن وقع خطأً !!.

ولقيتُ" عبد الوهاب الأنماطي" رحمه الله ، فكان على قانون السلف ، لم يُسمَع في مجلسه غيبةٌ ، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث ، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه !! ، فكان ـ وأنا صغير السن حينئذٍ ـ يعمل بكاؤه في قلبي ، ويبني قواعد الأدب في نفسي ، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل ، ولقيتُ الشيخ" أبا منصور الجواليقي "رحمه الله ، فكان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول ، مُتقناً محققاً ، وربما سُئل المسألة الظاهرة التي يُبادر بجوابها بعض غلمانه ، فيتوقف حتى يُتقن ، وكان كثير الصوم والصمت !! .

فانتفعتُ برؤية هذين الرجلين ، أكثر من انتفاعي بغيرهما ، ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول ، فالله الله في العمل بالعلم ، فإنه الأصل الأكبر ، والمسكين كل المسكين مَنْ أضاع عمره في علمٍ لم يعمل به ، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة ، فقدِمَ مفلساً مع قوة الحجة عليه "(١)

فيا أخي : احذر أن تكون من علماء السوء ، الذين جلسوا على باب الجنة يدعون الناس إليها بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلمُّوا إلى الخير والهدى ، قالت أفعالهم :لا تسمعوا منهم !! فلو كان ما دَعَوا إليه صحيحاً لكانوا أول المستجيبين له في ذوات أنفسهم !! ،فهؤلاء هم في الصورة أولياء ل له، وفي الحقيقة هم قُطاع طريق يصدون الناس عن الحق والهدى .

---

(١) : نقلا عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

١٦ الابتعاد عن مخالطة الكسالى والبطالين

- الطبع سرّاق ، والنفس البشرية بطبيعتها ميّالة إلى تقليد الأقران والخلطاء ومحاكاتهم ، في الخير أو في الشر ، وإنما يُقاس المرء بجليسه .

ومن أعظم الآفات التي تقتل الهمة والحماسة لطلب العلم في النفس مخالطة ومصاحبة الفسقة والفاجرين ، ونوعٌ آخر من المخالطة لا يقلُّ خطورةً عن سابقه ألا وهو مخالطة الكسالى والفارغين والبطّالين ، الذين يُزهّدون في طلب العلم الشرعي وينفّرون الناس عن تحصيله ، وترى أحدهم لا همّ له إلا اللغو والثرثرة والسهرات الطويلة بالليل ، والنوم الطويل بالنهار ، والإغراق في الهزل والمزاح والضحك ، والإفراط في الرحلات والنزهات ، والانهماك في الولائم والأكلات ، هذا إنْ سلمت مجالسهم من الغيبة والنميمة والحرام .

وقد تتابعت نصوص الشرع المطهر، وكلام السلف الأبرار في التحذير من خلطة أمثال هؤلاء ، فإليك شيئاً من هذه الوصايا والتوجيهات :

* عن "أبي هريرة" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : "المرء على دين خليله ، فلينظرْ أحدكم مَنْ يُخالل "(١) .

* واستمع إلى "ابن القيم" هو يُحذرك من صحبة هؤلاء البطالين فيقول :

" الهمّة نوعان : همّة تدور حول الأنتان والحش ، صاحبها ذكرُ الله موته ، وذكرُ الناس فاكهته وقوته ،فاستأنس بغيبته (أي بغيابه عنك) ، فإذا ابتليتَ به ، فأعطهِ ظاهرك وترحّل عنه بقلبك ، وفارقه بسرّك .

---

(١) : رواه أحمد والترمذي وحسنه ، ورواه الحاكم وصححه ، وأقره على ذلك "الذهبي" .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة ، هي الاشتغال بمَنْ لا يجرُّ عليك الاشتغال به إلا فوت حظك ونصيبك من الله تعالى ، وانقطاعك عنه ، وضياع وقتك ، وضعف عزيمتك وتفرق همتك ، وإياك وقاطع الطريق ، ولو كان مَنْ كان .
فانجُ بقلبك ، وضِنَّ بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة فتُؤخَذَ " (١) .

* واستمع إلى"ابن عقيل الحنبلي" رحمه الله ، وهو يحكي لنا تجربته الشخصية في هذا المجال فيقول : "وعصمني الله تعالى ، من عنفوان الشباب بأنواعٍ من العصمة ، وقَصَرَ محبتي على العلمِ وأهله ، فما خالطت لعَّاباً قط !! ، ولا عاشرتُ إلا أمثالي من طلبة العلم !! "(٢) .

* واستمع إلى"ابن القيم" وهو يُجلّي لنا أقسام الناس في الخلطة ، بكلامٍ أحلى من العسلِ المصفّى ، فيقول : "
أما فضول المخالطة (أي الخلطة لغير فائدة وتعاون على البر والتقوى بل لأجل اللغو والهزل والثرثرة) فهي الداء العضال ، الجالب لكل شر ، وكم سلبتْ هذه المخالطة والمعاشرة مِن نعمة ؟!! ... وكم زرعتْ من عداوة ؟!! ...
ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بقدر الحاجة ، ويجعل الناس فيها (أي في مسألة الخلطة) أربعة أقسام ، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يُميِّز بينهما ، دخل عليه الشر :
أولها (أي القسم الأول) : مَنْ مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه (أي مرة أخرى خالطهُ) ، وهكذا ، ... ، وهذا الضرب أعزُّ (أي أندر وأقلُّ) من الكبريت الأحمر !! .

---

(١) : نقلا عن كتاب " الفوائد" لابن القيم .

(٢) : نقلا عن كتاب"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" لابن الجوزي ج ٩ .

وهم العلماء بالله وأمره ومكائد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها !! (قلتُ : فكيف لـو أدرك "ابن القيم" زماننا ما عساه أن يقول ؟!) ، فهذا الضربُ (أي النوع) في مخالطته الربح كل الربح .

القسم الثاني : مَنْ مخالطته كالدواء !! ، يُحتاج إليـه عنـد المـرض ، فما دُمـتَ صحيحاً فلا حاجة لك في خِلطتـه .

وهم مَنْ لا يُستغنَى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش . وقيام مـا أنـت محتـاج إليـه ، من أنواع المعـاملات والمشـاركات والاستشـارة والعـلاج لـلأدواء ، (قلتُ: كالطبيب وزملاء العمل أو زملاء الدراسة والجـيران والأقـارب) ، فـإذا قضيـتَ حـاجتك مِـن مخالطة هذا الضرب ، بقيتْ مخالطتهم من القسـم الثـالث .

القسم الثالث : وهم مَنْ مخالطته كـالداء !! (أي المـرض) ، علـى اختـلاف مراتبـه وأنواعه وقوته وضعفـه .

فمنهم مَنْ مخالطته كالداء العضال والمرض المزمِـن (أي الـذي لا يُرجـى شـفاؤه) ، وهـو مَنْ لا تربح عليه في دينٍ ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بدَّ مِن أن تخسـر عليـه الديـن و الدنيا أو أحدهمـا !! .

ومنهم مَنْ مخالطته كوجع الضرس !! يشتد ضربـهُ عليـك ، فـإذا فـارقكَ سـكن الألم !! ومنهم مَنْ مخالطته "حمى الروح" وهـو الثقيـل البغيـض العقـل ، الـذي لا يُحسِن أن يتكلم فيُفيدك ، ولا يُحسِـن أن يُنصِـت فيسـتفيدَ منـك ، ولا يعـرف نفسهُ (أي قدر نفسه) فيضعها في منزلتها ، بل إن تكلم فكلامـه كـالعُصي تـنزل علـى قلوب المسلمين !! ، مع إعجابه بكلامه وفرحـه بـه .

القسم الرابع : مَنْ مخالطته الهلك كلهُ !! (أي الهلاك كله) ، بمنزلـة أكـل السـم ، فـإن اتفق لآكله ترياقٌ (أي دواء ينقذه من هذا السم وهذا الـدواء هـو أخٌ صـالح تقـي ينقـذه مـن هـذا البلاء) ، وإلا فأحسنَ الله فيه العزاء !! وما أكثرَ هذا الضـرب في النـاس لا كـثَّرهم الله ، (قلت : فكيف لو أدرك "ابن القيم" زماننا مـا عسـاه أن يقـول ؟!!) .

وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الداعونَ إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ، ويبغونها عوجاً ، فيجعلون البدعة سنةً ، والسنَّة بدعةً !! ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً !! (ويُلحَقُ بهم أهل الفسق والفجور والمجاهرون بالمعاصي والمستهزئون بالصالحين) .

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ ، بإغضابهم وألا تشتغل بأعتابهم (أي لا تُبالِ بلومهم وقدحهم وطعنهم فيك لأجل حفظك لوقتك) ، ولا باستعتابهم (أي لا تطلب منهم الصفح والعفو عنك ، إرضاءً لهم) ، ولا تُبالِ بذمِّهم ولا بغضبهم فإنه عين كمالك !! "(١) .

فإن قلتَ لي : أنا أوافقك على خطورة مصاحبة الكسالى والبطالين ، في قتل الهمة والحماسة لطلب العلم الشرعي ، ولكنني سأخالطهم وأكونُ منهم على حذرٍ ، لئلا تتسرب عدواهم وكسلهم وهزلهم وثرثرتهم بالكلام إليَّ !!.

فأقول لك :استمع إلى"الراغب الأصبهاني" رحمه الله ، وهو يردُّ عليكَ فيقول :

"إن طبعك يسرق منهم (أي من الهزليين والثرثارين والفارغين الكسالى) وأنت لا تدري !! ، وليس إعْداءُ الجليس لجليسه (أي نقل العدوى إليه) بمقاله وفعاله فقط ، بل بالنظر إليه .

والنظر في الصور يُورث في النفوس أخلاقاً مناسبة لخُلُق المنظور إليه !! ، فإن دامت رؤيته للمسرور سُرَّ ، أو للمحزون حزنَ ،وليس ذلك في الإنسان فقط بل في الحيوان والنبات "(٢).

---

(١) : نقلاً عن كتاب "بدائع الفوائد" لابن القيم (١/ ٥١٨) ،وكتاب "التفسير القيِّم" لابن القيم .

(٢) : نقلاً عن كتاب"فيض القدير" للمناوي ج ٥ .

فإن قلت لي : ولكن قد أُبتلى بالجلوس معهم أحياناً لضرورة ملحة، فما العمل حينئذ ؟! ...

فأقول لك : استمع إلى الإمام "ابن القيم" وهو يجيبك عن سؤالك فيقول :

"وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم (أي مخالطة هؤلاء الكسالى والمزليين والثرثارين) ، في فضول المباحات(أي في غير معصية الله كما لو جمعتك بهم وليمة أو مناسبة عامة) ، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس إلى مجلس طاعةِ لله ، ... ، فإن أعجزتهُ المقادير فليسُلَّ قلبه مِنْ بينهم كسلِّ الشعرة من العجين ، وكُن فيهم حاضراً (أي بجسمك) غائباً (أي بعيدا عنهم بقلبك وفكرك)!! ، قريباً بعيداً !! ، نائماً يقظاناً !!.

ينظر إليهم ولا يُبصرهم !! ، ويسمع كلامهم ولا يعيه !! ، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ،ورقى به إلى الملأ الأعلى ، يسبح حول العرش (أي عرش الرحمن مع الأرواح العلوية الزكية (كأرواح الملائكة والشهداء والنبيين) !! " (١).

* واستمع إلى الإمام"ابن الجوزي" رحمه الله ، وهو يحكي لنا تجربته الشخصية في التعامل مع هؤلاء الفارغين الكسالى ، فيقول :

"وأعوذ بالله من صحبة البطالين !! ، لقد رأيتُ خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ... ، ويُطيلونَ الجلوس ، ويُجرُونَ فيه أحاديث الناس وما لا يعني ، ويتخلله غيبةٌ ، ... .

فلما رأيتُ الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهابه بفعل الخير ، كرهتُ ذلك ، وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرتُ عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلتهُ منهم ضاع الزمان !! .

فصرتُ أُدافع اللقاء جهدي (أي أحاول الاعتذار عن مقابلتهم) ، فإنْ غُلبتُ قَصَّرتُ

---

(١) : نقلاً عن كتاب " مدارج السالكين " لابن القيم (١/٥٠٢) .

في الكلام !! لأتعجّل الفراق ، ثم أعددتُ أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم !! ، لئلا يمضي الزمان فارغاً !! ، فجعلتُ من الاستعداد للقائهم ، قطع الكاغد (أي قصُّ ورق الكتابة) ، وبريَ الأقلام وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بدَّ منها ، ولا تحتاج إلى فكرٍ وحضور قلبٍ"[1].

---

(١) : نقلاً عن كتاب " صيد الخاطر" لابن الجوزي .

١٧ إقامة مسابقات في حفظ السنّة المطهرة

السنّة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهي إما أن تكون شارحةً ومفصّلةً للأحكام المجملة في القرآن، أو أن تأتي بأحكامٍ جديدةٍ لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم، وما دام الأمر كذلك فإن حفظ السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، هو من أعظم الطاعات والقربات، ومن أهم المهمات لطالب العلم الشرعي.

وبناءً على ذلك، يمكن إقامة مسابقات علمية في حفظ السنة النبوية، بين الزملاء والأقران، أو بين التلاميذ في الفصل الواحد، أو المدرسة الواحدة، أو بين شباب المسجد الواحد، تحفيزاً لنهمم، وإثارةً للعزائم نحو طلب العلم، وأقترح أن تكون الحصة المخصصة لكل مسابقة، هي مئة حديث نبوي، يتم تحديدها للمتسابقين، ثم يُعطونَ مهلةً كافية لحفظها، ثم يتم اختبارهم فيما حفظوه، وتُوزّع على الْمُبرزين والمتفوقين منهم الجوائز التشجيعية، ثم بعد الفراغ من تلك المئة يتم الانتقال إلى مئةٍ أخرى، وهكذا حتى يتم إنهاء المتن الحديثي كله.

وأقترح أن تبدأ المسابقات، بحفظ متن "الأربعين النووية" للنووي وتتمتها للحافظ "ابن رجب"، فإذا انتهى المتسابقون من حفظها، يتم الانتقال إلى الحفظ في كتاب"عمدة الأحكام"للمقدسي، فإذا تم الانتهاء منه يتم الانتقال إلى كتاب"بلوغ المرام من أدلة الأحكام" للحافظ "ابن حجر"، فإذا تم الانتهاء منه يتم الانتقال إل مختصر"صحيح البخاري" للزبيدي، ثم إلى مختصر "صحيح مسلم" للمنذري، والله الموفق.

١٠٨ معرفة مدى حب السلف للقراءة في الكتب

الكتاب الشرعي هو النور في الظُّلَمِ ، وهو الأنيس في الوحدة ، وهو الوزير عند الحادثة ، وهو علاوةً على ذلك يعتبر من أهم وسائل طلب العلم الشرعي وتحصيله .

ولما أدرك سلفنا الكرام هذا الأمر ، جعلوا كتبهم هي جناتهم وبساتينهم ، فكانوا يعكفون على القراءة فيها ، متنقلين بين رياضها وأزهارها الفوّاحة وحدائقها الغنّاء ، وقد أنستهم لذة القراءة والتعلم ، كل لذة من لذات الدنيا الحسية الجسدية :

حَدّث عن القوم فالألفاظ ساجدةٌ ... خلف المحاريب والأوزان تبتهلُ

فتعال معي ـ رعاكَ الله ـ لنطالع شيئاً من روائعهم التي خلّفوها لنا في هذا المجال :

* قال"ابن الجوزي":" فسبيل طالب الكمال في العلم : الإطلاع على الكتب التي قد تخلّفت(أي بقيت) من المصنفات ، فليُكثر من المطالعة ، فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ، ما يشحذ خاطره ، ويُحرّك عزيمته للجدّ ، وما يخلو كتابٌ من فائدة .

وإني أُخبر عن حالي : ما أشبع من مطالعة الكتب ، وإذا رأيتُ كتاباً لم أرهُ (اي من قبل)، فكأني وقعتُ على كنزٍ ، ولقد نظرتُ في ثبْت (اي فهرس) الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية ، فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد !! ...

ولو قلتُ : إني طالعتُ عشرين ألف مجلد !! كان أكثر !! ... وأنا بعدُ في الطلب !!(اي لم أشبع من مطالعة الكتب !!) ، فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظة سِير القوم ، وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم ، وغرائب علومهم ما لا يعرفه

من لم يُطالِع "[١].

* قال"الخطيب البغدادي" : " قيل لبعضهم : أما تستوحش ؟! ...

فقال :وهل يستوحش مَنْ معه الأنس كله ؟! قيل : وما الأنس كله؟ قال : الكتب"[٢].

* قال"الخطيب البغدادي" : "ومع ما في الكتب من المنافع العميمة والمفاخر العظيمة ، فهي أكرمُ مالٍ ، وأنفسُ جمالٍ ، والكتاب آمن جليسٍ ، وأسرُّ أنيسٍ ، وأسلم نديمٍ ، وأفصحُ عليمٍ "[٣].

* قال"ابن الأعرابي" واصفاً الكتب :

لنا جُلساء ما نملُّ حديثهم
ألبَّاءُ مأمونون غيباً ومشهداً
فإنْ قلتَ أمواتٌ فما أنت كاذبٌ
وإنْ قلتَ أحياءٌ فلستَ مُفنِّداً

* قال"ابن المبارك": " مَنْ أحبَّ أن يستفيد ، فلينظر في كتبه "[٤].

* قال"الخطيب البغدادي" في وصف الكتاب :

"حاضرٌ نفعهُ ، مأمونٌ ضررهُ ، ينشطُ بنشاطك فينبسطُ إليك !! ، ويملُّ بملالك فينقبض عنك !! ، إنْ أدنيته دنا !! ، وإنْ أنأيتهُ نأى !! ، لا يبغيك شراً ولا يُفشي عليكِ سراً !! ، ولا ينمُّ عليك !! ، ولا يَسْعى بنميمةٍ إليك !! "[٥].

* قيل لأحد الصالحين : مَن يُؤنسكَ ؟!! ... فضرب على كتبه !! وقال:

---

(١) : نقلاً عن كتاب"صيد الخاطر"لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب" تقييد العلم" للبغدادي .

(٣) : نقلاً عن كتاب"تقييد العلم" للبغدادي .

(٤) : نقلاً عن كتاب"الجامع لأخلاق الراوي"للبغدادي (٢/٢٤١) .

(٥) : نقلاً عن كتاب "تقييد العلم" للبغدادي .

هذه !! ، فقيل له : مِنَ الناس ؟!! ... فقال : الذين فيها !! "(١)

*وما أجمل ما قاله الشاعر:

نِعمَ المُحَدِّثُ والرفيق كتابُ
تلهو به إنْ خانكَ الأصحابُ
لا مُفشِياً للسرِّ إنْ أودعته
وتُنالُ منهُ حكمةٌ وصوابُ

* حكى"ابن خلكان"قال : " وكانت "لأبي الحسن القالي" المحدث الأديب ، نسخة جيدة من كتاب "الجمهرة "لابن دريد ، فاضطرته الفاقة والفقر إلى بيعها ، فكتبَ عليها قبل أن يبيعها أبياتاً !! يقول فيها :

أنِستُ بها عشرينَ حَولاً وبعتُها
لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كانَ ظني أنّي سأبيعها
ولو خلّدتني في السجونِ ديوني
ولكنْ لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ
صِغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني

ثم باعها !! ، فاشتراها منه"الشريف المرتضى"بستين ديناراً ، فلما تصفّح الكتاب وجد فيه تلك الأبيات المحزنة ، فردَّ الكتاب إلى"أبي الحسن القالي" وترك له الدنانير !! "(٢) .

* قال"ابن الجوزي":"وبلغني أنَّ "أبا العلاء الهمذاني" رحمه رُؤي في المنام بعد موته ، في مدينةٍ جميع جدرانها من الكتب !! ، وحوله كتبٌ لا تُحدُّ ، وهو مُشتغلٌ بمطالعتها !!.

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تقييد العلم " للبغدادي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"وفيات الأعيان" لابن خلكان (١/٣٣٧) (بتصرف) .

فقيل له : ما هذه الكتب ؟!! فقال:سألت أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا (أي من القراءة والتحصيل العلمي) فأعطاني !! "(١) .

* قال القاضي "الجرجاني" واصفاً مدى حبه للقراءة والمطالعة :

ما تطَعَّمتُ لذة العيش حتى
صرتُ للبيت والكتاب جليساً
ليس شيءٌ عندي أعزَّ من العلم
فما أبتغي سواهُ أنيساً
إنما الذلُّ في مخالطة الناس
فدعهُم وعِشْ عزيزاً رئيساً

---

(١) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢١/٤٠) .

١٩ استشعار أنك في حالة حرب مستمرة مع الشيطان

الشيطان الرجيم هو عدو أبينا آدم عليه الصلاة والسلام ، وقد أخذ هذا العدو اللدود على نفسه عهداً ، بأن يُحاول إغواء ذرية آدم ، وأن يجتهد في صرفهم عن الحق إلى الضلال ، وعن الهدى إلى الردى .

*وقد أخبرنا الرب تبارك وتعالى ، عن هذه الحقيقة بقوله :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[١] .

* وقد توعَّدنا هذا العدو الرجيم ، بأن يقف لنا على كل طريقٍ من طرق الخير والصلاح ، ليصرفنا عنها ،كما أخبرنا المولى جلَّ وتقدس بذلك في قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٢] .

* وأخبرنا الرسول ﷺ أن الشيطان قد قعد للمسلم على كل بابٍ من أبواب الخير ، ليصدَّه عنه ويحول بينه وبينه :

* عن "سبرة بن أبي الفاكه" رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : " إنَّ الشيطانَ قعد لابن آدمَ بأطرقه (أي بكل طرق الخير) !! ، فقعد له بطريق الإسلام فقال له : تسلِمُ وتذرُ دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟!! ، فعصاه فأسلمَ ، ثم قعدَ له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدعُ أرضك وسماءك !! ، وإنما مَثلُ المهاجر كمثل الفرس في الطِّول (أي كالفرس المحبوس المقيد) ، فعصاه فهاجرَ ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد فهو جَهْدُ النفس والمال !! فتقاتِلُ فتُقتَلُ فتُنكَحُ المرأة ويُقسَّم المال !! فعصاهُ فجاهدَ .

---

(١) : سورة ص الآيتان (٨٢ ـــ ٨٣) .

(٢) : سورة الأعراف الآية(١٦) .

فمَن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة "(١) .

إذن فالحرب بين المؤمن والشيطان ، حربٌ دائرةٌ مستمرةٌ ، لا تنتهي إلا بخروج الروح من البدن عند الموت ، بل إنه كلما ازداد العبد صلاحاً وخشيةً وتقوىً لله تعالى ، واجتهاداً في طاعته ومرضاته ، ازدادت عداوة الشيطان له !! ، واشتدت الحرب ضراوةً وفتكاً .

وحينئذٍ إذا صبرَ المؤمن على مجاهدة الشيطان ومقارعة كيده ووساوسه ، فهنا يتنزّل نصر الله تعالى ، على هذا العبد الصادق ، الذي صابر وجاهد هذا العدو اللعين .

إذن فالعاقبة والفوز في هذه الحرب الضارية ، هي لمن اتقى الله عزّ وجلّ ، وجاهد شيطانه وهواه ، وصابرَ نفسه على مرضاة سيده ومولاه ، قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٢) .

ومن الميادين المهمة في "الحرب ضد الشيطان " ، ميدان "طلب العلم الشرعي وتحصيله " ، وذلك أنَّ الشيطان يُحاول جاهداً وبكل وسيلةٍ تتيسر له ، أن يصرف المرء ويصدَّه عن طلب العلم الشرعي النافع ، ليبقى المرء متخبطاً في ظلمات الجهل والهوى ، فإنَّ العلم الشرعي النافع ، نورٌ وشفاءٌ ، وإبليس يُحسّن للمرء إطفاء هذا النور ، ليتمكنَ منه في الظلمة ، ويتلاعب به كيف شاء !! ، ويقوده إلى كل شرٍ وبلاء وهلكة .

فإذا تقرر هذا عندك أخي الحبيب وأختي الغالية ، فاعلم أن لإبليسَ حيلاً

---

(١) : رواه أحمد في "المسند" والنسائي، والحديث صححه "الألباني" في "صحيح الجامع" برقم (١٦٥٢).

(٢) : سورة العنكبوت الآية (٦٦) .

نفسية ومداخل شيطانية ،يهجم من خلالها على القلب ، ويُكسّله عن طلب العلم ، ويُضعف همته لتحصيله !! ، ويصرفه عنه بواسطتها ، ويُشغله بالأمور التافهة عن المعالي ، ومن أبرز تلك المكائد والحيل ما يلي :

١ ـ مدخل التسويف ومكيدة التأجيل:

فكلما همَّ المرء بطلب العلم ، والقراءة والتفقه في دينه ، جاءه الشيطان ووسوس له وأملى ، وقال : أجِّل ذلك إلى الغد !! فإنَّ الوقت اليوم غير مناسب للتحصيل !! ، وما يزال الشيطان يُمنِّيه ويخدعه بالأماني الكاذبة والوعود المعسولة من يوم إلى يومٍ !! ، فتمضى الأيام تباعاً ، وتتقضي فترة الشباب والحيوية والنشاط ، حتى يصل المرء إلى فترة الهرم والشيخوخة ، فأيُّ طلبٍ للعلم الشرعي سيكون حينئذٍ ؟!! .

وستجد الرد الشافي على هذه المكيدة في الطريقة رقم (٨٠) .

٢ ـ إيهامُ المرء بالتفرغ في المستقبل :

حيث يُوهم الشيطان المرءَ ، بأنه سيتفرغ لطلب العلم في المستقبل !! ،بعد الزواج أو بعد التخرج في الجامعة ، أو بعد الحصول على الوظيفة !! ،أما الآن فلا ينبغي له أن يهتم بطلب العلم ، لأنَّ الظروف غير مهيئأة لذلك !! ، ولأنه سيعوّض كلَّ ما فاته من تحصيل للعلم في المستقبل !! .

وهكذا تنقضى أيام العمر ،وتمضي ساعاته ودقائقهُ ، في الغفلة وضياع الأوقات والهزل واللغو ، وصاحبنا "المسكين !! "ينتظر ذلك "المستقبل الوردي المزعوم !! " ، لكنه ما يلبث أن يستيقظ على الحقيقة المرَّة !!، حقيقة أنه إذا تزوج أو تخرَّج في الجامعة أو تعيَّن في وظيفة ما ، ازدادت مشاغله وارتباطاته وعلاقاته ، وحينها لن يتوفر له الوقت الكافي للقراءة والطلب والتحصيل ، وهناك

سيتحسر على شبابه الذي ضاع منه دونَ أن يُحصّل فيه العلم ، ولكن هيهاتَ هيهاتَ أن ينفع الندم حينئذ !! .

٣ ـ تزهيد المرء في طلب العلم الشرعي :

حيث يُزهّد الشيطان المرء عن طلب العلم الشرعي ، ويُوهمهُ بأنَّ العلم الشرعي لن يُغير شيئاً من الواقع المعاصر المرير والمؤلم !!، ومادام الأمر كذلك فلا حاجة لطلبه وتعلُّمه !!،لأنه إنما يُراد العلم لتصحيح حال الناس وواقعهم !!

وعلاج هذه الوسوسة الشيطانية الخبيثة ، يكون بالتأمل في سير المصلحين والمجددين والقادة، فسترى أنهم لم يتمكنوا من تغيير وإصلاح الواقع المنحرف عن الهدي الرباني ، إلا بالعلم الشرعي .

تأمل مثلاً في سيرة شيخ الاسلام "ابن تيمية" ،وسيرة الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" ، ستجد أن السلاح الذي تمكنا بواسطته ، من إصلاح الواقع المنحرف الضال ، هو سلاح الحجة والعلم والبيان ،

ثم إننا نقول: إنَّ الكلمة الصادقة ، والنصيحة الهادفة ، والموعظة البليغة ، والكتاب الإسلامي النافع ، والخطبة العصماء ، هي أدوات الإصلاح المؤثرة ، وكل هذه الأدوات عمادها الأساسي هو العلم الشرعي .

٤ ـ إيهام المرء بعدم احتياج الناس إلى علمه :

حيثُ يُصوّر الشيطان للمرء ، أنَّ طلاب العلم كثيرون ومتوافرون ، وما دام الأمر كذلك فلن يحتاج إليه أحد !! ، ولن يستفيد من علمه أحد ، فلا حاجة إذن لطلب العلم الشرعي !! .

والرد على هذه الشبهة الشيطانية يكون من وجوه متعددة منها :

أ ـ أن يعلم المرء ، أن كل الموجودين الآن من العلماء وطلاب العلم الشرعي مصيرهم إلى الموت والفناء والزوال ، فمَنْ للناس يُعلّمهم شرع ربهم

ويُفقههم في أمور دينهم ؟!! ، بعد وفاة هؤلاء العلماء ؟!!...
إنه أنت يا فتى الإسلام ، فلا تتخاذل عن مهمتك .
ب ــ أن يتذكر المرء ، أنه رغم كثرة العلماء وطلبة العلم ، فإنَّ الراسخين المتمكنين في العلم الشرعي منهم قليلون جداً !! ،وأُحيلُ القارئ الكريم إلى الطريقة رقم (٧٦) ، ورقم (٤٢) ورقم(٨٥) من هذا الكتب ، ليتأكد من ذلك بنفسه .
وما دام الراسخون في العلم قليلين ، فلمَ يا فتى الإسلام لا تطلب العلم وتجتهد في تحصيله ، فلعلك أن تكون أنت من الراسخين فيه ، والمبرزين في تحصيله ؟!! .
ج ــ أن يتذكر المرء ، أنه رغم كثرة أعداد الخريجين من الكليات الشرعية في العلم الإسلامي ، في كل عام،فإنَّ الأمة بحاجة ماسة إلى أضعاف هؤلاء المتخرجين ، ليُعلّموا الناس أمور دينهم ، لأنَّ الجهل قد انتشرَ وتفشى في الأمة الإسلامية البالغ تعدادها ألف مليون نسمة على الأقل !! [١] .

٥ ـ إيهام المرء بالعجز عن طلب العلم وتحصيله :

حيث يُخيل الشيطان للمرء ، ولا سيما التائب إلى الله حديثاً، أنه لا يستطيع طلب العلم وتحصيله ، لكونه قد تعوَّد في فترة انحرافه وفجوره على الضياع والغفلة والكسل ، وامتلأ قلبه بصور أهل الفسق والفجور وبكلامهم الساقط ، وبالتالي يصعب عليه الآن التخلص من رواسب الماضي ، ويشق عليه الإقبال على طلب العلم الشرعي الاجتهاد في تحصيله !! .
وعلاج هذه المكيدة الشيطانية ، يتلخص في أمورٍ منها :
أ ــ أن يعلم المرء ، أن العادات والطبائع السيئة التي تعوَّد عليها فترةً من الزمن ، يمكن تغييرها وتحويلها إلى عادات وطبائع حميدة،بمجاهدة النفس والمداومة والتعوُّد والتكرار .
ب ــ أن يتأمل المرء في حال كثيرٍ من طلاب العلم الذين حوله ، فإنهم كانوا في بداية

---

(١) : وراجع الطريقة رقم (٧٠) فإنها ستكشف لك مدى الجهل المرير الذي تتخبط فيه الأمة .

حياتهم منحرفين ضالين عن الهدى ، ثم منّ الله تعالى عليهم بالهداية والاستقامة ، فأقبلوا على طلب العلم وتحصيله ، وصاروا من المبرزين فيه !! ،فلماذا لا يكون هوَ مثلهم.!! .

٦ ـ إيهام المرء بالعجز عن حفظ العلم وضبطه :

حيثُ يُصوِّز الشيطان للمرء ، أنه لن يتمكن من حفظ القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، لأنه بطيء الحفظ ، أو لأنه إذا حفظ حديثاً أو عدة آيات من القرآن ، فإنه سوف ينساها بعد فترة قصيرة !! لكونه ضعيف الذاكرة !! ، وبناء على ذلك ، لا داعي أن يُتعب نفسه في حفظ ما سوف ينساه قريباً !! .

وهذه حيلة شيطانية ،علاجها أن يتأمل المرء في حال العلماء السابقين من أئمة السلف الأبرار ، الذين كانوا بحق حُفاظ الدنيا وعلماءها ، والذين كان الواحد منهم يحفظ عشرات الآلاف من الأحاديث النبوية والمسائل العلمية !![1] ، وليسأل المرء نفسه:
ألم يكونوا ينسون كما ننسى ؟! ...
والجواب : بلى كانوا ينسون ، لأنهم بشرٌ كسائر البشر .

إذن كيف حفظوا هذا الكمَّ الهائل من الأحاديث النبوية والمسائل الشرعية ؟! أبمجرد تكرار العلم مرةً أو عشر مرات ؟! كلا ،ليس هكذا حفظوا العلم !! بل إنهم لم يحفظوا ما حفظوه من العلم ،إلا بعد تكراره مئات المرات !! ، مع المراجعة المستمرة له من فترةٍ لأخرى[2] ، حتى لا يتطرق إليه النسيان ، ومع ذلك لم يسلمرا من وهمٍ أو سهوٍ !! .

فإذا كان هذا هو حال أئمة السلف الأبرار ، وحفاظ الدنيا الأخيار ، فكيف تريد أنت أن تحفظ العلم بمجرد تكراره عشر مرات أو عشرين مرة !! .

---

(١) : وراجع مشكورا الطريقة رقم(٨٥)فإنها ستكشف لك مدى سعة علم السلف وقوة حفظهم .

(٢) : وراجع مشكوراً الطريقة رقم (٩٤) ،لتعرف حال السلف الكرام في تكرار العلم مئات المرات.

إذن فمشكلة "سرعة النسيان أو بطء الحفظ وصعوبته"،علاجها الناجع هو تكرار المادة العلمية المراد حفظها كثيراً ، والمداومة على مراجعتها باستمرار ، حتى تثبت في الذهن ، وتستقر في القلب ، وهذا شيءٌ في مقدور كلِّ أحدٍ أن يفعله وأن يقوم به ، فلمَ لا تكون أنتَ من القائمين به ؟!! .

٢٠- طبع الكتب والمتون الشرعية على شكل كتب جيب

الحكمة هي ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ، وإنَّ من وسائل الطباعة الحديثة ما يُعرف "بكتاب الجيب" ، وهو عبارة عن كتاب صغير الحجم ، يكون على قدر "الجيب" ، بحيث يضع المرء هذا الكتاب في جيبه أينما ذهب ، ثم متى ما وجد فرصةً سانحةً للقراءة أو الحفظ ، أخرج الكتاب من جيبه وجعل يقرأ فيه أو يحفظ منه ، فإذا انتهى من القراءة والحفظ ردَّ الكتاب إلى جيبه.

وأنا هنا أوجه دعوةً صادقةً إلى دور الطباعة والنشر ، أن تُساهم في إيقاظ الحماسة في قلوب الشباب والناشئة لطلب العلم الشرعي وتحصيله ، عن طريق العناية "بكتب الجيب الإسلامية" ، وتتمثل هذه العناية في عدة مظاهر من أبرزها :

*الحرص على طباعة "كتب الجيب الإسلامية" طباعةً أنيقةً وفاخرة وجذَّابةً ، ليكون ذلك مدعاةً لانتشار هذه النوعية من الكتب بين أفراد الأمة.

* الحرص على طرح "كتب الجيب الإسلامية" في الأسواق بكميات كبيرة ، لتكون في متناول أكبر قطاع ممكن من القراء وطلاب العلم .

* العناية بطباعة كتب سلفنا الأبرار على هيئة "كتب جيب" ، لتسهلَ قراءتها وهي في حجمها الصغير ، وليعمَّ النفع بها ، وأنا هنا أقترح مجموعةً من الكتب السلفية المباركة ، لتتمَّ طباعتها بشكل "كتب جيب" ، ومنها :

أ ـ المتون العلمية السلفية ، سواءً كانت نثراً أو شعراً ، كمتون علم العقيدة أو التوحيد أو الفقه وأصوله ، أو مصطلح الحديث ، أو الآداب والحكم .

ب ــ كتب السنّة الستة .

جــ ــ الكتب الإيمانية والتربوية مثل: كتاب "الجواب الكافي" ، وكتـاب"الفوائـد" ، وكتاب "الصلاة "، وكتاب"حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" ،وكتاب"إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان" ، وكلها للإمام "ابن القيم" رحمه الله تعالى .

وكذلك كتب الإمام"ابن رجـب الحنبلـي"رحمـه الله ، مثـل : "جـامع العلـوم والحكم"، وكتاب"استنشاق نسيم الأنس" ، وكتاب"لطـائف المعـارف" ، وكتـاب "الخشوع في الصـلاة" ، وكتـاب "التخـويـف مـن النـار" .

وكـذلك كتب الإمام"النووي رحمه الله ، مثـل :كتـاب"التبيـان في آداب حملـة القرآن"، وكتاب "بستان العـارفين".

وكذلك كتب"ابـن الجـوزي" رحمـه الله ، مثـل :"كتـاب"صيـد الخـاطر" ، وكتاب"التبصرة" ، وكتاب"تلبيس إبليـس" .

وكذلك كتـاب"الزهـد "للإمـام "أحمـد" ، وكتـاب"الزهـد"لابـن المبـارك" ، وكتاب"التذكـرة في أحـوال الموتـى والآخـرة"للقرطـبي ، وكتـاب"التوابـين" وكتاب"الرقّة والبكاء" وكتاب"مختصر منهـاج القـاصدين" وكـل هـذه الكتـب الثلاثة للإمام"ابن قدامة المقدسي ، فإن كلّ هذه الكتب الآنفة الذكـر ، تعتـبر مـن أفضل وأروع الكتب السلفية التربويـة الإيمانيـة .

٢١ معرفة كيف صبر السلف على الجوع والعطش لأجل العلم

إذا كان الطعام والشراب هو غذاء الجسد ، فإن العلم الشرعي النافع الذي يُوصل صاحبه إلى خشية الله ومراقبته ، هو غذاء الروح والقلب ، ولا ريب أن غذاء الروح أعظم وأنفع من غذاء البدن ، ومن أجل ذلك آثر السلف الكرام غذاء العلم والمعرفة على الطعام والشراب ، فكانوا يصبرون على الجوع والعطش الأيام الطوال ، لأجل تحصيل العلم الشرعي الذي هو حياة الروح وبه قوامها ، ولو شاءوا لكانوا من أفخر الناس طعاماً وشراباً ، تغدو عليهم القدور وتروح عليهم الجفان الضخام المليئة بأصناف الطعام ، ولكن أين غذاء القلوب وقوت الأرواح ؟!!

أقبِلْ على الروح واستكمل فضائلها ... فأنتَ بالروح لا بالجسم إنسانُ

فطوبى لتلك الأنفس التي جاعت وظمئت ، لأجل رضا سيدها ومولاها :

* قال "النضر بن شميل" رحمه الله : " لا يجد الرجل لذة العلم حتى يجوعَ (أي في سبيل طلب العلم) ، وينسى جوعه !! "(١) .

* قال "بقي بن مخلد الأندلسي" ، وكان قد طاف الدنيا على قدميه :

" إني لأعرف رجلاً كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم، ليس له عيشٌ إلا ورق الكرنب الذي يُرمَى به (والكُرنب هو ما نسميه الآن "الملفوف"، ولكن "بقياً" كان يأكل ما يُرمى منه لا الكرنب نفسه !!) "(٢) .

* قال "ابن خراش" رحمه الله : " شربتُ بولي أثناء الرحلة لطلب العلم : خمسَ

---

(١) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي" (٣١٤/١).

(٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٦٣٠/٢) .

مرات !! (وشرب المرء لبوله لا يكون إلا في أشد حالات العطش ، التي يُوشك المرء فيها على الهلاك !!) "(١) ، فرحم الله أولئك الرجال الذين صبروا في سبيل تحصيل العلم على كل كريهة وبليَّة ، لعلمهم أن العلم خيرُ منحةٍ وعطيةٍ .

* قال "أبو علي الحسن بن علي البلخي" رحمه الله : "لقد كنتُ "بعسقلان" أسمع من "ابن مصحح" وغيره ، فضاقت عليَّ النفقة ، وبقيت أياماً بلا أكل !! فأخذتُ لأكتب (أي أكتب العلم) فعجزتُ !! (أي لشدة الجوع) ، فذهبتُ إلى دكان خباز ، وقعدت بقربه لأشمَّ رائحة الخبز وأتقوى بها !! ، ثم فتح الله عليَّ "(٢) .

* وهذا " أبو حاتم الرازي" رحمه الله ، يقول : " بقيتُ بالبصرة ثمانية أشهر ، ... ، فانقطعت نفقتي ، فجعلتُ أبيع ثيابَ بدني شيئاً بعد شيء !! ، حتى بقيتُ بلا نفقة !!، وجعلت أطوف مع صديقٍ لي على المشايخ فنسمع منهم (أي نطلب العلم عليهم) إلى المساء ، ثم أنصرف إلى بيتِ خالٍ لي فأشرب الماء من شدة الجوع وقلة الطعام !! ، وبقيتُ على هذا الحال يومين ، فمرَّ عليَّ صديقي هذا في اليوم الثالث ، وقال لي : هيا بنا إلى المشايخ ، فقلت له : إني ضعيفٌ لا يمكنني !! ، فقال لي : وما سبب ضعفكَ ؟!! فقلت له : لا أكتمكَ أمري ، قد مضى عليَّ يومان لم أذق فيهما طعاماً !! ، فقال لي : قد بقي معي دينار فأعطيكَ نصفه ،..."(٣) .

* واستمع إلى "محمد بن طاهر المقدسي" رحمه الله ، وهو يقول في وصف رحلته لطلب العلم ، وما لاقاه فيها من الشدائد : "وأقمتُ "بتنيس" (وهي مدينة من المدن) مدةً على "أبي محمد بن الحداد" ، فضاقَ بي ، ولم يبقَ معي غير درهم ،

---

(١) : نقلاً عن كتاب" العبر في خبر من غبر" للذهبي(٢/ ٧٠) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" تذكرة الحفاظ" للذهبي (٤/ ١١٧٣) .

(٣) : نقلاً عن كتاب" الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (بتصرف) .

وكنت في ذلك اليوم أحتاج إلى خبزٍ وإلى ورقٍ للكتابة ، فكنتُ أتردد : إنْ صرفته في الخبز لم يبقَ لي ورقٌ للكتابة ، وإنْ صرفتهُ في الورق لم يكن لي خبز !! ، ومضى على هذا التردد ثلاثة أيام بلياليهنّ لم أذق فيها طعاماً قط !! ، فلما كان بكرة اليوم الرابع ، قلتُ في نفسي : لو كان لي ورق لم يمكنني أن أكتب فيه شيئاً لما بي من شدة الجوع ، فجعلتُ الدرهم في فمي وخرجت لأشتري به خبزاً ، فبلعتُ الدرهم من دون شعور !! ، ووقع عليّ الضحك !! ، فلقيني"أبو طاهر الصانغ" فسألني : ما الذي يُضحكك ؟ !!

فقلتُ : خيرٌ !! ، فألحّ عليّ وأبيتُ أن أخبره ، فأصرّ عليّ فأخبرته الخبر ، فأدخلني إلى بيته وأطعمني في منزله "[1].

* قال"البخاري":"خرجت إلى"آدم بن أبي إياس"في "عسقلان"(أي لأطلب العلم عنده) ، فتأخرت نفقتي ، حتى جعلتُ أتناول حشيش الأرض !! ، ولا أُخبرُ بذلك أحداً ، فلما كان اليوم الثالث أتاني رجلٌ لا أعرفه ، فأعطاني صرّةً فيها دنانير ، وقال : أنفقها على نفسك!! "[2] .

* حكى"إبراهيم بن يعقوب"،واصفاً ما لاقاه الإمام"أحمد بن حنبل" رحمه الله ، من الشدائد في رحلته لطلب العلم باليمن عند"عبد الرزاق الصنعاني"رحمه الله ، فقال: " كان"أحمد" يُصلي "بعبد الرزاق" ، فسها يوما في صلاته!!،فسأله "عبد الرزاق"عنه (أي عن سبب السهو) فأخبره "أحمد" أنه لم يطعم شيئاً منذ ثلاث !! "[3] .

*قال"ابن الجوزي"واصفاً حاله في طلبْ العلْم:"ولقد كنتُ أدور على المشايخ لسماع

---

(١) : نقلا عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٢٤٢/٤) (بتصرف) .

(٢) : نقلا عن كتاب"طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (٢٢٧/٢) .

(٣) : نقلا عن كتاب" طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى الحنبلي (٩٧/١) .

الحديث، فينقطع نَفَسِي من العدو (أي الركض إلى مجلس العلم) لئلا أُسبَق !! ولقد كنتُ أُصبحُ وليس لي مأكلٌ !! (أي مصدر رزق ثابت محدد) ، وأُمسي وليس لي مأكلٌ!! ، ما أذلني الله لمخلوقٍ قط ، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح"[١] .

* ذكر الذهبي في ترجمة العبد الصالح " أبي عبد الله محمد بن يحي الزبيدي" رحمه الله : " قال"الوزير "ابن هبيرة": وجلستُ معه يوماً من بُكرة إلى قريب الظهر ، وهو يلوكُ شيئاً، فسألته عنه ، فقال: نواةٌ أتعلل بها !! (أي اسدُّ بها جوعي) ، لم أجد شيئاً !!"[٢].

فهنيئاً لهؤلاء الأئمة الأبرار ، والطلبة الأخيار ، على ما جاعوا من أجل العلم الشرعي ، وعطشوا في سبيل التحصيل والطلب .

وهنيئاً لهم بالشبع الكامل والريّ التام يوم القيامة عند ربهم ومولاهم ، حين يجوع الآخرون ويعطشون !!.

هنيئاً لهم ، وطوبى لهم حين يُنادَى عليهم :

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[٣].

---

(١) : نقلاً عن كتاب"صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣١٦/٢٠) .

(٣) : سورة الحاقة الآية (٢٤) .

٢٢- معرفة المكانة العالية للعالم عند الناس

إنّ من الثمار العاجلة ، في هذه الدنيا الفانية ، لشجرة العلم الشرعي النافع المباركة ، أن الله تعالى يقذف لأهل العلم الربانيين الصادقين ، هيبةً ومحبةً وتقديراً في قلوب الناس ، فتجد الألسن تتابع في الثناء عليهم ، والقلوب تتفق على احترامهم وتوقيرهم ، لما يحملونه من علم الشرع المطهر .

وليس مقصدنا من إيراد هذا الكلام ، أن يطلب المرء العلم الشرعي ليُحصّل منزلةً سامية في المجتمع ، أو لينال مدح الناس واحترامهم له !! كلا وألف كلا ، فإنّ طلب العلم بهذه النية هو وبالٌ ودمارٌ على صاحبه ، وإنما مقصدنا أن نتعرف على فضل العلم الشرعي وشرفه في الدنيا قبل الآخرة ، لتتحفز الهمم وتشتعل العزائم لتحصيله ، فهيا بنا مع سلفنا الأبرار نبدأ الرحلة :

*حكى الشيخ "محمد مخلوف المالكي" في ترجمة العبد الصالح "أسد بن الفرات" رحمه الله قال : " رحل به والده وعمره عامان ، مع الجند العربي بقيادة "ابن الأشعث" ، ... ، ثم دخل تونس (أي أسد بن الفرات) وانقطع لقراءة القرآن وعلومه ، وروى "الموطأ" عن "ابن زياد" ، وفي الثامنة عشر من عمره رحل إلى المشرق ، وأقام بالمدينة ملزِمةً ،.. ، ثم رحل إلى العراق ولقي أعلاماً من أصحاب "أبي حنيفة" ، وأخذ عنهم علماً غزيراً ، ثم قفل راجعا إلى القيروان ، وبها انتشر ذكره وظهر علمه وارتفع قدْره .

وفي سنة ٢١٢ هـ جمع الأمير "زيادة الله الأغلبي" جيوشه وأسطوله لغزو "صقلية" ، وكان أمير الجيش وقاضيه "أسد بن الفرات" المذكور ، فخرج في حفلٍ عظيم وجمعٍ فخيم ، من أهل العلم ووجوه الناس وكبرائهم لمشايعته

وتوديعه ، فلما رأى"أسد" الناس أمامه وخلفه ، خطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يا معشر الناس :والله ما وَلِيَ لي أبٌ ولا جدٌ ولاية قط ، ولا أحدٌ من سلفي رأى هذا (أي هذا الإكرام والتقدير) قطُّ ،وما بلغتُ ما ترونَ (أي من التقدير والمكانة والمنزلة العالية في قلوب الناس) إلا بالأقلام !! (أي بطلب العلم وتحصيله والصبر على الشدائد في سبيله) ، فأجْهِدوا أنفسكم ، وأتعِبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، واصبروا على شدته ، فإنكم تنالون به خيري الدنيا والآخرة"(١).

*وكَّل الخليفة"المأمون" الإمام"الفرَّاء يحي بنْ زياد"رحمه الله ، بتدريس ولديه النحو وعلومه ، فلما كان ذات يوم أراد"الفراء" أن ينهض من مجلسه لقضاء بعض حوائجه ، فتسابق ولدا الخليفة"المأمون" إلى نعلي"الفراء" يُقدِّمانها له ، فتنازعا أيهما يُقدِّمها له ، ثم اصطلحا على أن يُقدِّم كلٌ منهما فردةً إلى شيخه ومعلمه "الفراء" ، فقدَّماها إليه!! فبلغ الخبر الخليفة "المأمون" ، فاستدعى "الفراء"!! .

فلما دخل عليه "الفراء" وجلس ، سأله الخليفة : مَنْ أعزُّ الناس ؟!!

فقال "الفراء" : ما أعرف أحداً أعزَّ من أمير المؤمنين ، فقال الخليفة"المأمون": بلى !! مَن إذا قامَ تقاتل على تقديم نعليه له وليَّا عهد المسلمين (أي ابني المأمون) !! ، حتى رضي كل واحدٍ منهما أن يُقدِّم له فردةً !! .

فقال"الفراء": لقد أردت أن أمنعهما عن ذلك يا أمير المومنين ، ولكن خشيتُ أن أدفعهما عن مكرُمَة سبقا إليها ، وأكسر نفوسهما عن شريفةٍ حرصا عليها ، وقد روي عن"ابن عباس" رضي الله عنه أنه أمسك"للحسن والحُسين" رضي الله عنهما ركابيهما(والركاب هو ما يُركَب عليه) ، حتى خرجا من عنده ، فقال له بعض

---

(١) : نقلا عن كتاب"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" للشيخ"محمد مخلوف المالكي" .

الحاضرين : يا ابن عباس أتُمسكُ لهذين الحدثين(أي الشابين الصغيرين) ركابيهما ، وأنت أسنُّ منهما ؟!!(أي أكبر منهما سنّاً) ، فقال له"ابن عباس": اسكت يا جاهل!! لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووا الفضل !! .

فقال "المأمون" للفراء : لو منعتَهما عن ذلك (أي عن تقديم نعليك إليك) لأوجعتكَ لوماً وعتباً ، وما نقص ما فعلاه معك من شرفهما عندي ، بل رفع من قدرهما وبيّن عن جوهرهما ، وليس يكبر الرجل عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالده ومعلمه العلم ، وقد عوّضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف دينار على حُسن أدبكَ لهما !! "(١) .

* قال"أبو بكر البرقاني" : " كان"إسماعيل بن إسحاق" القاضي ، يشتهي رؤية ومقابلة الشيخ الإمام"إبراهيم الحربي"رحمه الله ، وكان"إبراهيم" لا يدخل عليه ولا يزوره ، ويقول: لا أدخل داراً عليها بوّاب !! ، فأُخبِر"اسماعيل" بذلك،فقال: أنا أجعل بابي كباب الجامع (أي بدون بوّاب ولا حرس إكراماً للحربي) ، ونحّى الحاجب عن بابه أياماً. فجاء"إبراهيم" إليه ، فلما دخل عليه تلقاه "أبو عمر محمد بن يوسف " ، وهو كاتب القاضي"إسماعيل" وحاجبه .

فلما نزع"إبراهيم" نعليه أخذهما "أبو عمر محمد بن يوسف" ولفّهما في منديل ، وجعل المنديل في جيبه !! ، وجرى بين القاضي "إسماعيل" والشيخ"إبراهيم" من العلم والمناقشة والمذاكرة الشيءُ الكثير ، فلما قام"إبراهيم" لينصرف طلب نعليه ليلبسهما ، فأخرج"أبو عمر" النعل من كمّه ملفوفةً في المنديل !! ، فقال له"إبراهيم الحربي " : غفر الله لكَ كما أكرمتَ العلم !! .

فلما مات"أبو عمر"رؤي في المنام فقيل له:ما فعلَ الله بك ؟!! فقال :أُجيبت فيَّ دعوة الرجل الصالح"إبراهيم الحربي" فغُفِرَ لي "(٢) .

---

(١) : عن"تاريخ بغداد"للبغدادي"(١٤/١٥) . (٢) : عن نفس المصدر السابق (٣/٤٠٤) .

* واستمع إلى"أبي هلال العسكري"رحمه الله ، وهو يبين لنا المكانة العالية لأهل العلم في النفوس ، فيقول:

" فإذا كنت يا أخي ترغب في سمو القدر ، ونباهة الذكر ، وارتفاع المنزلة بين الخلق ، وتلتمس عزاً لا تثلمهُ (أي لا تهدمه) الليالي والأيام ، ولا تتحيفه الدهور والأعوام ، وهيبةً بغير سلطان ، وغنىً بلا مالٍ ، ومَنَعَةً بغير سلاحٍ ، وعلاءً من غير عشيرةٍ ، وأعواناً بغير أجرٍ ، وجنداً بلا ديوانٍ وفرضٍ (أي بلا راتب) ، فعليك بالعلم فاطلبه في مظانه ، تأتيك المنافع عفواً !!(أي مجاناً) ، وتلقَ ما يُعتمد منها صفواً ، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل ، ثم تذوّق حلاوة الكرامة مدة عمرك ، وتمتع بلذة الشرف فيه بقية أيامك ، واستبقِ لنفسك الذكر بعد وفاتك "(١) .

*واستمع إلى"ابن عساكر" رحمه الله ، وهو يقول :"سمعتُ "ابن الأكفاني" يحكي عن بعض مشايخه أن"أبا الحسن بن داود"رحمه الله ، كان إمام جامع "داريًا " فمات إمام جامع "دمشق"، فخرج أهل "دمشق" إلى "داريًا" ، ليأتوا"بأبي الحسن بن داود" ليكون إماماً لجامع "دمشق" ، فلبس أهل"داريًا" السلاح !! وأخذوا سيوفهم !! والتقوا بأهل "دمشق"، وقالوا لأهل "دمشق": واللهِ لا نمكنكم من أخذ إمامنا !! (وذلك لحبّهم له ومكانته العالية في نفوسهم حتى أنهم حملوا السلاح دفاعاً عنه) ، فقال"أبو محمد بن نصر": ياأهل "داريا" : ألا ترضون أن يُسمَع في البلاد أن أهل"دمشق" قد احتاجوا إليكم في إمام ؟!! ، فقالوا : قد رضينا !!، فتنازلوا عن"أبي الحسن بن داود" لأهل دمشق !! "(٢) .

*حكى"صاحب كتاب" الشقائق النعمانية في ترجمة"أحمد بن سليمان باشا " رحمه الله ، قال : " وكان السبب الحامل له (أي"لأحمد باشا")على الاشتغال بالعلم ،

---

(١) : نقلاً عن كتاب"الحث على طلب العلم "لأبي هلال العسكري .

(٢) : نقلاً عن كتاب"معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" للذهبي(١/٢٩٤) (بتصرف)

والباعث له على تحصيله ، أنه رأى ذات مرة عند الوزير "إبراهيم باشا" شخصاً رثَّ الهيئة ، خَلِقَ الثياب ، جاء وجلس فوق بعض الأمراء الكبار المتقدمين في الدولة !! ، فاستغرب "أحمد" ذلك وسأل عن السبب فيه .

فقيل له : هذا شخص من أهل العلم !! ، فقال : أيبلغُ العلم بصاحبه هذه المنزلة ؟!! فقيل له: نعم وأزيدُ !! ، فانقطع من ذلك الحين إلى طلب العلم ،حتى صار إماماً بارعاً فيه "(١) .

* وهذا "ابن بشكوال الأندلسي" يحكي في ترجمة العبد الصالح "أبي مروان عبد الملك بن زيادة التميمي" رحمه الله فيقول :

"وكانت له رحلتان إلى المشرق ، كتب فيهما عن جماعة كثيرة من أهل العلم بمكة، ومصر والقيروان،ولما رجع إلى "قرطبة" أملى الحديث فاجتمع إليه في مجلس الإملاء خَلْقٌ كثير، فلما رأى كثرتهم أنشد:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة .... يكتبنَ حدثني طوراً وأخبرني
نادت بحضرتي الأقلام معلنةً.... هذي المفاخر لا قُعبان من لبنِ .

---

(١) : نقلا عن كتاب "الجواهر المضيئة في تراجم الحنفية" للقرشي (١/٤١٠) .

٢٣ إدراك أن طلب العلم عاصم من الوقوع في المحرمات

من ثمرات طلب العلم الشرعي العاجلة في الدنيا ، أنه يُحصّن صاحبه ويحفظه من الوقوع في الشهوات المحرمة ، سواءً كانت شهوة المال الحرام ، أو المرأة الحرام ، أو المنصب الحرام ، أو الفخر والكبر ، أو غيرها من اللذات المحرمة . ولا عجبَ في ذلك ،فإنَّ العلم الشرعي النافع ، يُهذّب النفس ويُربّيها على تقوى الله تعالى ، وعلى مراقبته وخشيته سبحانه في السر والعلن ، فكلّما همّت نفسه بمعصية زجرها ونهاها، وذكّرها بأنَّ الله جلَّ في علاه يراها .

* تأمل مثلاً في مبحث "إثبات أن لله جلَّ في علاه بصراً يُبصرُ به ،كما يليق بجلاله وعظمته سبحانه " وأنَّ الله تعالى ، لا تخفى عليه خافية ، في الأرض ولا في السماء ، فإذا درس المرء هذا المبحث وفهمه بعقله ووعاه بقلبه ، وصار يجري في جسمه مجرى الدم في العروق ، فحينئذٍ لو همّت نفسه بالوقوع في معصية من المعاصي ، كنظرةٍ حرام أو مداهنةٍ وسكوت عن الحقِ ، إرضاءاً لزميل أو صديق ، أو إفتاءٍ بفتوى من "الفتاوي ذات البلاوي " كإباحة الغناء ، أو التحايل على استحلال الربا ، أو ... أو ... فإنه مباشرةً يتذكر نظر الله تعالى إليه ، واطلاعه عليه ، وأنَّ جميع ما يقوله أو يعمله مسطورٌ مكتوبٌ عليه ، فحينئذٍ ترتدع نفسه عن تلك المعصية وتنفر منها ، ولسان حالها قول القائل:

إذا ما خلوتَ بريبةٍ في ظلمةٍ ... والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيان

فاستحيي مِنْ نظر الإله وقل لها ... إنَّ الذي خلق الظلام يراني

* وإذا شئت دليلاً حياً على هذه الحقيقة الكبرى ،حقيقة أن طلب العلم الشرعي النافع ، الذي يُوصل صاحبه إلى خشية الله ، عاصمٌ ومانعٌ من الوقوع

في المعاصي والشهوات المحرمة ، فتأمل معي هذه النماذج الحية والبطولات الخالدة ، لسلفنا الأبرار:

* كان الخليفة العباسي "المأمون " ، يُجري على العلماء في عصره راتباً شهرياً قدره خمس مئة درهم ، من بيت مال المسلمين ، لأجل أن يتفرّغوا لطلب العلم الشرعي وتعليمه ، فلمّا وقعت فتنة "القول بخلق القران " ، أرسل "المأمون" إلى أميره "إسحاق بن ابراهيم" يأمره أن يستدعي مَنْ عنده من العلماء ،ويُلزمهم بالقول بأنَّ القرآن مخلوق !! ، ومَنْ أبى منهم فليقطع عنه المال !! .

فاستدعاهم "إسحاق بن إبراهيم" ، فلما دخل عليه الإمام "عفّان بن مسلم الصَّفّار" رحمه الله (وهو أحد المحدثين الكبار الذين روى عنهم البخاري في صحيحه) ، فلما دخل "عفان" على الأمير ، وقرأ عليه الأمير كتاب الخليفة ، وقوله: "إنّ القرآن مخلوق !! .

فقال "عفان" : أرأيتَ قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أمخلوقٌ هذا ؟!! ، ورفض "عفان" أن يُصدر تلك الفتوى الضالة المبتدعة ، وأبى أن يقول بتلك المقولة الآثمة ، فقال له الأمير "إسحاق" : إذن يُقطَع ويُحبَسُ عنك عطاؤك !! فقال له "عفان ": ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(١) ، ثم خرج من عنده ، وانصرف إلى أهله ، فلما وصل "عفان" إلى داره ، وقصَّ على أهله الخبر ، لاموهُ وعاتبوهُ !! ، وكان في داره نحو أربعين إنساناً لا مُعيل لهم بعد الله تعالى إلا "عفان"!! ، فما بالى "عفان" بكلامهم ، ولا تراجعَ عن الحق .

فلما كان بعد ساعات ، إذ دقَّ الباب داقٌ ، فدخل رجلٌ ومعه كيس فيه ألف درهم وقال "لعفان":يا أبا عثمان ثبّتك الله كما ثبّتَ هذا الدين،وهذا لكَ في كل شهرٍ!!"(٢)

---

(١) : سورة الذاريات الآية(٢٢) .

(٢) نقلاً عن كتاب " تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي (١٢/٢٧١) .

* حين دخل الإمام"أبو نعيم الفضل بن دكين" رحمه الله (وهو محدث جليل واحد شيوخ البخاري) على الوالي ، ليمتحنه في فتنة " القول خلق القران " ، قال"أبو نعيم" للوالي : أدركتُ بالكوفة سبع مئة شيخٍ ، كلهم يقولون : أنَّ القران كلام الله .

ثم أخذ زرَّ ثوبه فقطعه ، ثم قال للأمير : عنقي أهون عليَّ من زرِّي هذا !! (أي قطع عنقي في سبيل الله أهون عليَّ من قطع هذا الزر من ثوبي!!) ، فقام إليه "أحمد بن يونس"فقبَّل رأسه (أي رأس أبي نعيم) ، وقال له : جزاكَ الله من شيخٍ خيراً "(١).

* ذكر الحافظ "أبو نعيم" في ترجمة الإمام الواعظ "عبيد بن عمير المكي" رحمه الله ، وكان واعظ أهل مكة ، وكان يعظ الناس في المسجد الحرام ، وكان كثير البكاء من خشية الله ، سريع الدمعة ، أنه :

" كان ذات مرة يعظ الناس في المسجد الحرام ، فلمَّا انتهى المجلس وانصرف الناس ، جاءته امرأة ، وقالت له : أريدكَ خلف هذه السارية في أمرٍ ما !!

فظن"عبيد"أنها تريد أن تسأله عن أمرٍ تستحي من ذكره أمام الناس ، فمشى معها حتى وقفا خلف ساريةٍ من السواري بحيث لا يراهما أحد ، فلما وقفا خلف السارية كشفت له تلك المرأة عن وجهها كأنه قطعة قمر !!

ووسوس الشيطان لعبيد : لماذا لا تنظر إليها وتتمتع بهذا الجمال الباهر الفتَّان !! ما دام أنه لا يراكما أحد !! .

وهنا يظهر أثر العلم الشرعي النافع ، في تحصين المرء من الوقوع في المعاصي والموبقات ، لقد هتف حادي العلم وواعظ الإيمان في قلب "عبيد" يناديه قائلاً :

ولكن أين خشية الله ومراقبته ؟!أين ثمرة العلم الذي تعلَّمته وعلَّمته للناس ؟!

ثم أطلقها في نفسه صيحةً مدوِّيةً : إنْ كان لا يرانا الآن أحدٌ،فإنما يرانا الواحد الأحد!!

ثم غضَّ بصره عنها ، وطأطأ برأسه إلى الأرض ، وقال لها : اتقي الله يا امرأة

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تهذيب التهذيب"لابن حجر(٢٧٥/٨) .

في المعاصي والشهوات المحرمة ، فتأمل معي هذه النماذج الحية والبطولات الخالدة ، لسلفنا الأبرار:

* كان الخليفة العباسي "المأمون " ، يُجري على العلماء في عصره راتباً شهرياً قدره خمس مئة درهم ، من بيت مال المسلمين ، لأجل أن يتفرّغوا لطلب العلم الشرعي وتعليمه ، فلمّا وقعت فتنة "القول بخلق القران " ، أرسل "المأمون" إلى أميره "إسحاق بن ابراهيم" يأمره أن يستدعي مَنْ عنده من العلماء ،ويُلزمهم بالقول بأنّ القرآن مخلوق، !! ، ومَنْ أبى منهم فليقطع عنه المال !! .

فاستدعاهم "إسحاق بن إبراهيم" ، فلما دخل عليه الإمام "عفّان بن مسلم الصَّفّار" رحمه الله (وهو أحد المحدثين الكبار الذين روى عنهم البخاري في صحيحه) ، فلما دخل "عفان" على الأمير ، وقرأ عليه الأمير كتاب الخليفة ، وقوله: "إنَّ القرآن مخلوق !! .

فقال "عفان" : أرأيتَ قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أمخلوقٌ هذا ؟!! ، ورفض "عفان" أن يُصدِر تلك الفتوى الضالة المبتدعة ، وأبى أن يقول بتلك المقولة الآثمة ، فقال له الأمير "إسحاق" : إذن يُقطَعُ ويُحبَسُ عنك عطاؤك !!

فقال له "عفان ": ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(١) ، ثم خرج من عنده ، وانصرف إلى أهله ، فلما وصل "عفان" إلى داره ، وقصَّ على أهله الخبر ، لاموهُ وعاتبوهُ !! ، وكان في داره نحو أربعين إنساناً لا مُعيل لهم بعد الله تعالى إلا "عفان"!! ، فما بالى "عفان" بكلامهم ، ولا تراجعَ عن الحق .

فلما كان بعد ساعات ، إذ دقّ الباب داقٌ، فدخل رجلٌ ومعه كيس فيه ألف درهم وقال "لعفان":يا أبا عثمان ثبّتك الله كما ثبّتَ هذا الدين،وهذا لكَ في كل شهرٍ!!"(٢)

---

(١) : سورة الذاريات الآية(٢٢) .

(٢) نقلاً عن كتاب " تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي (١٢/٢٧١) .

* حين دخل الإمام"أبو نعيم الفضل بن دكين" رحمه الله (وهو محدث جليل واحد شيوخ البخاري) على الوالي ، ليمتحنه في فتنة " القول خلق القران " ، قال"أبو نعيم" للوالي : أدركتُ بالكوفة سبع مئة شيخٍ ، كلهم يقولون : أنّ القران كلام الله .

ثم أخذ زرّ ثوبه فقطعه ، ثم قال للأمير : عنقي أهون عليّ من زرّي هذا !! (أي قطع عنقي في سبيل الله أهون عليّ من قطع هذا الزر من ثوبي!!) ، فقام إليه "أحمد بن يونس"فقبّل رأسه (أي رأس أبي نعيم) ، وقال له : جزاكَ الله من شيخٍ خيراً "(١) .

* ذكر الحافظ "أبو نعيم" في ترجمة الإمام الواعظ "عبيد بن عمير المكي" رحمه الله ، وكان واعظ أهل مكة ، وكان يعظ الناس في المسجد الحرام ، وكان كثير البكاء من خشية الله ، سريع الدمعة ، أنه :

" كان ذات مرة يعظ الناس في المسجد الحرام ، فلمّا انتهى المجلس وانصرف الناس ، جاءته امرأة ، وقالت له : أريدكَ خلف هذه السارية في أمرٍ ما !!

فظن"عبيد"أنها تريد أن تسأله عن أمرٍ تستحي من ذكره أمام الناس ، فمشى معها حتى وقفا خلف ساريةٍ من السواري بحيث لا يراهما أحد ، فلما وقفا خلف السارية كشفت له تلك المرأة عن وجهها كأنه قطعة قمر !!

ووسوس الشيطان لعبيد : لماذا لا تنظر إليها وتتمتع بهذا الجمال الباهر الفتّان !! ما دام أنه لا يراكما أحد !! .

وهنا يظهر أثر العلم الشرعي النافع ، في تحصين المرء من الوقوع في المعاصي والموبقات ، لقد هتف حادي العلم وواعظ الإيمان في قلب "عبيد" يناديه قائلاً :

ولكن أين خشية الله ومراقبته ؟!أين ثمرة العلم الذي تعلّمته وعلّمته للناس ؟!

ثم أطلقها في نفسه صيحةً مدوّيةً : إنْ كان لا يرانا الآن أحدٌ،فإنما يرانا الواحد الأحد!!

ثم غضّ بصره عنها ، وطأطأ برأسه إلى الأرض ، وقال لها : اتقي الله يا امرأة

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تهذيب التهذيب"لابن حجر(٨/٢٧٥) .

وتحجي !! ماذا تريدين مني ؟! ، فقالت المرأة : إن قلبي قد تعلَّق بك !! ، فاقضِ لي حاجتي !! (أي الزنا وفعل الفاحشة) .

فقال لها "عبيد": أيسرُّكِ أني قضيتُ لكِ حاجتكِ وقد نزل بك ملك الموت ليقبض روحكِ ؟! ... قالت : لا !!

فقال: أيسركِ أني قد قضيتُ لكِ حاجتكِ وقد وقفتِ بين يدي الله تعالى للحساب والسؤال والجزاء ؟!! ... قالت : لا !!

فقال لها : أيسرُّكِ ...... ؟!! .... قالت : لا !!

فقال لها: أيسرُّك ...... ؟!! .... قالت : لا !!

فانفجرت المرأة باكيةً نادمةً ، وتابت إلى الله تعالى ، وأصبحت من العابدات الزاهدات القانتات الخاشعات !! "(١) .

فيا فتى الإسلام : تأمل كيف أن العلم الشرعي الموصل لخشية الله ، يعصم صاحبه من هذه الشهوات المحرمة ، فجِدَّ واجتهد في تحصيله ، وانزع عنك دثار الغفلة والكسل ، لعلك أن تكون من الفائزين عند رب العالمين .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الثقات" للعجلي، وكتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم (بتصرف) .

٢٤ معرفة كيف تحمل السلف المشاق والمصاعب لأجل طلب العلم

أخي:إنَّ مَنْ أحبَّ شيئا سعى إلى تحصيله بكل وسيلة ممكنة ، وضحّى في سبيله بالغالي والنفيس ، وصبر على كل مشقةٍ وعقبةٍ تعترض وصوله إلى مطلوبه ، بل إنه قد يتلذذ باجتياز تلك العقبات والصعاب والصبر عليها ،لأنها ستُوصله إلى مراده ومطلبه، وكذا كان سلفنا الكرام فإنهم كانوا يتلذذون ويتنعمون بتحمل المشاق والمصاعب ، واقتحام الأهوال والأخطار في سبيل تحصيل العلم الشرعي، مستشعرين الأجر العظيم الذي أعده لهم رب العالمين على ذلك، فهيا بنا نتابع شيئاً من أخبارهم في هذا المجال:

* قال"بديع الزمان الهمداني"رحمه الله مُقرراً هذه الحقيقة : "العلم شيءٌ بعيد المرام ، لا يُصاد بالسهام ، ولا يُقسم بالأزلام ، ولا يُكتب للئام ، ولا يُرى في المنام ، ولا يُضبط باللجام ، ولا يُورَث عن الآباء والأعمام ، ولا يزكو إلا متى صادف من الحزم ثرىً طيباً(أي تربةً طيبةً) ، ومن التوفيق مطراً صيّباً(أي غزيراً) ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ، ومن الصبر سقياً نافعاً ، وغرضٌ (أي هو غايةٌ وهدفٌ) لا يُصاب إلا بافتراش المدر (أي النوم على الأرض) ، واستناد الحَجَر ، وردّ الضجر (أي مجاهدة النفس على ترك الملل) ، وركوب الخطر (أي الأخطار) ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر (أي المراجعة والقراءة) ،وإعمال الفكر !! "(١).

* قال"يحي بن أبي كثير"رحمه الله : " لا يُستطاع العلم براحة الجسد!! "(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"الدلائل النورانية" للهزاع .

(٢) : رواه مسلم في صحيحه.

* حكى"ابن خلكان "قال : "وكان سبب توجه "الخطيب التبريزي" رحمه الله ، إلى العلم أنه حصلت له نسخةٌ من كتاب "تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري"، في عدة مجلدات لطاف ، فأراد"التبريزي" تحقيق ما فيها وأخْذَها عن عالمٍ باللغة ، فدلُّوه على"المعري"، فوضع كتبه في خُرجٍ (أي كيس) ، وحملها على كتفيه ورحل من "تبريز" (وتقع الآن في إيران) إلى "معرة النعمان" (وتقع بالعراق) .

وكان"التبريزي" فقيراً لا مال لديه ، ليستأجر دابةً يركبها أثناء رحلته لطلب العلم ، فأخذ يمشي على قدميه في شدة الحر ، فنفذ العرق وتسرَّب من ظهره إلى الكتب التي في الخُرج ، فأثَّرَ فيها وبللها !! حتى أنَّ مَن رآها يظن أنها قد غرقت في الماء !! ، وليس بها في الواقع سوى عَرَقُ الخطيب التبريزي !! "(١) .

* واستمع إلى"محمد بن طاهر المقدسي" رحمه الله وهو يقول: " لقد بُلتُ الدم في طلب الحديث مرتين : مرةً ببغداد !! ، ومرةً بمكة !! وذلك أني كنت أمشي حافياً في حرِّ الهواجر بهما !! (أي في مكة وبغداد) ، فلحقني ذلك (أي أثر علي وأمرضني حتى بلت الدم بدل البول في سبيل طلب العلم) ، وما ركبتُ دابةً قط في طلب الحديث إلا مرةً !! (أي أن أسفاره وتنقلاته بين البلدان لطلب الحديث كانت على قدميه لا على الدواب والمراكب) ، وكنتُ أحمل كتبي على ظهري !! "(٢) .

* قال"الذهبي":"ورحل الإمام"بقي بن مخلد الأندلسي" رحمه الله ، عام ٢٢١ هـ على قدميه من الأندلس (وهي الآن أسبانيا) إلى بغداد لأجل ملاقاة الإمام"أحمد بن حنبل" وطلب العلم على يديه .

قال"بقي":فلما قَرُبتُ من بغداد وصل إليَّ خبر محنة الإمام"أحمد"(أي فتنة القول بخلق القران) ، وعلمتُ أنَّ الإمام"أحمد" ممنوعٌ من الاجتماع بالناس وتدريسهم ، فاغتممتُ لذلك كثيراً

---

(١) : نقلاً عن كتاب"وفيات الأعيان" لابن خلكان (١/١٩٢) (بتصرف) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (٤/١٢٤٢) .

فلما وصلتُ بغداد وضعت متاعي في غرفةٍ ، ثم أتيت المسجد الجامع الكبير ،لأسمع العلم ، ... ، ثم خرجتُ أبحث عن منزل "أحمد بن حنبل" فدُللت عليه فطرقتُ الباب ، ففتح لي الباب الإمام "أحمد" نفسه ، فقلتُ : يا أبا عبد الله رجلٌ غريبُ الدار وطالب حديث، ومُقَيِّد سُنَّة !! ولم تكن رحلتي إلا إليك !! .

فقال لي: ادخل الأسطوان (وهو ممرٌ في داخل الدار) ولا يراكَ أحدٌ !! ، فدخلتُ ، فقال لي : مِن أين أنتَ ؟!! ، فقلت : مِن المغرب الأقصى !! ، فقال لي : إفريقية ؟!! (أي أأنت من أهل إفريقية ؟!) ، فقلت : أبعدُ من ذلك !! ، أقطع البحر من بلدي إلى إفريقية !! فقال لي :إنَّ موضعك لبعيد !! وما شيءٌ أحبُّ إليَّ من أنْ أقضي حاجتك وأُحدِّثكَ بما تريد، ولكني في هذا الوقت ممتحنٌ وممنوعٌ من التدريس والتعليم !! .

فقلت له: قد بلغني ذلك ، ولكن يا أبا عبد الله أنا رجلٌ مجهول العين عندكم ، غريب عن هذه البلدة ، فإنْ أذنتَ لي أن آتيك كل يوم في لباس الفقراء والشحاذين !! ، وأقف عند باب دارك !! وأسأل الصدقة والمساعدة !! فتخرج إليَّ يا أبا عبد الله وتُدخلني إلى هذا الممر !! وتُحدِّثني ولو بحديث واحد من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام !! ... فقال لي : قد قَبِلتُ !! ، بشرط ألا تظهر في حلقات العلم ولا عند أصحاب الحديث ، لئلا يعرفوا أنك طالب علم ، فقلت له : لَكَ شرطك !! .

قال"بقي" : فكنتُ كل يومٍ آخذ عُوداً !! وألفُّ على رأسي خِرقةً !! وأجعل ورقي ودواتي في كمِّ ثوبي !! ثم آتي منزل"الإمام أحمد" فأقف على الباب وأقول : الأجرَ رحمكم الله !! (أي تصدقوا على هذا المسكين الفقير طلباً لأجر الله) ، فكان "أحمد" يخرج إليَّ ويُدخلني في الممر ، ويُحدثني بالحديثين والثلاثة وأكثر ، حتى اجتمع لي قرابة ثلاث مئة حديث !! ، ثم إنَّ الله تعالى رفع الكربة عن الإمام"أحمد" ، ومات الخليفة الذي كان يدعو إلى البدعة ، وتولى الأمر مِن بعده

"المتوكل" الذي نصر السُنّة ، فانتشر ذكر الإمام"أحمد" وعــلا قـدره .
وكنتُ إذا أتيتُ الإمام "أحمد" بعد ذلك وهو في حلقتـه الكبيرة وحولـه طـلاب العلم ، فكان يُفسِحُ لي سكاناً ويُقربني منـه ، ويقـول لأصحاب الحديث الذين حوله: هذا يقع عليه اسم طالب العلم !! ثم يقصُّ عليهـم قصتـه معـي!! "[١] .

*ورحـم الله مَن قـال:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبهُ ... ويُعـرف عند الصبر فيما يُصيبهُ
ومن قلَّ فيما يتقيـه اصطبارهُ ... فقد قـلَّ فيمـا يرتجيه نصيبهُ .

* قـال"ابن المديني":"قيل" للشعبي"رحمه الله : مِن أين لكَ هـذا العلـم كلـه ؟! فقال : بنفي الاعتماد ، والسير في البلاد ، وصبرٍ (أي على المصاعب والمشاق) كصبر الحمار ، وبكورٍ كبكور الغـراب !!"[٢] .

*عن"إسحاق بن راهويه"رحمه الله ، قـال : " لمـا خـرج الإمـام"أحمـد" إلى"عبد الرزاق بن همّام الصنعاني"رحمهما الله ، ليطلب العلـم عليـه في "صنعـاء" ، نفـدت نفقته وانتهت ، فأكرى "أحمد" نفسـه مـن بعـض الجمّـالين (أي عمل أجيراً لديهم ليُحصّل بعض المال) ، إلى أن وصل "صنعاء ، وكان أصحاب"أحمـد" قـد عرضـوا عليـه المساعدة والمواساة ، فلم يقبل منهم شـيئاً .

وقال"أحمد بن سنان الواسطي" :بلغني أن "أحمد" رهـن نعلـه عنـد خبـاز !! علـى طعامٍ اشتراه منه عند خروجه مـن اليمـن !! "[٣] .

* حكـى"السمعاني"رحمه الله ، قال:"وسمعت بعض المشـايخ يقـول:كـان "محمـد بن طاهر المقدسي"يمشي في ليلةٍ واحدة (أي لأجل طلب العلم وتحصيله) قريبـاً مـن سبعةَ

---

(١) : نقلاً عن كتاب" سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢٩٢/١٣) (بتصرف) .
(٢) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (٨٤/١) .
(٣) : نقلاً عن كتاب"مناقب الإمام"أحمد" لابن الجوزي (بتصرف) .

عشر فرسخاً !! (والفرسخ يساوي تقريباً خمسة كيلو مترات، وعلى هذا فقد كان "المقدسي" يمشي في الليلة الواحدة قرابة خمسة وثمانين كيلو متراً لأجل طلب العلم!!) ، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً !! (أي قرابة مئة كيلو متر) "(١) .

* كان الحافظ "أبو العلاء الهمداني" رحمه الله ، يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً !! (أي قُرابة مئة وخمسين كيلو متراً لطلب العلم وتحصيله) ، وسافر إلى بغداد وأصبهان عدة مرات ماشياً على قدميه ، حاملاً كتبه على ظهره !! "(٢).

*واستمع إلى "محمد بن نصر المروزي" رحمه الله ،وهو يقول : "خرجتُ من مصر ومعي جاريةٌ لي ، فركبتُ البحر أُريد مكةَ (أيْ لطلب العلم) ، فغرقتْ السفينة ، فذهبت مني ألفا جزءٍ (أي من الأجزاء الحديثية) ، وصرتُ إلى جزيرةٍ أنا وجاريتي ، فما رأينا فيها أحداً ، وأخذني العطش فلم أقدر على الماء ، وأُجهِدتُ فوضعتُ رأسي على فخذ جاريتي مستسلماً للموت !! ، فإذا رجلٌ قد جاءني ومعه كُوزٌ (أي إناءٌ فيه ماءٌ) فقال لي : اشرب !! ... فأخذت الإناء فشربتُ ، ثم سقيتُ الجارية ، ثم مضى الرجل ، فما أدري من أين جاء ؟!! ولا أين ذهب ؟!! "(٣) .

* ورحم الله مَنْ قال:

مَنْ يصطبر للعلم يظفرْ بنيلهِ ... ومَنْ يخطب الحسناء يصبرْ على البذل

ومن لم يُذلّ النفس في طلب العُلا ... يسيراً يعشْ دهراً طويلاً أخا ذُلِّ.

---

(١) : نقلاً عن كتاب "لسان الميزان" للحافظ ابن حجر (٥/٢٠٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى(١/٣٢٦) . .

(٣) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٢/٦٥٢) .

٢٥ مجاهدة النفس وإكراهها على طلب العلم

النفس البشرية بطبيعتها تحب الراحة والكسل والدعة ، وتنفر من البذل والاجتهاد والعطاء ، فهي تأمر بكل سوءٍ وتنهى عن كل خيرٍ ، وهذه الحقيقة قررها لنا رب العزة والجلال ، بقوله: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾(١) .

وتأسيساً على ما تقدم ، اعلم رعاكَ الله ، أنك متى تركت لنفسك الزمام وأرخيت لها العنان ، وأعطيتها ما تشتهي، ، وأجبتها إلى كل ما تريد ، فإنها تقودك إلى كلّ شرٍ وبلاء ، وتُودي بك إلى التهلكة ، ومن هنا يتعين على المرء أن يُجاهد نفسه على طاعة الله تعالى ، ويُكرهها عليها ، ، ولو نفرت منها ، ويَزُمَّها بزمام الإيمان والتقوى ، ومن تلك الطاعات طلب العلم الشرعي وتحصيله ، فإنَّ النفس تنفر منه وتتثاقل عنه ، ولو أنَّ المرء لم يطلب العلم إلا إذا مالت نفسه إليه ، ورغبت فيه ، فربما لن يطلب العلم الشرعي أبداً طوال حياته ، أو على أحسن الأحوال سيطلب العلم لفترةٍ قصيرةٍ ثم يدعه ويُعرض عنه ، لكن بالمجاهدة وإكراه النفس على تحصيل العلم وإرغامها على طلبه ، تلين النفس وتنقاد لهذا العلم وتحبه وتُصبح عاشقةً له ، تتلذذ بسماع مسائله وقراءة كتبه ، ومناقشة تفاصيله ، فأين المجاهدون الصادقون ؟!! .

* وقد أمرنا الرب تبارك وتعالى بمجاهدة أنفسنا لله ، فقال تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾(٢) .

---

(١) : سورة يوسف الآية (٥٣) .

(٢) : سورة الحج الآية (٧٨) .

* ووعد الرب تعالى مَنْ جاهد نفسه وهواه لله بالمعونة والنصر والتأييد والهداية للطريق القويم، فقال عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١) .

* وأخبرنا الرسول ﷺ أن مجاهدة النفس وإكراهها على الطاعات ،من أعظم أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى :

* عن"فضالة بن عبيد"رضي الله عنه ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : "والمجاهد مَنْ جاهدَ نفسهُ في الله "(٢) .

* قال"عمر بن عبد العزيز" : "أحبُّ الأعمال إلى الله ما أُكرِهت عليه النفوس!! "(٣) .

* قال"عبد الله بن المبارك"رحمه الله :"إنَّ الصالحين قبلنا ، كانت تواتيهم أنفسهم على فعل الخير (أي تُعينهم وتُوافقهم) ، ونحن لا تُواتينا أنفسنا إلا أن نُكرهها !!"(٤)، فليتَ شعري لو أدرك ابن المبارك زماننا هذا ماذا سيقول ؟!! .

* وهذا"الفضل بن سعيد" رحمه الله يقول : " كان رجلٌ يطلب العلم ، فلم يقدر عليه (أي شقَّ عليه وتعسَّر) ، فعزم على تركه (أي ترك طلب العلم) ، فمرَّ ذات مرةٍ بماءٍ ينحدر من رأس جبلٍ على صخرة صماءَ صلبةٍ ، وقد أثَّر الماء فيها ، فقال لنفسه: الماء على لطافتهِ (أي على رقته وخفته) قد أثَّر في الصخرة الصماء على ثقلها وكثافتها!! ، والله لأواصلنَّ طلب العلم !! ولأجاهدنَّ النفس عليه !! فطلبَ العلم فأدرك ما أرادَ !! "(٥).

---

(١) : سورة العنكبوت الآية(٦٩) .

(٢) : رواه أحمد في"المسند"وابن حبان في"صحيحه"، وصححه"الألباني"في"الصحيحة"برقم (٥٤٩) .

(٣ ، ٤) : نقلاً عن كتاب"محاسبة النفس" لابن أبي الدنيا .

(٥) : نقلاً عن كتاب" إيقاظ الهمة" للسعيدان .

*واستمع إلى"محمد بن المنكدر" رحمه الله ، وهو يقول : " كابدتُ نفسي (أي جاهدتُها وأكرهتُها على الطاعات) أربعين سنةً !! حتى استقامت لي !! "(١).

* قال"الجنيد"رحمه الله : " ما طلب أحدٌ شيئاً بصدق وجدٍّ إلا ناله ، فإنْ لم ينله كله نالَ بعضه "(٢) .

واعلم أخي الحبيب : أن طلب العلم الشرعي هو من أشرف المعالي وأعلاها ، وحينئذٍ لا بدَّ أن يقف الشيطان الرجيم ، وشياطين الإنس والجان ، والنفس الأمَّارة بالسوء لك بالمرصاد ، ليصدوك عن هذا الطريق ، ويصرفوك عنه ، فإنْ استسلمت لهم وانقدت لوساوسهم ، فهذا هو عين الهلاك ، وإن جاهدتهم وصابرت ورابطت على طاعة مولاك والتفقه في دينه ، جاءك نصر الله تعالى ، وتنزَّل عليك تأييده ، وزالت عنك كل مشقة .

* واستمع إلى الإمام""ابن القيم" وهو يُجلِّي هذه الحقيقة فيقول:

"مَن طمحت همته إلى الأمور العالية ، فواجبٌ عليه أن يشدَّ على محبة الطرق الدينية ، وهي السعادة ، وإنْ كانت (أي الطرق الدينية) في ابتدائها ، لا تنفك عن ضربٍ من المشقة والكُره والتأذي ، ... .

وإنها متى أُكرهت النفس عليها ، وسِيقت طائعةً وكارهةً إليها ،وصبرت على لأوائها وشدتها، أفضت منها إلى رياضٍ مُونقة ، ومقاعد صدقٍ ، ومقامٍ كريم، وتجد كل لذةٍ دونها (أي سوى لذة الطاعة والعبادة والعلم) لعباً !! ، كلذة لعب الصبي بالعصفور ، بالنسبة إلى لذات الملوك ، .... ، فالمكارم منوطةٌ بالمكاره ، والسعادة لا يُعبر إليها إلا على جسرٍ من المشقة ،... ، وقد قيل: من طلب الراحة ترك الراحة "(٣).

---

(١) : نقلاً عن كتاب"صفة الصفوة" لابن الجوزي (٢/١٤١) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" الجامع لأخلاق الراوي" للبغدادي (٢/١٧٩) .

(٣) : نقلاً عن كتاب " مفتاح دار السعادة " لابن القيم (١/١٠٨) .

* وتأمل معي هذه القصة الجميلة التي تقرر لنا هذه الحقيقة :

"عن "أبي محمد البربري" : أنَّ"عمر بن عبد العزيز" استعمل التابعي الجليل"ميمون بن مهران" رحمه الله ، على منطقة "الجزيرة" ، وولاه قضاءها وخراجها ، فمكث "ميمون" حيناً في ولايته ، ثم كتب إلى"عمر" يطلب إعفاءه من منصبه ، بحجة أنه رجلٌ كبير السن ، قد رقَّ عظمه ، ولم يعُدْ قادراً على الولاية ، فكتب إليه "عمر" قائلاً :

اقضِ بين الناس بما استبان لك ، واجْبِ من الخراج الطيب، وإذا التبس عليك شيءٌ فارفعه إليَّ ، فإنَّ الناس لو كانوا إذا كَبُرَ عليهم أمرٌ (أي شق عليهم وعسَرَ عليهم فعله) تركوه ، ما قام لهم دينٌ ولا دنيا !! " (١).

وهكذا يكون الفقه في دين الله تعالى ، فالطاعات لا تُترك لما يُصيبها من الآفات مهما كان ، والمسلم يجب عليه معالجة المعايب ، والصبر على المصائب في أموره كلها ، والله المستعان على كل حال .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "البداية والنهاية " لابن كثير الدمشقي ، (٩/٣١٧٩) .

٢٦ التنويع في طريقة طلب العلم

النفس البشرية بطبيعتها تحب التجديد والتغيير ، وبناءً على ذلك نقول: إنَّ من الوسائل المساعدة على التحمس لطلب العلم الشرعي وتحصيله ، "تنويع أسلوب وطريقة طلب العلم" ، فإنَّ مِنْ الخطأ أن يقتصر الطالب على أُسلوب واحد في التحصيل والطلب ، لا يتعداه إلى غيره ، لأنَّ هذا الجمود على أُسلوبٍ واحدٍ فقط ، مدعاةٌ للملل والسآمة ونفور النفس عن الطلب والتحصيل ، والذي ينبغي هو توزيع وتقسيم الوقت على هذه الأساليب والطرق المختلفة ، بحيث كلما مللتَ من أُسلوب انتقلتَ إلى أُسلوب آخر .

وطرائق وأساليب طلب العلم الشرعي كثيرة ، ومن أبرزها :

١ ــ حضور الحلقات والمجالس العلمية العامة أو الخاصة .

٢ــ القراءة في كتب أهل العلم ومؤلفاتهم ومصنفاتهم .

٣ ــ الاستماع إلى أشرطة الدروس العلمية والتربوية، وتدوين المهم منها .

٤ ــ حفظ العلم وتكراره .

٥ ــ طلب العلم عن طريق الاتصال الهاتفي أو البريدي ، بأهل العلم لسؤالهم عمَّا يُشكل عليك من مسائل .

٦ ــ تحقيق مسائل علمية مُعينة ، وتحرير محل النزاع فيها ، ونقل كلام أهل العلم حولها.

٧ ــ مذاكرة العلم ومناقشته ، مع زميلٍ أو قرينٍ من طلاب العلم .

٨ ــ مراجعة المادة العلمية المحفوظة سابقاً .

٢٧ معرفة مدى انهماك السلف في طلب العلم

أخي : إنَّ " أولى ما صُرِفت فيه نفائس الأيام ، وأعلى ما خُصَّ بمزيد الاهتمام ، الاشتغال بالعلوم الشرعية المتلقاة عن خير البرية ، ولا يرتاب عاقلٌ في أنَّ مدارها على كتاب الله المقتَفَى ، وسُنَّة نبيه المصطَفَى عليه الصلاة والسلام ، وأنَّ باقي العلوم إمَّا آلاتٌ لفهمهما ، وهي الضالة المطلوبة ، أو أجنبيةٌ عنهما وهي الضارة المغلوبة "(١).

وقد عَقَل سلفنا الأبرار هذه الحقيقة ، فأقبلوا على طلب العلم الشرعي ، بجِدٍّ واجتهادٍ ، وانهمكوا في تحصيله ، رأنفقوا جُلَّ أوقاتهم في كتابته وحفظه وتصنيفه ، حتى صار العلم الشرعي هو لذتهم وجنتهم التي أنستهم كل لذائذ الدنيا الحسية ، فتعال نقتبس أخي الحبيب شيئاً من روائعهم الخالدة ، التي خلَّفوها لنا في هذا المجال :

* استمع إلى "ابن عقيل الحنبلي" وهو يُحدثنا عن انهماكه في القراءة والتحصيل العلمي ، فيقول : " إني لا يحلُّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري (أي في غير فائدة) ، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرةٍ (أي مذاكرة العلم وحفظه) ، ومناظرةٍ(أي مناقشة علمية) ، وبصري عن مطالعةٍ (أي قراءة في الكتب) ، أعمَلتُ فكري في حال راحتي وأنا منطرحٌ ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطِّره (أي أكتبه) !! ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين (أي في الثمانين من العمر) أشدَّ مما كنت أجدهُ وأنا ابن عشرين سنةً !! "(٢) .

---

(١) : من كلام"الحافظ"ابن حجر العسقلاني" في مقدمة كتابه"فتح الباري" .

(٢) : نقلاً عن كتاب"ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب(١/١٤٥) .

*وتـدبَّر معي في هذا الانكباب الشديد على تحصيـل العلـم :

* قـال"ابن عقيل الحنبلي": " وأقصِّر بغايـة جهـدي أوقـات أكلـي !! ،حتـى أختار سفَّ الكعك وتـحسِّيه بالماء ،على أكل الخبز !! ، لأجل مـا بينهمـا مـن تفاوت المضغ !! ؛ توفراً على مطالعةٍ ، أو تسطيرُ فـائدةٍ لم أُدركهـا فيـه !! "(١) .

* وبلـغ حرص الإمام" ابن سُكينة" رحمـه الله ، علـى اغتنـام وقتـه في طلـب العلم وتحصيله مبلغاً عجيبـاً :

* عن" يحي بن القاسم"قال : " كان"ابن سكينة" لا يُضيع من وقته شـيئاً، وكنـا إذا دخلنا عليه (أي وهو في مجلس العلم)يقول لنا : لا تزيدوا على"السلام عليكم" !! (أي ولا داعي لكثرة الكلام والثرثرة)،لكثرة حُرصه على المباحثة وتقرير الأحكام !!"(٢).

* وهـذا "المبرِّد" رحمه الله يقول : "ما رأيت أحرص علـى العلـم مـن ثلاثـة : الجاحظ والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسـحاق القـاضي !!

أما الجاحظ فإنه كان إذا وقع في يـده كتـابٌ قـرأه مـن أولـه إلى آخـره ، ... ، وكان يستأجر دكاكين الورَّاقين (وهم الذين ينسـخون الكتـب ويكتبونهـا ، ودكـاكينهم تشـبه المكتبات التجارية في وقتنا الحـاضر) ، ويبيـت فيهـا لقـراءة مـا فيهـا مـن الكتـب !!

وأما"الفتح" فكان يحمل الكتاب في كمِّه (أي جيب قميصـه) ، فـإذا قـام مـن مجلسـه ليبول أو ليُصلي أو ليقضي حاجةً من حوائجه ، أخرج الكتـاب فجعـل يقـرأ فيـه حتى يصل إلى الموضع الذي يريده ، ويصنع مثل ذلـك في رجوعـه.

وأما "إسماعيل بن إسحاق" فإني ما دخلت عليه قط ،إلا وفي يده كتـابٌ يقـرأ فيـه ، أو يُقلِّب الكتب بحثاً عن كتابٍ يقـرأ فيـه !! "(٣) .

---

(١) : نقلا عن نفس المصدر السابق (١/١٤٦) . (٢) : نقلاً عن كتاب"طبقات الشافعية" للسبكي (٥/١٣٧) . (٣) : نقلا عن كتاب"تقييد العلم" للخطيب البغدادي"(بتصرف).

* بـــل لقد كان سلفنا الأبرار ، يحرصون علـــى طلـــب العلـــم ، حتـــى وهـــم يمشون في الطرقـــات !! :

* كـــان الإمام" النووي" رحمه الله ، في أول طلبه للعلم ، يقـــرأ في كـــل يـــومٍ اثـــني عشر درساً على المشايخ شـــرحاً وتصحيحـــاً !! :

درسين في كتاب" الوسيط" ، وثالثاً في كتاب"المهـــذب"، ودرســـاً في"الجمـــع بـــين الصحيحين"، وخامساً في "صحيح مسلم" ، ودرساً في كتاب" اللُّمَـــع" لابـــن جـــني ، ودرساً في كتاب "إصلاح المنطق" في اللغة ، ودرســـاً في علـــم الصـــرف ، ودرســـاً في"أصول الفقه" ، ... ، ودرساً في"أسماء الرِّجـــال" ، ودرســـاً في أصـــول الديـــن (أي العقيدة) ، قال"النووي": وكنت أُعلّق جميع مـــا يتعلّـــق بهـــا مـــن شـــرح مُشـــكلٍ ، وإيضاح عبارةٍ،وضبط لغةٍ،وبارك الله لي في وقتي واشـــتغالي،وأعـــانني عليـــه ، ... .

وكان"النووي"لا يُضيع له وقتاً لا في ليلٍ ولا في نهارٍ ، إلا في الاشتغال بالعلم !! ، حتى إنه كان وهو يمشي في الطريق يُكرر ما حفظه من العلم ويُراجعه !! ، أو يُطـــالع كتابـــاً ويقرأ فيه ، وهو يمشي في الطريق !! ، ودام على هذه الحال ست سنين !! .

وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلةً واحدةً ، بعد صلاة العشاء الآخرة !! ، وكـــان يشرب شربةً واحدةً عنـــد السَـــحَر !! (وهذا كله لأجل انشغاله بطلب العلم وتحصيله) "(١).

* كـــان "أبو بكر الخياط "النحوي رحمـــه الله ، يقـــرأ في جميـــع أوقاتـــه ، حتـــى في الطريق !! ، وكان ربما سقط في جرفٍ (أي حفرة) أو اصطـــدم بدابـــة في الطريـــق (أي لشدة انهماكه في القـــراءة) !! "(٢).

*بـــل كان بعضهم من حرصه علىاغتنام الأوقات ،لا يدع طاب العلم حتى في الخلاء:

* قـــال"ابن رجب الحنبلي": " وكان"مجد الدين بن تيمية" رحمه الله ، إذا دخل الخلاء

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٤٧٢/٤) (بتصرف) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" الحث على طلب العلم" للعسكري .

لقضاء الحاجة ، يقول لبعض من حوله : اقرأ في هذا الكتاب !! وارفع صوتك !! (أي حتى أسمعك وأنا في الخلاء !!) .

قال"ابن رجب": يُشير بذلك إلى قوة حرصه على العلم وحصوله وحفظه لأوقاته"(١).

* بل لقد كان طلب العلم الشرعي ، مُلازماً للصالحين والأبرار ، حتى وهم جلوسٌ في الولائم ، ومن ذلك ما حكاه "أبو هلال العسكري" بقوله:

" وحُكِيَ عن "ثعلب" (وهو أحمد بن يحيى الشيباني" ، يُلقب بـ"ثعلب" ، وهو أحد أئمة النحو والقراءات المشهورين) رحمه الله ، أنه كان لا يُفارقه كتابٌ يدرسه !! ، فإذا دعاه رجل إلى دعوة (أي وليمة) ، شرط عليه"ثعلب" أن يُوسّع له في المجلس مقدار "مسورة" (وهي المتكأة من الجلد) ، ليضع عليها كتابه ويقرأ !! "(٢) .

* وبلغ الحرص ببعض السلف أنه كان يطلب العلم وهو على طعامه :

* قال"إبراهيم بن عيسى المرادي": " لم أرَ أكثر اجتهاداً في طلب العلم من الحافظ" عبد العظيم المنذري"رحمه الله ، لقد جاورتهُ في المدرسة بالقاهرة (أي أن سكنهما كان في نفس المدرسة) ، ثنتي عشرة سنةً ، وبيتي فوق بيته ، فلم أستيقظ في ليلةٍ من الليالي في ساعةٍ من ساعات الليل ، إلا وجدتُ ضوء السراج في بيته ، وهو منشغلٌ بالعلم والتصنيف !! ، حتى أنّه كان في حال الأكل والشرب تكون الكتب عنده !! يشتغل فيها !! "(٣) .

* قال"إسحاق بن إبراهيم" رحمه الله : "كان الحافظ "المنذري" لا يخرج من المدرسة (أي التي يُدرّس فيها ويسكن فيها) لا لعزاءٍ، ولا لهناءٍ (أي مناسبة فرحٍ كزواجٍ أو عقيقة) ، ولا لفُرجةٍ (أي تنزهٍ بين الأشجار) ، ولا لغير ذلك ، ... ،بل يستفرق كل الأوقات في العلم !! "(٤) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب" ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب "(١/١٤٥) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" الحث على طلب العلم"لأبي هلال العسكري .

(٣ ، ٤) : نقلاً عن كتاب "بستان العارفين" للنووي .

* حكـى "أحمد بن سلمة" رفيق الإمام "مسلم" رحمه الله ، صاحب الصحيح، فقـال: "عُقِدَ للإمام "مسلم" مجلسٌ لمذاكرة الحديث النبوي ، فذُكِرَ له حديثٌ فلـم يعرفـه ، فانصرف إلى منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلنَّ أحدٌ منكم هـذا البيت !! (أي لا يدخل عليَّ أحد هذه الغرفة) .

فقيل له: قد أُهديت لنا سلةٌ فيها تمر ، فقال: هاتوها ، فـأعطوه إياهـا .

فكان يبحث عن ذلك الحديث في كتبـه ، ويأخذ تمـرةً تمـرةً يمضغهـا ، حتـى طلع عليه الصبح !! وقد فَنِيَ التمر !! ووجـد الحديـث !!(أي أنـه لشـدة انهماكـه في البحث والتنقيب عن الحديث لم يشعر بما أكله من التمر !! لدرجة أنه أكـل سـلة تمـر كاملـة !!) .

قال الحاكم : زادني الثقة من أصحابنا :أنَّ الإمام "مسلم" منهـا مـرضَ (أي مـرض مـن ذلك التمر الكثير) ومات بعد ذلـك !! "(١) .

وبعدُ : فهذه حال الصالحين ، وتلك أخبار أهـل العلـم الصـادقين ، فيـا ضعيـف العزم : لقد سار القوم وأنت نـائم !! ووصلـوا وأنـت هـائم !! أمـا لـك همـةٌ كأرباب العزائـم ؟!!

وقـبل أن أختم هذه الطريقة ، لابدَّ من بيان نقطة هامة ، وهي أنه ليـس مقصودنا من إيراد هذه النماذج المشرقة ، والصور المتألقة ، لانهماك سلفنا الأبـرار في طلب العلم ، وقضائهم الأوقات في تحصيله ، أن يعكف المرء طوال وقته على طلـب العلم الشرعي ، ويُغفل بقية الجوانب الأخرى المهمة في تكوين الشخصية الإسـلامية : كالعبادة وكثرة النوافل وتربية النفس والدعوة إلى الله تعالى .

كلا وحاشا !! وإنما مقصودنا من ذكر هذه النماذج ، هو التحفيز والتحميس لطلـب العلم ، والحث على اغتنام الأوقات في تحصيله ، مع مراعاة التوازن والوسطية ،حتى لا يقع الغبن بين الشركاء ، ويقصِّر المرء في بقية الجوانب الأخرى المهمة .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط " لابن الصلاح رحمه الله .

٢٨ استشعار لذة طلب العلم الشرعي

أخي : إن مما يُعينك على التحمس لطلب العلم الشرعي وتحصيله ، أن تستشعر حال طلبك للعلم لذة طلب العلم ، وحلاوة التفقه في الدين ، لأنَّ مَن تلذذ بشيء وذاق حلاوته ، حرص عليه ورغب فيه ، وداوم عليه ، وبذل في سبيل تحصيله الغالي والرخيص .

واستشعار لذة الطلب ، وحلاوة التحصيل العلمي الشرعي ، يكون عن طريق استحضار مجموعة من المشاعر والأفكار والخواطر ، حال طلبك للعلم ، ومن أبرز تلك الأفكار والمشاعر ما يلي :

١ ـ استحضار الثواب العظيم والأجر الجزيل ، الذي أعده الله تعالى في الآخرة ، لأهل العلم وطلابه ، وقد تقدم الكلام عن هذا الموضوع ، في الطريقة رقم (٩) من هذا الكتاب ، فإنَّ مَنْ تلمَّح فجر الأجر والثواب ، هانت عليه مشقة البذل والتضحية .

٢ ـ استحضار أن هذا العلم الشرعي ، الذي تطلبه سينفعك ويصل ثوابه إليك ، وستغتبط به وأنتَ في قبرك وحيداً فريداً ، قد تركك الأحباب والخلان ، وأسلموكَ لتراب الأرض ودود المقابر ، وقد انقطعتْ عن أهل الأموال والجاه ، أموالهم ومناصبهم وحشمهم وخدمهم ، ومَنْ علم أنَّ البضائع ستنقطع عن السوق قريباً ، بادر بشرائها واستكثرَ منها .

٣ ـ استشعار أن هذا العلم الشرعي ، الذي تطلبه وتتعلمه ، هو ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فما أعظمها من غنيمة حين تعكف على

ميراث أفضل الخلق عند الله تعالى ، وهم الأنبياء ، وإنما يعظم الميراث ويعلو قدره ، بقدر علو المورّث وأهميته

٤ ـ استشعار لذة رفع الجهل عن نفسك ، وتوسيع معلوماتك ، فإنّ النفس بطبعها تحب العلم والمعرفة ، وتنفر من الجهل ، وستجد بسطاً لهذا الموضوع في الطريقة رقم(٣٢) من هذا الكتاب ، فراجعه في موضعه ، فإنه مهم ،

٥ ـ استشعار شرف العلم الشرعي ، وأهميته لنفسك وللناس ، وقد تقدم بيان ذلك في الطريقة رقم (٦) ، وذلك لأنّ التلذذ بالشيء إنما يكون على قدر شرف ذلك الشيء وأهميته ، وما يتلذذ بالشيء الخسيس إلاّ خسيس مثله. وإنّ العلم الشرعي فيه عزُّ الدنيا وشرُفُ الآخرة .

فإن قلت لي : فهلا شوّقتني للذة الطلب وحلاوة التحصيل ، بذكر شيءٍ من أخبار سلفنا الكرام في هذا المجال ؟!
فأقول لك : اقرأ معي الطريقة التالية ، وستجد فيها مبتغاك ، والله يكلأك ويرعاك .

٢٩ معرفة كيف كان السلف يتلذذون بطلب العلم

ليست اللذة والسعادة الحقيقية ، هي في الأكل والنوم والشرب والجماع ، فإنَّ هذه الشهوات واللذات هي لذات جسدية ، تشاركك فيها البهائم العجماوات ، إنما اللذة الحقيقية ، هي لذة الطاعة والعبادة ، هي لذة الروح والقلب ، هي لذة طلب العلم الشرعي ، ومتعة تحصيله ، فإن هذه اللذة ينفرد بها المؤمن عن سائر المخلوقات الأخرى .

وقد أدرك سلفنا الكرام ، هذه المعاني السامية ، فكانوا يتلذذون بطلب العلم الشرعي ، ويتمتعون بالتنقل بين صفحات الكتب ، ويتنعمون بمقاساة الشدائد في سبيل تحصيله ، بل كانت لذة أحدهم وسعادته بحفظ حديث نبوي أو حلّ مسألة علمية عويصة ، أو السهر لكتابة بحث علمي شرعي ، أو تأليف كتاب ينفع الأمة ، أشدّ من لذة أهل اللهو والفسق بلهوهم وفسقهم !! ، وأعظمَ من متعة أهل الدنيا بدنياهم وزوجاتهم وأموالهم ، وإليك التفاصيل :

* قال"ابن القيم":" ومَنْ لم يُغلّب لذة إدراكه العلم وشهوته ، على لذة جسمه وشهوة نفسه ، لم ينل درجة العلم أبداً !! ، فإذا صارت شهوته في العلم ، ولذتُهُ في كل إدراكه ، رُجيَ له أن يكون من جملة أهله !! "[1] .

* وهذا"ابن الجوزي"يحكي لنا تجربته في هذا المجال فيقول: "ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ، ألقى من الشدائد ما هو أحلى عندي من العسل !! ، لأجل ما أطلب وأرجو ، فكنت في زمان الصبا ، آخذ معي أرغفةً يابسةً ،

(١) : نقلا عن كتاب"مفتاح دار السعادة"لابن القيم (١/١٤٢) .

وأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى (وهو نهر ببغداد) ، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء !! فكلما أكلت لقمةً شربتُ عليها (أي شربة من الماء لتسهيل البلع) !! ، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرفت بكثرة سماعي لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأحواله وآدابه ، وأحوال الصحابة وتابعيهم "(١) .

* قيل"لابن عباس" رضي الله عنهما : " كم تكتب هذا العلم ؟!! (أي ألا تملُّ وتفتر عن طلب العلم وقراءته) ، فقال : إذا نَشِطتُ (أي قويت همتي) فهو لذتي ، وإذا اغتممت فهو سلوتي (أي مؤنسي الذي يطرد الحزن عني) !! "(٢).

* بات "أبو جعفر محمد بن أحمد النسفي"رحمه الله ، ذاتَ ليلةٍ من الليالي ، وهو قلقٌ مهمومٌ حزينٌ ، لما به من الفقر والحاجة ، ولما ركبهُ من الدَين ،فبينا هو على حاله تلك ، إذ مرّت بذهنه مسألةٌ من مسائل العلم التي أشكلت عليه ، ففكر في حلّها !! (رغم ما به من الفقر والحاجة) ، ففتحها الله تعالى عليه ، وعرفَ حلَّها !!

فقام في ظلام الليل ، يتمايل ويهتز فرحاً في غرفته !! وهو يقول:
أين الملوك ؟!! ... أين الملوك؟!! ... فسألته امرأته عن الخبر ، فأخبرها بما حصل له من فهم المسألة ، فتعجَّبتْ منه !! (لأنها ظنت أنه تمايل واهتزَّ لأنه قد وجد حلاً نفقره وضنكه والدَّين الذي عليه) "(٣) .

* قال"ابن القيم":" وأما سعادة العلم ، فلا يُورثك إياها ، إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية ،... ، ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة (أي

---

(١) : نقلاً عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلا عن كتاب"تاريخ حلب" لابن العديم .

(٣) : نقلا عن كتاب"البداية والنهاية "لابن كثير (١٢/١٧) (بتصرف) .

لذة طلب العلم) ، لتجالدوا عليها بالسيوف ، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره ، وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهل ، ليختص الله بها من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم "(١).

* ألّف الإمام"أبو عبيد القاسم بن سلام" رحمه الله ، كتابه "غريب الحديث " في أربعين سنةً !! فكان يصف مرحلة التأليف فيقول : " وربما كنتُ أستفيد الفائدة من أفواه الرجال (أي العلماء) ، فأضعُها في موضعها من الكتاب(أي كتاب"غريب الحديث") !! ، فأبيتُ ساهراً تلك الليلة !! (أي لا يأتيني نوم تلك الليلة) فرحاً مني بتلك الفائدة !! "(٢) .

* ورحم الله الشاعر الذي قال واصفاً لذة العلم :

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وصل غانيةٍ وطيب عناقِ

* وهذا "ابن الجوزي" يقول:" ولقد تأملت نفسي ، بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقتُ زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتني لم يفتني مما نالوهُ (أي من اللذات) ، إلا ما لو حصل لي ندمتُ على حصوله !! (يقصد بذلك أن أقرانه وعشيرته لم يتميزوا عليه إلا باللذات المحرمة التي لو كان قد اقترفها لندم عليها وتحسر على الوقوع فيها ، أما اللذات المباحة التي نالوها فقد نالها هو أيضا)

ثم تأملت حالي ، فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلته من معرفة العلم لا يُقوَّمُ !!(اي لا يعدله شيءٌ من متاع الدنيا وزخارفها) .

فقال لي"إبليس" : ونسيتَ تعبك وسهرك ؟!! ... فقلت له : أيها الجاهل تقطيع الأيدي لا وقعَ له (اي لا تاثير له يُذكَر) عند رؤية "يوسف" !! (يقصد بذلك أن رؤية"يوسف" عليه السلام ،

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٦٧) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى (١/٢٦١) .

ومنظره الجميل ، قد أنست النسوة ـ اللاتي دعتهنَّ امرأة العزيز ـ ألم قطع السكاكين لأيديهنَّ ، وكذلك لذة العلم ينسى المرء معها كل تعب ومشقة !!) ، وما طالت طريق أدت إلى صديق "(١) .

* حكى "أبو المعالي الجويني" رحمه الله قال : " أنا لا أنام ولا آكل عادةً !! (أي ليس هناك في برنامجه اليومي وقت معين مخصص للأكل والنوم) ، وإنما أنام إذا غلبني النوم ليلاً كان أو نهاراً !! ، وآكل الطعام إذا اشتهيتُ الطعام أيَّ وقت كان !! ، وكانت لذته ولهوه ونزهته في مذاكرة العلم !! ، وتحصيل الفائدة "(٢) .

*قال "النضر بن شميل": "لا يجدُ الرجل لذة العلم حتى يجوع وينسى جوعه !!"(٣)

* قال "ابن الجوزي": " مَنْ أنفقَ عصر الشباب في طلب العلم ، فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جَنْيَ ما غرس ، ويلتذ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم !! ، هذا مع وجود لذاته في الطلب ، الذي كان تأمَّل به إدراك المطلوب ، وربما كانت تلك الأعمال أطيبَ مما نِيلَ منها "(٤) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تبيين كذب المفتري" لابن عساكر الدمشقي .

(٣) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣١٤/١) .

(٤) : نقلاً عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

٣٠ الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة

حبُّ الدنيا والتعلق بها، والإعراض والغفلة عن الدار الآخرة، من أعظم العوائق التي تصرف المرء عن طلب العلم ، وتحول بينه وبين التبحُّر والرسوخ فيه ، وتتضح خطورة التعلق بالدنيا والحرص عليها ، في قتل الهمة والحماسة لطلب العلم الشرعي في الآتي :

* إذا أحبَّ العالم أو طالب العلم الدنيا وتعلَّق بها ، فلا بدَّ أن يقول على الله تعالى غير الحق في فتواه وحكمه !! ، وحينئذٍ يُعاقبهُ الله بقسوة القلب ، و بأنْ يحرمه بركة العلم وبهاءه ، ويحرمه الفهم والفقه في دينه جلَّ وعلا .

* واستمع إلى الإمام "ابن القيم" وهو يقرر هذه الحقيقة بقوله :
"إنَّ كل مَنْ آثر الدنيا من أهل العلم واستحبَّها ، فلا بدَّ أن يقول على الله تعالى غير الحق في فتواه وحكمه ، لأنَّ أحكام الرب سبحانه وتعالى كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتَّبعون الشهوات ، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً (أي ردُّه وعدم الانقياد له) ، وفي هؤلاء وأشباههم ، قال الله تعالى :
﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾[1]
،...، فهؤلاء لا بدَّ أن يبتدعوا في الدين ، مع الفجور في العمل ، فيجتمع لهم الأمران ، فإنَّ اتباع الهوى يُعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة ،أو ينكُسُهُ فيرى البدعة سنةً !! والسنة بدعةً !! ، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا

---

(١) : سورة الأعراف الآية (١٦٩) .

واتبعوا الرياسات والشهوات "(١) .

* قال "مالك بن دينار" رحمه الله : قلتُ "للحسن البصري": ما عقوبة العالم إذا أحبَّ الدنيا ؟!! فقال : موت القلب !!! ، فإذا أحبَّ الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمُهُ !! (أي مجرَّد شكل ومظهر خارجي) "(٢) .

* وهذا "يحي بن معاذ الرازي" رحمه الله يقول : "لو أنَّ رجلاً في علم "ابن عباس"، وهو راغبٌ في الدنيا ، لنهيتُ الناس عن مجالسته !! ، فإنه لا ينصحكَ مَن خانَ نفسه !! " (٣)، وصدق رحمه الله فإنَّ مَن لم ينتفع بعلمه في خاصة نفسه ، فلن ينتفع الناس بعلمه ، لأنَّ فاقد الشيء لا يعطيه لغيره.

* قال "الفضيل بن عياض" رحمه الله :"إني لأرحم ثلاثةً :عزيزَ قومٍ قد ذلَّ ، وغنيَّ قومٍ قد افتقرَ ، وعالماً تلعبُ به الدنيا !! " .

* قال "ابن القيم" : "وهؤلاء (أي أهل العلم الذين أحبوا الدنيا وتعلَّقوا بها) هم نصيبٌ من قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَعلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُم غَافِلُونَ ﴾ (٤) .

"غافلون" لما لحق بقلوبهم من حب الدنيا وزينتها وزخرفها والعلو فيها ، وما تبعَ ذلك من قسوة القلب التي أدَّت إلى تحريف الكلام عن مواضعه ، وتزييفه عن معانيه ومقاصده ، ولو أنَّ هؤلاء يعلمون أنَّ الدار الآخرة خيرٌ من الدنيا لما

---

(١) : نقلا عن كتاب "الفوائد" لابن القيم .

(٢) : نقلا عن كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير (٩/٢٦٨) ..

(٣) : نقلا عن كتاب "الغربة" لابن رجب الحنبلي .

(٤) : سورة الروم الآية (٧) .

حملهم حب الرياسة والشهوة على أن يُؤثروا الدنيا على الآخرة ، ولتمسّكوا بالكتاب والسنة ، واستعانوا بالصبر والصلاة ، وتفكّروا في الدنيا وما تصير إليه، والآخرة وما يصيرون إليه،ونصحوا أنفسهم ،...، ولما خرجوا عن التقوى ، ولهداهم الله عزّ وجلّ لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه" (١) .

* قال"عيسى بن مريم " عليه السلام : "يا معشر القُرّاء والعلماء : كيف تضِلُّونَ بعد علمكم ؟!! ،أو تَعمَوْنَ بعد بصركم ؟!! من أجل دنيا دنيّة ، وشهوة رديّة ، فلكم الويل منها !! (أي من الدنيا) ، ولها الويل منكم !! " (٢) .

* قال بعض السلف :"العالم طبيب الدين ، والدرهم داء الدين ، فإنْ اجترّ (أي سحب وحمل) الطبيب الداء إليه ، فمتى يُداوي غيره ؟!! " (٣) .

وإذا تعلّق القلب بالدنيا وأحبّها ، واشتغل فيها ببناء الدور والقصور ، وتكثير الأموال والمراكب والخدم ، ترحّل العلم من قلبه ، وذلك أنّ هذا العلم الشرعي شيءٌ نفيسٌ وعزيزٌ وغالٍ ، فلا بدّ لتحصيله من تفريغ القلب له والتعلق التام به ، فإنْ زاحمته في القلب زخارف الدنيا الزائلة ومتاعها الفاني ، ترحّل العلم عن القلب ؛ فإنّ الكرام لا يرضون المقام مع اللئام !! ، فأيُّ مكانٍ بقي لطلب العلم الشرعي في قلبٍ معلّقٍ بحب الدنيا والمناصب والرياسات ؟! .

* وهذا الإمام"ابن القيم"يقرر ذلك المعنى ، فيقول : " العلم صناعة القلب وشغله ، فما لم تتفرغ (أي بقلبك) لصناعته وشغله لم تنلها ، وله (أي للقلب) وِجهةٌ واحدةٌ فإذا وُجّهت إلى اللذات والشهوات انصرفتْ عن العلم (أي أعرضت عنه) ، ومن لم يُغلّب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبداً .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الفوائد" لابن القيم .

(٢) : نقلاً عن كتاب"العلم"لجاسم المهلهل .

(٣) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/٢٠٤) .

فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في كلّ إدراكه ، رُجِيَ له أن يكون من جملة أهله!!"(١) .

* واستمع إلى "يحي بن معاذ الرازي" وهو يُخاطب بعض العلماء الذين ألهتهم الدنيا عن الآخرة ، فيقول لهم : " يا أصحاب العلم : **قصوركم قيصرية !!**(أي كقصور قيصر ملك الروم) ، **وبيوتكم كسرويةٌ !!** (أي كبيوت كسرى ملك الفرس) ، **وأثوابكم ظاهريةٌ !!، وأخفافكم جالوتيةٌ!!** ، **ومراكبكم قارونيةٌ!!** ، **وآنيتكم فرعونيةٌ !!، ومآتمكم جاهليةٌ !!، ومذاهبكم شيطانيةٌ !!، فأين الشريعة المحمدية ؟!!** "(٢) .

* قال بعض السلف : "**العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك !!** " .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة"لابن القيم (١/١٤٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"العلم" لجاسم المهلهل .

٣١ معرفة كيف باع السلف دورهم وممتلكاتهم لأجل العلم

هناك حقيقةٌ مهمةٌ غفلنا عنها كثيراً، ألا وهي أنّ هذه الدور والمنازل التي نسكنها، وتلك الفلل والقصور التي نُعمِّرها ، ليست هي دورنا ومنازلنا الحقيقية، بل هي كما قال الشاعر عنها فأجاد:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها .... ودُورنا لخراب الدهر نبنيها

وإنما دُورنا ومنازلنا الحقيقية هي حين ننزل في ظلمات اللحود في أول ليلةٍ في القبر،فإما أنْ يكون القبر روضةً من الجنان أو حفرةٍ من حُفَرِ النيران !! ثم بعد تلك الدار تأتي الدار الأبدية : إما قصور الجنان مع الحور الحسان ، وإما حُفَرُ ودركات النيران ، ولما أدرك سلفنا الكرام هذه الحقيقة ضحّوا بدورهم ومساكنهم الزائلة ، في سبيل تحصيل العلم الشرعي، طمعاً في أن يُبدلَهم الله تعالى بها قصوراً في روضات الجنان ، فنِعمتْ الصفقة تلك !! وربحَ البيع ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾(١) . ، فتعالوا بنا في رحلة مع"تجار الآخرة":

*قال"طلحة بن مظفر":" بيعت كتب"ابن الجواليقي" رحمه الله ، في بغداد، فحضرها الحافظ"أبو العلاء الهمداني"رحمه، فنادوا على قطعةٍ منها(اي على جزءٍ من الكتب) بستين ديناراً،فاشتراها"أبو العلاء الهمداني"،والإنظارُ من يوم الخميس إلي يوم الخميس(أي مدة إحضار الثمن أسبوعٌ كاملٌ) ، فسافر"أبو العلاء" من بغداد إلى بلده"همدان" فلما وصلها نادى على داره وْعرضها للبيع !! ، فبلغتْ ستين ديناراً، فقال : بيعوا !! ، فقالوا : إنها تساوي أكثر من ذلك ، فقال : بيعوا ،

---

(١) : سورة التوبة الآية (١١١) .

فباعوا الدار بستين دينارا، فقبضها "أبو العلاء" ثم رجع إلى"بغداد"فدخلها يوم الخميس فوفَّى الثمن، ولم يشعر أحدٌ بحاله إلا بعد مدةٍ !! "[١] .

*قال"ابن القاسم"رحمه الله : " أفضى طلب العلم بالإمام"مالك" ، إلى أن نقضَ سقف بيته فباعَ خَشَبَهُ !! ثم مالت عليه الدنيا بعدُ !! (أي وسَّع الله عليه ورزقهُ منها) "... .

وقال"مالك": لا يُنالُ هذا الأمر (أي العلم) حتى يُذاقَ فيه طعم الفقر"[٢] .

*وهذا"شعبة بن الحجاج" يقول : " بعتُ طستَ أمي بسبعة دنانيرٍ !! (أي أنه باع الطست الذي ورثه عن أمه لأجل أن يستعين بقيمته على طلب العلم وتحصيله) "[٣] .

* ذكر"الذهبي" في ترجمة الإمام المحدث "صالح بن أحمد " قال :

"ولما أملى الحافظ "صالح بن أحمد" رحمه الله بهمدان ،كانت له أرضٌ فباعها بسبعمائة دينارٍ !! ونثرَها على محابر أصحاب الحديث !! "[٤] .

* قال"الإمام" أحمد" : أقام"شعبة" على"الحكم بن عتبة" رحمهما الله ، ثمانية عشر شهراً ، حتى باعَ جذوعَ بيته !! (أي الخشب الذي في السقف والأركان لأجل طلب العلم) "[٥] .

*حكى الحافظ"ابن حجر العسقلاني" قال :" وباع"زياد بن عبد الله البكائي" رحمه الله دارهُ !! ، وخرج مع"ابن إسحاق" يدور على العلماء والحِلَق حتى سمع منه كتاب "المغازي"!! "[٦] .

* نقل"ابن رجب الحنبلي" في ترجمة العبد الصالح "أبي محمد عبد الله بن أحمد الخشّاب"

---

(١) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢١/٤٠) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"ترتيب المدارك" للقاضي"عياض" (١/١٣٠) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/١٩٥) .

(٤) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٤/١٢٤٩) .

(٥) : نقلاً عن كتاب" العلل ومعرفة الرجال" للإمام"أحمد" .

(٦) : نقلاً عن كتاب" تهذيب التهذيب" لابن حجر (٣/٣٧٥) (بتصرف) .

البغدادي" رحمه الله : " وذُكِرَ أنه اشـــترى يومــاً كتبــاً بخمســمائة دينــارٍ !! ، ولم يكن عنده شيءٌ من المال ليدفعه للبائع ، فاستمهلهم ثلاثة أيـام حتـى يـأتي بـالثمن ، ثم مضى من فوره ونـادى على داره وعرضهـا للبيـع !! ، فبلغـت خمسـمائة دينارٍ ، فـقـصد صاحـب الكتـب وباعـه الـدار بخمسـمائة دينـارٍ ، ووفّاه منها ثمن الكتـب !! "(١) .

* ألَّفَ الشيخ" أبو القاسم خلف الأندلسي المـالكي" رحمـه الله ، كتابـاً في شـرح "المدونـة " (وهي من كتب علم أصـول الفقـه المشـهورة)،... ، فـدخـلتْ نسخـةٌ من الكتـاب إلى أرض"صقليه" ، فوقـعـت في يد فقيـه"صقليه"عبد الحـق بن محمد بن هارون السهمي" رحمـه الله ، فقرأهـا فـأُعجِبَ بهـا واستحسـنها وأراد شراءها ولكنه لم يكن حينذاك يملـك ثمنهـا ، فرجـع إلى داره وأخـذ بعض المتاع والأثاث من داره فباعه في السـوق !! ، واشـترى بقيمتـه تلـك النسـخة ، فغلا الكتاب عند ذلك !! ، وتنافسَ النـاس عليـه !! "(٢) .

فيا أيها الحبيب ... ويا أيتها الغالية :

هذه حال سلفنا الأبرار ، وتلك أخبار طلاب العلـم الأخيـار ، أفمـا تشـتاق أن تكون مثلهم ؟!!.. أوَ ما تحنُّ إلى مثـل صنيعهـم ؟!!... أوَ مـا تتـوقُ نفسـكُ إلى التضحية والبذل ، في سبيل طالب العلم الشرعي ، كمـا بذلـوا وضحّـوا ؟!!...

إذن فهيا سارعْ إلى الخيرات ، وسابقْ إلى الباقيـات الصالحـات ، وسطّرْ بعزمـك وهمتك الصفحات المضيئات ، وأشعلْ لنا باجتهـادك في تحصيـل العلـم المصـابيح النيِّـرات ، فقد هتفت بكَ المعالي ، فهلا أجبـتَ نداءهـا !!.

---

(١) : نقلاً عن كتاب"ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب (٣١٩/١) (بتصرف) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"الديباج المذهب"لابن فرحون المالكي (٣ / ١٠١٣) .

٣٢ التأمل في قبح الجهل ومرارته

أخي : إنه لا ظلمةَ أبشع وأفظع من ظلمة الجهل وعدم التعلم ، وحسبك دليلاً على قُبح الجهل ومرارته ، أنَّ كل أحدٍ لا يرضى بأن يُوصف بأنَّه جاهلٌ ، ولو كان في قرارة نفسه يعترف بجهله وعدم علمه !! وعلى الضدّ من ذلك ، فإنَّ المرء يسعد ويفرح إذا وُصِف بالعلم ، ولو كان في قرارة نفسه يعلم أنه جاهلٌ غير عالم !! ، فتعال معي رعاك الله ، لنتأمل في قبح الجهل وعاقبته المريرة في الدنيا والآخرة :

* قال الله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنها ﴾(١) ، وأعظم الظلمات ظلمة الجهل والغفلة، فهل يستوي العالم والجاهل؟!! .

*وتوعَّد الرب تعالى ، منْ أعرض عن العلم الواجب عليه تعلُّمه ، بوعيد شديد ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٢) .

* قال"ابن القيم" معلقاً على هذه الآية:" إنَّ مَنْ نسيَ ربَّهُ (اي اعرض عن دينه وترك تعلم شرعه وأوامره وأحكامه الواجب عليه تعلمها) ، أنساهُ الله ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده ، فصارَ مُعَطَّلاً مُهمَلاً بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبرَ بمصالحها

---

(١) : سورة الأنعام الآية (١٢٢) .
(٢) : سورة الحشر الآية (١٩) .

لبقاء هُداها الذي أعطاه إياه خالقها ، وأما هذا فخرج عن فطرته التي خُلِقَ عليها،... ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾(١) ، فغفَل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفاتَ له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مُضَيَّعهُ ، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلاً !! "(٢) .

*جعل الرب تبارك وتعالى الجهّال بمنزلة العُميان الذين لا يُبصرون ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(٣) .

*وأخبرنا الرب تبارك وتعالى، أن الجهّال الذين يُعرِضُون عن تعلُّم العلم الواجب عليهم معرفته ، هم شرُ الدواب عنده جلَّ وعلا، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٤) .

*وقال جلَّ في علاه : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٥) .

* والجاهل ميت القلب بليد الإحساس ضعيف الإيمان ، فهو ميتٌ قبل أن يموت، وجسمه مقبرةٌ له قبل أن ينتقل إلى قبور التراب، وما أجمل قول الشاعر مبيناً هذا المعنى:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشةٍ من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ

*وقال الشاعر الآخر مُصوراً هذه الحقيقة :

---

(١) : سورة الكهف الآية (٢٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٣٥) .

(٣) : سورة الرعد الآية (١٩) .

(٤) : سورة الأنفال الآية (٢٢).

(٥) : سورة الفرقان الآية (٤٤) .

العلم يُحي أُناساً في قبورهمُ ... والجهل يُلحِق أحياءً بأمواتِ .

*وقال الآخر حول نفس المعنى:

قد ماتَ قومٌ وما ماتت مكارمهم .:. وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتُ .

* قال"عروة بن الزبير"رحمه الله لأولاده : "يا بنيَّ : تعلَّموا العلم وادرسوه، فإنكم إنْ تكونوا صغار قومٍ فعسى أن تكونوا كبراءهم !! (أي بعد فترة من الزمن ستكبرون وتكونون أهل الحل والعقد فيهم) ، وآ سوأتاهُ !! ماذا أقبحُ من شيخٍ جاهلٍ؟!!" (١) .

<u>والجهل من أعظم أسباب الحرمان من كل خير في الدنيا والآخرة:</u>

*واستمع إلى الإمام"ابن القيم" وهو يُقرر ذلك فيقول :" أعظم الأسباب التي يُحرم بها العبد من خيري الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين ، ويدخل عليه عدوه منها، هما : الغفلة المضادة للعلم (أي الجهل) ، والكسل المضاد للعزيمة والإرادة ، هذان هما أصل بلاء العبد وحرمانه ،... ، أما الغفلة فمُضادَّةٌ للعلم وقد ذم الله تعالى ، أهل الغفلة (أي أهل الجهل) فقال :﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾(٢) ، وقال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾(٣) ،... ، وسُئل بعض العلماء عن"عشق الصور" فقال:"قلوبٌ غفلتْ عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره" "(٤) .

*عن"المزني" قال :كان "الشافعي" إذا رأى شيخاً (أي رجلاً كبير السن) سأله عن الحديث والفقه، فإنْ كان عنده شيءٌ من العلم سكتَ عنه، وإلا قال له: لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الإسلام !! ، قد ضيَّعت نفسك وضيَّعت

---

(١) :نقلاً عن كتاب "الأمالي" للبغدادي (١/٢٨٨) .

(٢) : سورة الأعراف الآية (٢٠٥) .

(٣) : سورة الكهف الآية (٢٨) .

(٤) : نقلاً عن كتاب" مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٧٣) .

الإسلام (أي بالجهل وترك التعلم) "(١) .

والحيوان البهيم خيرٌ من الجاهل المعرض عن تعلم ما يجب عليه معرفته :

*قال"ابن القيم":" والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علمٌ بما يُصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يُهلكه ، (أي لسلامته من العذاب والعقوبة الأخروية) دون الإنسان الجاهل"(٢) .

*ورحم الله مَن قال:

فليجتهد رجلٌ في العلم يطلبه ... كيلا يكون شبيه الشاء والبقر .

* قال الإمام" الشافعي" مبيناً قبح الجهل وعاقبته المريرة:

ومَنْ لم يذق مرَّ التعلم ساعةً ... تجرَّع ذلَّ الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبِّر عليه أربعاً لوفاته .

*قال"الأعمش" رحمه الله : " إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القران ولم يكتب الحديث فاصفع له !! (أي اضربه) ،فإنه من شيوخ القمراء !! قيل: وما شيوخ القمراء؟ قال"أبو جعفر" : هم شيوخٌ دهريون يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام الناس (أي يثرثرون بما لا فائدة منه) ، ولا يُحسِن أحدهم أن يتوضأ للصلاة !!"(٣) .

*قال"عمر بن عبد العزيز":"مَنْ عَمِلَ في غير علمٍ كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح !! "(٤)

*وقسَّم الإمام"ابن القيم"الجُهَّال إلى أصناف، فمنهم : " مَنْ له علمٌ بلا عمل ، وهو أضرُّ شيءٍ على العامة لأنه حجةٌ لهم في كل منقصةٍ ومعصيةٍ !! (قلت: وهذا من فقه "ابن القيم" أنْ سمى مَنْ لا يعمل بعلمه جاهلا لأنَّ العلم الحقيقي هو الذي

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (٢/١٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/٧٨) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (٢/١٢) .

(٤) : نقلاً عن كتاب" جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (١/٣٣) .

يصحبه العمل) ، والصنف الثاني :العابد الجاهل (أي الذي يعبد ربه على جهلٍ على حسب العادات أو الأهواء أو ما ورثه عن الآباء والأجداد) ، فإنَّ الناس يُحسنون الظن به لعبادته وصلاحه، فيقتدون به على جهله، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله :

" احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون !! " .

فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعُبَّادهم ، فإذا كان العلماء فجرةً !! والعُبَّاد جهلةً !! عمَّت المصيبة بهما ، وعَظُمَت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث : الذين لا علمَ لهم ولا عملَ ، وإنما هم كالأنعام السائمة .

والصنف الرابع : نُواب إبليس في الأرض ، وهم الذين يُثبِّطونَ الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين ، فهؤلاء أضرُّ عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله تعالى وطريقه "(١) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة"لابن القيم (١٢/٢) .

٣٣ اجتناب كثرة الكلام واللغو والثرثرة

هــذا اللسان أمره عجيبٌ ، فهو صغــيرٌ جِرمُــهُ (أي حجمــه) ، كبــيرٌ جُرمُه (أي جنايته) ،عظيمٌ ضرره، بل إنَّ ضــرره يتعــدى إلى إضــعاف الهمــة والحماسة لطلب العلم، ويتضح ذلك الأثر السيئ في النقــاط التاليــة:

*كــثرة الكـــلام واللغـــو والـــثرثرة ، مظـــنة الوقـــوع في الغيبــة والنميمة والكذب والبهتان ، وغير ذلك من آفات اللسان ، وكـــل هـــذه المعــاصي والآفات هي قاتلةٌ للهمّة ، قاطعةٌ لطريق طـــالب العلــم ، فــإنَّ العلــم الشــرعي شريفٌ عزيزٌ لا يحلُّ في قلبٍ ممتلئٍ بحبِّ المعـــاصي والمنكــرات .

* كــثرة الكلام واللغو والثرثرة ، إنْ سامتْ من الوقوع في معصيةٍ ــ وأنىَّ لهــا أن تسلم !! ــ فهي سببٌ لتشــويش القلـــب ، وتفــرُّق الهمَّــة وتشتــتــهــا ، وانشـــغال الخاطر والذهن ، بما لا يعنيه من أمور الآخرين ، فأيُّ مكانٍ بقي في القلب لطلب العلم الشرعي؟!! .

*كــثرة الكلام واللغـــو والـــثرثرة ســـببٌ لقســـوة القلـــب ، وإذا قســـا القلـــب تـــكـــاسل عـــن الطاعات ، ومنهـــا طلـــب العلـــم الشـــرعي ، ومـــال وركن إلى الولوغ في المحرمات ، أو على أحســـن الأحـــوال إلى التوســـع في فضـــول المباحات ككثرة الأكل والشرب والنـــوم والجمـــاع.

*إذا تعوَّد المرء على كثرة الكلام والثرثرة واللغو ، لم يعـــد قـــادراً علـــى العكـــوف على كتب أهل العلم وقراءتها ، بل يصبح همّه ومبتغاه العثـــور علـــى غـــافلٍ مثلـــه ليُثرثرا بالكلام ، ويُضيّعا الساعات الطوال فيمـــا لا ينفـــع !!.

*واســـتمع إلى هذه الوصية الغالية من الرسول للصحابي الجليل "عقبة بن عامر" رضي

الله عنه ، حين قال للرسول عليه الصلاة والسلام : " ما النجاة ؟!! .

فقال له عليه الصلاة والسلام : " أمسكْ عليك لسانك ، وليَسعكَ بيتك ، وابكِ على خطيئتك " (١) .

*وعن أبي هريرة" رضي الله عنه أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

" مَن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " (٢) .

ولقد كان سلفنا الكرام يحفظن ألسنتهم ويحثون غيرهم على ذلك:

*كان"أبو بكر الصديق" رضي الله عنه **يقبض بيده على لسانه ويجرُّه** ويقول: هذا (أي اللسان) أوردني الموارد !! (أي أهلكني) "(٣) .

* قال"عبد الله بن مسعود"رضي الله عنه : **" والله الذي لا إله غيرهُ ، ما على الأرض شيءٌ أحقّ بطول حبسٍ من هذا اللسان !! "** (٤) .

* قال"عطاء بن أبي رباح" رحمه الله :**" إنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكرٍ ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك ، التي لا بدَّ لك منها ، أتنكرونَ أنَّ عليكم حافظين كراماً كاتبين** ﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * ما يَلفِظُ مِن قَولٍ إلا لديهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٥) .

أما يستحي أحدكم إذا نُشرَت صحيفته التي أملاها صدر نهاره ، فكان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه !! " (٦) .

---

(١) : رواه الترمذي وصححه"الألباني" في"السلسلة الصحيحة"برقم(٨٩٠) .

(٢) : رواه البخاري ومسلم .

(٣) : نقلاً عن كتاب"الزهد" للإمام"أحمد" .

(٤) : نقلاً عن كتاب "الفوائد" لابن القيم .

(٥) : سورة ق الآيات (١٧ ــ ١٨) .

(٦) : نقلاً عن كتاب " الصمت " لابن أبي الدنيا .

واعلم أخي أن الكلام ينقسم إلى أربعة أقسام:

أ ـ قسمٌ هو ضررٌ محض وشرٌ خالصٌ ، وهذا كالغيبة والنميمة وسائر المعاصي ، فهذا القسم يجب السكوت عنه ، وحفظ اللسان من الوقوع فيه.

ب ـ قسمٌ فيه ضررٌ ومنفعةٌ، وذلك كمَنْ يتكلم بكلامٍ فيه نصيحةٌ وتوجيهٌ للخير ويخلطه ببعض الغيبة المحرَّمة ، ويرشُّ عليه قليلاً من السخرية والاستهزاء ببعض الناس، فهذا القسم يجب السكوت عنه أيضاً ، لأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح.

ج ـ قسمٌ لا منفعة فيه ولا مضرَّة ، وذلك كالحديث عن لون كلب أهل الكهف ماذا كان ؟!! ، أو كالبحث عن اسم "الفرعون" الذي أهلكه الله تعالى زمن موسى عليه السلام ؟!! ، أو كالحديث عن تفاصيل الأمور الدنيوية المباحة التي لا يترتب على الحديث فيها مصلحةٌ للمرء ، أو الإكثار من الضحك والمزاح ونحو ذلك ،فهذا القسم السنَّة المتأكدة السكوت عنه وحفظ اللسان منه ،كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام:" مِنْ حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "(١) :

إذن فثلاثة أرباع الكلام ينبغي السكوت عنها .

د ـ قسمٌ هو منفعةٌ محضةٌ وذلك كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والدعوة إلى الله تعالى ، والنصيحة للمسلمين، وغير ذلك من العبادات والطاعات القولية،فهذا القسم هو الممدوح والمحمود ، بشرط أن يسلم المرء عند الكلام فيه من قصد الرياء والسمعة وحب الثناء والمدح ، والله المستعان على حفظ هذا اللسان ، وهو وحده سبحانه عليه التكلان.

---

(١) : رواه الترمذي عن"أبي هريرة"رضي الله عنه، ورواه أحمد في"المسند" عن"الحسين بن علي"رضي الله عنهما، وصححه الألباني في"صحيح الجامع" برقم (٥٩١١) .

٣٤ إدراك أن الخلفاء والأمراء كانوا يتمنّون أن يكونوا علماء

لقد بلغ من شرف العلم الشرعي وفضله في الدنيا ، أنّ الخلفاء والأمراء والسلاطين مع ما هم فيه من المتاع الدنيوي ، والجاه والسلطان ، كانوا يتمنّون أن يكونوا علماء !! ، ليُحصّلوا لذة طلب العلم وتحصيله وبثّه وتعليمه للناس، فإنّ العلم الشرعي هو عزُّ الدنيا وشرف الآخرة ، ولأنهم أدركوا أن سلطان العلم والحجة والبيان ، أقوى من سلطان القوة والسيف والسنان ، كما قال الأول:

إنَّ الملوك ليحكمون على الورى .... وعلى الملوك لتحكُم العلماءُ.

* قال"محمد بن سلاّم الجمحي"رحمه الله : " قيل للخليفة العباسي" المنصور": هل بقي من لذات الدنيا شيءٌ لم تنلهُ ؟!! فقال : بقيتْ خصلةٌ !! أن أقعد في مصطبة (وهي شيء مرتفع كالدّرَج يجلس عليه المدرس لإلقاء درسه) ، وحولي أصحاب الحديث ، فيقول المستملي : مَنْ ذكرتَ رحمك الله ؟!! (أي فأقول: حدثنا فلان عن فلان وأسوق حديث النبي عليه الصلاة والسلام وأرويه للناس) .

قال"الجمحي": فغدا عليه (أي بكّر إليه) الندماء وأبناء الوزراء ، بالمحابر والدفاتر !! (أي ليُحدّثهم ويُحقق أمنيته التي يتمناها) ، فلمّا رآهم "المنصور" قال لهم :

لستم بهم !! (أي لستم أنتم بأصحاب الحديث الذين أرغب في تدريسهم) ، إنما هم الدَنِسَةُ ثيابهم!!(أي من كثرة السفر والترحال لطلب العلم) ، المشققةُ أرجلهم !!(أي من كثرة المشي في سبيل طلب العلم) ، الطويلةُ شعورهم !! (أي أنهم لانهماكهم في طلب العلم لم يجدوا وقتاً

حلق رؤوسهم أو تقصيرها) ، بُرُدُ الآفاق !! (أي هم الذين يجوبون البلدان ويتنقلون فيها لطلب العلم) ونَقَلَةُ الحديث !! "(١) .

*حكى"ابن العميد"قال:" ما كنت أظنُ أنَّ في الدنيا ألذُ من الرياسة والوزارة التي أنا فيها ، حتى شهدتُ مذاكرة"سليمان بن أيوب الطبراني" مع "أبي بكر الجعابي" رحمهما الله بحضرتي، فكان"الطبراني" يَغلِبُ بكثرة حفظه ، وكان "الجعابي" يغلب"الطبراني" بفطنته وذكائه ، ... ، حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه .

فقال"الجعابي": عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي !! فقال"الطبراني": هاته !! ، فقال : حدثنا أبو خليفة قال حدثنا سليمان بن أيوب ،...، وساقَ الحديث ، فقال"الطبراني": أنا سليمان بن أيوب ، ومني سمع"أبو خليفة" الحديث !! فاسمعهُ مني حتى يعلوَ إسنادك ، فإنك تروي عن"أبي خليفة" عني !! ، فخجل "الجعابي" وغلبه"الطبراني"!! .

قال"ابن العميد": فوددت في مكاني أنَّ الرياسة والوزارة ليتها لم تكن لي ، وأنّي كنتُ "الطبراني" ، وفرحتُ مثل الفرح الذي فرحه الطبراني لأجل الحديث!!"(٢) .

*عن"إبراهيم الجوهري" قال : " لما فتح الخليفة العباسي" المأمون" مصر ، قام إليه"أبو حرملة النوبي" فقال له : يا أمير المؤمنين : الحمد لله الذي كفاك أمر عدوكَ ، وأدان لك العراقين والحرمين والشامات والجزيرة والثغور والعواصم ، ... ، فقال له "المأمون" : ويحك قَدْ بقيت لي خُلَّةٌ!! (أي حاجة وأمنية) .

قال : وما هي ؟!! قال : جلوسي في عَسْكرٍ(والعسكر هو المكان الذي يجتمع فيه طلاب العلم) ومُستملٍ تحتي يقول : مَنْ ذكرتَ رضي عنك !! ، فأقول:حدثنا فلانٌ عن فلانٍ ، .... ،

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تاريخ الخلفاء" السيوطي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣/٩١٦) .

عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: ... ، وساق حديثاً"(١) .

* قـال"عبدالله بن علي" : " كان الوزير"نظام الملـك" رحمـه الله ، يُملـي الحديـث بالريّ !!. (أي يدرّس الحديث النبوي للناس وهـو وزيـرٌ) .

فلما فرغَ (أي من درسه ذات يوم) قال : إني لأعلمُ أني لسـت أهـلاً لمـا أتـولاه مـن هذا الإملاء !! (أي تدريس الحديث النبوي)، ولكني أُريد أن أربـط نفسـي علـى قطـار نقلة حديث رسـول الله ﷺ "(٢) .

* قـال"يحيى بن أكثم" رحمه الله :" كنتُ قاضياً وأمـيراً ووزيـراً ، مـا وَلج (أي مـا دخل) في سمعي أحلى من قول المسـتملي:

مَنْ ذكرتَ رضيَ الله عنكَ ؟!! (أي حدثنا بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام) "(٣) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"شرف أصحاب الحديث" للبغدادي، وكتاب" المحدّث الفاصل" للرامهرمزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (٣١٨/٤) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"تهذيب التهذيب" لابن حجر (١٨٣/١١) .

٣٥ ترك الذنوب والمعاصي

الذنوب والمعاصي هي أصل وسبب كل شرٍ وبلاءٍ يقع في هذه الدنيا سواءً على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة ، كما قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾(١) .

ومن عقوبات الذنوب والمعاصي حرمان المرء من طلب العلم الشرعي ، ونسيان ما كان يحفظه من العلم ، وذلك لأنَّ العلم الشرعي درةٌ نفيسة وجوهرةٌ غاليةٌ ، فلا يمكن أن تسكن وتحلَّ في قلبٍ مليءٍ بكلاب الشهوات وقاذورات المعاصي والمنكرات ، لأنَّ الكرام لا يسكنون مع الأوساخ والقاذورات في مكانٍ واحدٍ أبداً ، فكلما عصى العبد ربه ترحَّل العلم من قلبه بقدر معصيته، وانطفأ نور الفهم الشرعي في فؤاده وقلبه .

*واستمع إلى الحبيب ﷺ وهو يقرر هذا المعنى بقوله : إنَّ الرجل لَيُحرَم الرزق بالذنب يُصيبهُ !! " (٢) ، والرزق هنا شاملٌ لرزق الأبدان وهو المال والطعام والشراب ، وشاملٌ لرزق القلوب والأرواح وهو العلم ومعرفة الله تعالى والأنس بذكره .

*قال" عبد الله بن مسعود" رضي الله عنه : " إني لأحسبُ أنَّ الرجل ينسى العلم قد علمهُ بالذنب يعملهُ !! "(٣) .

---

١) : سورة الروم الآية (٤١) .

٢) : رواه "احمد"والحاكم في"المستدرك" وابن حبان وصححه ، من حديث "ثوبان"رضي الله عنه .

٣) : نقلاً عن كتاب" جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (١٩٦/١) .

*كان الإمام"أبو حنيفة" إذا أشكلت عليه مسألةٌ قال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثتهُ !! وكان يستغفر !! ، وربما قام وصلى !! ، فتنكشف له المسألة. فكان يقول : رجوتُ أنّي تِيبَ عليَّ !! (أي تاب الله عليَّ وغفر ذنبي بسبب أنه فتح علي تلك المسألة وفهّمنيها لأنّ العلم والفهم الشرعي لا يُؤتاه عاصٍ) .

فبلغ ذلك "الفضيل بن عياض" رحمه الله فبكى بكاءاً شديداً ، ثم قال : ذلك لقلة ذنوبه، فأما غيره فلا ينتبهُ لهذا"(١) .

*قال "علي بن خشرم":"رأيت وكيعاً (أي وكيع بن الجرّاح الإمام الحافظ) رحمه الله ، وما رأيت بيده كتاباً قطُّ !!(أي أنه من شدة حفظه كان لا يحتاجُ إلى القراءة من كتاب لأنّ علمه محفوظٌ في صدره) ،إنما هو يحفظُ !! ، فسألته عن دواء الحفظ !! .

فقال لي : ترك المعاصي ، ما جرَّبتُ مثله للحفظ !! "(٢) .

*واستمع إلى "ابن الجوزي" وهو يبين لك عواقب المعاصي فيقول:

"الحذر الحذر من المعاصي ، فإنها سيئة العواقب ، والحذر الحذر من الذنوب، خصوصاً ذنوب الخلوات ، فإنَّ المبارزة لله تعالى تُسقِط العبد من عينه سبحانه، فأُفٍّ للذنوب !! ما أقبح آثارها ؟!! وأسوأ أخبارها !! ، ولا كانت شهوةٌ لا تُنال إلا بمقدار قوة الغفلة "(٣) .

* قال "الخطيب البغدادي"مُبيناً أهمية ترك الذنوب والمعاصي في طلب العلم:

"وليجتنب (أي طالب العلم) ارتكاب المحرمات وموافقة الأمور المحظورة ،...، سأل رجل "مالك بن أنس" فقال: يا أبا عبد الله هل يصلح لهذا الحفظ شيءٌ ؟!! فقال: إنْ كان يصلح له شيءٌ فترك المعاصي !! ، ... .

---

(١) : نقلاً عن كتاب" طبقات الحنفية"لعلي القاريء (٢/٤٨٧) .

(٢) : نقلاً عن "كتاب" تهذيب التهذيب" لابن حجر العسقلاني (١١/١٢٩) .

(٣) : نقلاً عن "صيد الخاطر" لابن الجوزي (بتصرف) .

وقال"بشر بن الحارث" رحمه الله ، إذا أردت أن تُلَقَّنَ العلم (أي تفهمه وتحفظه وتضبطه) فلا تعصِ !! "(١) .

*كتب رجل إلى أخٍ له في الله ، يُوصيه ويقول له :

" إنك قد أوتيت علماً، فلا تُطفئنّ نور علمك بظلمة الذنوب ، فتبقى في الظلمة ، يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم !!(أي يوم القيامة) "(٢) .

*وأنشد أبو طالب الدسكري لبعضهم:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأنّ العلمَ نورٌ ... ونور الله لا يُؤتاهُ عاصِ .

*وقد بسط الإمام "ابن القيم" الحديث عن عقوبات الذنوب في الدنيا قبل الآخرة في كتابه" الفوائد" وزادها بسطاً في كتابه البديع الرائق" الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، ونحن هنا نقتبس بعضاً من كلماته الذهبية في هذا المجال ومنها.

* الذنوب جراحاتٌ، وربّ جرحٍ وقع في مَقتَلٍ .

*إياك والمعاصي، فإنها أذلت عزّ﴿ اسجُدوا .... ﴾، وأخرجتْ إقطاع ﴿اسكن... ﴾

*المعاصي سدٌ في باب الكسب، وإنّ العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه.

*لو عرفتَ قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي ، إنما أبعدنا إبليس إذْ لم يسجد لك وأنتَ في صلب أبيكَ ، فوآ عجباً كيف صالحتهُ وتركتنا !! .

*اقشعرتْ الأرض ، وأظلمتْ السماء وظهر الفساد في البرّ والبحر من ظلم الفجرة (أي ظلمهم لأنفسهم بالذنوب وظلمهم للناس) ،وذهبتْ البركات وقلّتْ الخيرات ، وهزلت الوحوش وتكدّرت الحياة من فِسق الظلمة ، وبكى ضوء

(١) : نقلاً عن كتاب" الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للبغدادي (٢/٢٥٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "العلم" لجاسم المهلهل .

النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة (أي الذنوب والمعاصي) والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقّبات (أي من الملائكة) إلى ربهم ،من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح .

وهذا والله منذرٌ بسيل عذاب قد انعقد غمامه ، ومُؤذنٌ بليل قد ادلهمّ ظلامه ، وكأنّهم بالباب (أي باب التوبة) وقد أُغلق!! ، وبالرهن وقد غُلّق !! (أي أخذ واستُلب والمراد نزول الموت بالعبد وانقطاع أوان التوبة) ، وبالجناح وقد علّق !! ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1] "[2] .

*قال الشيخ"مصطفى السباعي"رحمه الله :

"إذا همّت نفسك بالمعصية ، فذكّرها بالله ، فإنْ لم ترجع فذكّرها بأخلاق الرجال ، فإنْ لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم بها (أي بمعصيتك) الناس، فإنْ لم ترجع فاعلم أنك في تلك الساعة انقلبتَ إلى حيوان !!"[3] .

---

(١) : سورة الشعراء الآية رقم (٢٢٧) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "الفوائد" لابن القيم .

(٣) : نقلاً عن كتاب" هكذا علمتني الحياة" للسباعي .

٣٦ إقامة مسابقات في إعداد البحوث الإسلامية

أسلوب المسابقات أسلوبٌ تربويٌ ناجحٌ ، وإنَّ من الوسائل المعينة على التحمس لطلب العلم الشرعي، إقامة مسابقات بين طلاب المدرسة الواحدة ، أو الفصل الواحد ، أو بين شباب الحي الواحد ، أو بين المدرّسين في مدرسةٍ واحدةٍ ، أو بين الأقران ، في إعداد البحوث الإسلامية النافعة، بحيث يتم اختيار أحد الموضوعات الشرعية الهامة ، والتي تمسُّ الحاجة إليها ، ثم يُكلّف المتسابقون بإعداد بحثٍ حول ذلك الموضوع ، مع مراعاة أن يكون موضوع البحث ملائماً لسنّ الباحث ومستواه العلمي.

وهذه البحوث تضطر المرء إلى القراءة في الكتب الشرعية ، ومراجعة كلام أهل العلم في مسألةٍ ما ، و البحث عن تخريج حديث نبوي ، و نقل واقتباس بعض عبارات السلف الجميلة المؤثرة ، و تلخيص مقطع طويل من كلام أهل العلم في عبارة بسيطةٍ موجزةٍ ، وكلُّ هذه الأمور هي فوائد علمية ما كان المرء ليُحصّلها لو لم يقم بإعداد ذلك البحث .

٣٧ معرفة كيف كان السلف يؤثرون العلم على الأكل والشرب

إذا كان الطعام والشراب هو غذاء الأجساد والأبدان ، فإن العلم بالله تعالى وشرعه ، هو قوت وغذاء القلوب والأرواح ، وما أجمل ما قاله "الألبيري":

وقوتُ الروح أرواح المعاني .... وليس بأن طعمتَ ولا شربتَ

والعاقل البصير يُؤثر ويُقدّم غذاء الروح على غذاء البدن ، لعلمه أنَّ مَنْ تزوَّد من غذاء الروح ، أغناه ذلك عن غذاء البدن ، فلم يحتج إلا إلى أقل القليل منه الذي يُعينه على طاعة الله تعالى ، ولعلمه أن غذاء البدن يشاركه فيه الكفرة والفجرة وشرار الخلق والبهائم العجماوات ، أما غذاء الروح فلا يناله إلا عباد الله الأبرار ، وكذا كان سلفنا الكرام يفهمون هذه القضية:

* قال"أبو حاتم الرازي" رحمه الله : "كنا بمصر سبعة أشهرٍ ، لم نأكل فيها مرقةً !! (أي لشدة اشتغالهم بطلب العلم فلا وقت لديهم لطبخ الطعام وطهيه) ، نهارنا ندور على الشيوخ ، وبالليل ننسخ ونُقابل !!(أي نصحح ما كتبناه بالنهار) فأتينا ذات يومٍ أنا ورفيقٌ لي شيخاً (أي لنحضر درسه) فقيل لنا : هو عليلٌ ، فرجعنا ومررنا بالسوق ، فرأيت سمكةً فأعجبتنا فاشتريناها (أي لنشويها ونطبخها ونأكلها)، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فمضينا إليه (أي وتركنا السمكة على أمل أن نتمكن من طبخها في وقت آخر) .

فلم تزل السمكة ثلاثة أيام !! (أي بقيت على حالتها تلك لمدة ثلاثة أيام لم نتمكن خلالها من طبخها لشدة انهماكنا في طلب العلم) ، حتى كادت السمكة أن تُنتِنَ !! (أي تفسد) فأكلناها نيئةً !! (أي بغير طبخٍ) لم نتفرغ لشَويها !! .

ثم قال"أبو حاتم": لا يُنال هذا العلم براحة الجسد"(١).

*قال"عيسى بن موسى المتوكل"رحمه الله : " مكثتُ ثلاثين سنةً أشتهي أن أشارك العامة ، في أكل هريسة السوق ، فلا أقدر على ذلك !! ، لأجل البكور إلى سماع الحديث !! (أي أن وقت درس الحديث كان بعد الفجر ، ووقت بيع الهريسة كان في أول النهار بعد الفجر ، فإنْ تأخرَ لأجل شراء من السوق ثم أكلها ، فاته درس الحديث ، وإنْ بَكَّرَ إلى درس الحديث أدرك العلم وفاتته الهريسة ، فاختار طلب العلم على الهريسة، ونِعْمَ ما اختار)"(٢).

* قال"عبيد بن يعيش"رحمه الله : " ما أكلتُ بالليل بيديٍّ منذ ثلاثين سنةً !! إنما كانت أختي تُلقّمني الطعام !! وأنا مشغولٌ بكتابة حديث الرسولﷺ"(٣).

* قال"المالكي":" كانت "لمحمد بن سحنون" رحمه الله سُرِّيَّةٌ (أي أَمَةٌ مملوكة) يُقال لها : أم مدام ، فكان عندها يوماً ، وقد شُغِلَ في تأليف كتابٍ إلى الليل ، فحضر الطعام فاستأذنتهُ ليأكلَ ، فقال لها : أنا مشغولٌ الساعة !!.

فلمّا طال عليها جعلت تُلقّمهُ الطعام حتى أتتْ عليه ، وتمادى هو على ما هو عليه (أي استمر في التصنيف والتأليف) ، إلى أن أُذِّنَ لصلاة الصبح ، فقال لها : شُغلنا عنكِ الليلة يا أم مدام !! ، هاتِ ما عندكِ !! (أي هاتِ طعامك) فقالت: قد والله يا سيدي ألقمتهُ لك ، فقال لها: ما شعرتُ بذلك !! (أي لشدة انهماكه في التأليف)"(٤)

*كان الإمام "النووي"لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلةً واحدةً بعد صلاة العشاء الآخرة !! وكان يشرب شربةً واحدةً عند السَّحَر !! (وهذا كله لأجل انشغاله بطلب العلم وتحصيله)"(٥).

---

(١) : نقلاً عن كتاب"الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (١/٥) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تاريخ بغداد" للبغدادي (١١/١٧٨) .

(٣) : نقلا عن"الجامع" للخطيب البغدادي (٢/١٧٨) .

(٤) : نقلاً عن كتاب"ترتيب المدارك" للقاضي عياض (٣/١١٤) .

(٥) : نقلاً عن كتاب، "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٤/١٤٧٢) (بتصرف) .

٣٨ علو الهمّة والتعلق بالمعالي

هـــذا الدين دينٌ عظيمٌ ، لا ينهض بأعباء حمله والتفقه فيه والدعوة إليه إلا ذووا الهمم العالية ، ولذا ربّى الإسلام أبناءه على هذا المبدأ العظيم :

*اســـتمع إلى الرب تبارك وتعالى وهو يصف عبـــاده الأخيـــار فيقـــول:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾(١)، فتـــأمل كيـــف أنَّ هـــؤلاء الأبـــرار لا يفعلـــون الخيرات فقط ، بل هم يُسارعون ويُســـابقون إليهـــا.

*وهـــــذا الحبيب ﷺ يُربّي الأمة على هذا المبدأ، فيقول: "إنَّ الله يحـــب معـــالي الأمور وأشرافها، ويكره ســـفـــسافها (أي الأمور الدنيئة والخسيسة)"(٢) .

*وتـــأمـــل كيف ربّى الرسول ﷺ أصحابه على علـــو الهمـــة حتـــى في الدعـــاء، فـــقال لهـــم : " إذا ســـألـــتم الله تعـــالى فاســـــألـــوه الفـــردوس ، فإنـــه سِـــرُّ الجنة (أي أفضل موضـــع فيهـــا) "(٣) .

*واستمع إلى"ابن القيم" وهو يبين لك أهمية علو الهمـــة في تحصيـــل المعـــالي، ومنهـــا طلب العلم الشرعي، فيقول : "المطلب الأعلـــى موقـــوفٌ حصولـــه علـــى هـــمَّةٍ عاليةٍ ونية صحيحةٍ، فمن فقدهما تعذَّر عليه الوصول إليه ، فـــإنَّ الهمـــة إذا كـــانت عاليةً تعلَّقت به وحـــده دون غـــيره (أي بـــذاك المطلـــب الأعلـــى) ، وإذا كـــانت النيـــة صحيحةً سلك العبد الطريق الموصلة إليه ، فالنية تُفرِدُ له الطريق والهمـــة تُفـــرِدُ لـــه

---

(١) : سورة الأنبياء الاية (٩٠) .

(٢) : رواه"الحاكم"و"أبو نعيم"من حديث"سهل بن سعد"،وصححه"الألباني"في"الصحيحة" برقم (١٣٧٨) .

(٣) : رواه"الطبراني" في"معجمه الكبير" وصححه "الألباني" في"صحيح الجامع" برقم(٥٩٢) .

المطلوب،فإذا توحَّد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته، وإذا كانت همته سافلةً تعلّقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى:... ، فمدار الشأن على همّة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه"(١) .

* واستمع إلى"ابن الجوزي" وهو يُشعل الحماسة ويُقوّي الهمَّة بقوله :

" ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه !!، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات ، لرأيتَ من أقبح النقائص رضاه بالأرض ، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد ، لرأيتَ المقصّر في تحصيلها في حضيضٍ،... ، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يُطلَب الممكن ،

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

ولو أمكنك عبور كل أحدٍ من العلماء والزهّاد (أي التفوق عليهم) فافعل ، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجلٌ !! ، واعلم أنك في ميدان سباقٍ ، والأوقات تُنتهَب ، ولا تخلد إلى الكسل ، فما فات ما فات إلا بالكسل ، ولا نال من نال إلا بالجدّ والعزم ، وإنّ الهمّة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور !!

فكن رجُلاً رِجلُهُ في الثرى .... وهامة همّته في الثريا"(٢).

* قال الإمام"أحمد" : " كنت ربما أردتُ البكور في الحديث (أي أردت الخروج من البيت والذهاب إلى الحلقة مبكراً قبل طلوع الفجر) ، فتأخذ أمي بثيابي وتقول : حتى يُؤذّن الناس أو حتى يُصبِحوا !!، وكنتُ ربما بكّرت إلى مجلس"أبي بكر بن عياش" وغيره !! "(٣) .

*وهذا "ابن الجوزي" يصف لنا حال دنيء الهمّة ، الذي يقنع بالدون بمثالٍ

---

(١) : نقلاً عن كتاب" الفوائد" لابن القيم .

(٢) : نقلاً عن كتاب" صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٣) : نقلاً عن كتاب"مناقب الإمام"أحمد" لابن الجوزي .

جميلٍ ، فيقول :" أنَّ الكلب قال للأسد : يا سيد السباع غيِّر اسمي فإنه قبيحٌ !! فقال له الأسد : أنت خائنٌ لا يصلح لك غير هذا الاسم !!، فقال الكلب : فجرّبني !! ، فأعطاه الأسد شقّة لحمٍ (أي قطعة لحم) وقال له:! حفظ لي هذه إلى غدٍ وأنا أُغيّر اسمك !!.

فجاع الكلب وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر، فلما غلبته نفسه قال : وأيُّ شيءٍ باسمي ؟!! وما "كلب" إلا اسمٌ حَسَنٌ !! فأكلَها !! ،...، وهكذا يقع ضعيف الهمّة ، القنوع بأقلّ المنازل والمراتب ، المختار عاجل الهوى والراحات على أجلّ الفضائل ، فلا بدَّ من ترك بعض الْمُشتَهيَات والشهوات والرغبات في هذا الطريق ، والمخَلّطون صرعى من أول وقت اللقاء ، كالكلب مع الأسد ،... ، "(١) .

*قال"أبو القاسم الهذلي" رحمه الله ، يحكي حاله في طلب علم القراءات: "فجملةُ مَنْ لقيتُ في هذا العلم ثلاثمائةٍ وخمسةٌ وستون شيخاً !! ، من آخر المغرب إلى باب فرغانة يميناً وشمالاً وجبلاً وبحراً، ولو علمتُ أحداً يُقدّم عليَّ في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام لقصدتُهُ !!.

،قال"ابن الجزري" مُعقّباً: كذا ترى همم السادات في الطلب"(٢).

* قال"ابن الجوزي": "من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيء ، قال الشاعر:

إذا ما علا المرءُ رام العُلى ... ويقنع بالدونِ مَن كان دونا

وما ابتُليَ الإنسان قط بأعظم من علو همته، فإنَّ مَنْ علت همته يختار المعالي، وربما لا يُساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب،..، والعالي الهمة

---

(١) : نقلاً عن كتاب"صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري .

يرى التقصير في بعض العلوم فضيحةً ، قد كشفت عيبه وأرَت الناس عورته ، والقصير الهمّة لا يُبالي بمنن الناس !! ولا يستقبح سؤالهم !! ،...، ولكنّ تعب عالي الهمة راحةٌ في المعنى، وراحة قصير الهمة تعبٌ وشينٌ إنْ كان ثمَّ فهمٌ !! والدنيا دار سَباق إلى المعالي ، فينبغي لذي الهمة العالية أن لا يُقصّر في شوطه ، فإن سَبَقَ فهو المقصود ، وإنْ كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَم !! ، ... ، فإنْ قال قائل :فإذا كانت لي همَّة فلم أُرزَق ما أطلب فما الحيلة ؟!! فالجواب :أنه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوعٍ آخر ، ثمَّ مِنْ البعيد أن يرزقك همَّةً ولا يُعينُك ، فانظر في حالك فلعله أعطاك شيئاً ما شكرتهُ !! أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرتَ عنه!! واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيراً، ليُؤثِرَك بلذات العلم ، فإنك ضعيفٌ ربما لا تقوى على الجمع ، فهو أعلم بما يُصلحك ، .... ، والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم !! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[١] .

*ذكر "ابن عساكر" في ترجمة الإمام "أبي منصور محمد بن الحسن النيسابوري" رحمه الله : " أنه كان يُعلّق دروسه (أي كان يَكتب تعليقات عليها) ، ويُطالع كتبه ويقرأها في ضوء القمر !! لأنه كان فقيراً لا مال لديه ليشتري به زيتاً يُوقد به السراج !! ، ومع ذلك كان لا يأخذ من مال الشُبهة شيئاً!!"[٢] .

*أخي : استمع إلى "ابن الجوزي" وهو يُناديك ويقول لك :

"يا غافلاً عن مصيره ، يا واقفاً في تقصيره ، سَبقكَ أهل العزائم ، وأنت في اليقظة نائم ، قف على الباب وقوف نادمٍ ، ونكّس رأس الذل وقل: أنا ظالمٌ !! ، ونادِ في الأسحار : أنا مذنبٌ وواجمٌ !!" .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تبيين كذب المفتري" لابن عساكر .

٣٩ الإكثار من ذكر الموت وظلمات القبور

إنَّ مما يُعين على التحمس لطلب العلم الشرعي وتحصيله أن يُكث
المرء باستمرار ــ بقلبه وبلسانه وبفكره ــ مِنْ ذكر نهايته المحتومة وهي الموت والرحي
، عن هذه الدار والانتقال إلى ظلمات اللحود ، لأنَّه :

*إذا أكثر المرء من ذكر الموت والرحيل عن هــذه الــدار ، وغلــب ذكــر المــو
على قلبه تعلّقت همته بالدار الآخرة ، وزهدَ في هذه الدنيــا الفانيــة، وصــار مــ
المسابقين والمسارعين إلى الطاعات، وإذا غفل المرء عن ذكــر المــوت قســا القلــ
وقعد وتكاسل عن الطاعات ، ولهذا حثنا الرسول ﷺ علــى الإكثــار مــن ذكــ
الموت ، بقوله :" أكثروا من ذكر هــاذم اللــذات: المــوت "[١] .

*قــال سعيد بن جبير"رحمه الله : " لو فــارقَ ذكــر المــوت قلــبي ، لخشــيتُ أ
يَفسُدَ عليَّ قلــبي !! "[٢] .

*وإذا تذكَّر المرء ســاعة الاحــتــضــار الرهــيــبــة ، تلــك الســاعة الــ
ستمر على كل أحدٍ منا ، واستشعر مــا ســينزل بــه فيهــا مــن كُربــات المــو
وشدائده وغُصصه وأهــواله !! فما أشدَّها مــن لحظــات ؟!! ومــا أقســاها مــ
زفرات وآهات تلك التي تصدر من المحتَضَر في تلــك الســاعة ؟!! فمــاذا أعــددن
أخي الكريم لذلك الموقف الرهيب؟! ولذاك المصــرع العصيــب ؟!.

*وفــي ساعة الاحتضار الرهيبة ، سيتندم ويتحسر المرء على كل لحظةٍ من عمره قضاه
في غير طاعة مولاه جلَّ وعلا !! بل والله لو استطاع أن يبكي الدم بدل الدموع في تلك

---

(١) : رواه الترمذي والنسائي وصححه ابن حبان .

(٢) : نقلاً عن كتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم .

اللحظات لفعل !! ولكن هيهاتَ هيهاتَ !!! لأنَّ الموت قد أوهن قواه، وأخرس لسانه وعَقَلهُ عن الكلام ، فما عاد يملك إلا الزفرات والآهات المليئة بالحُرْقة والحسرة على ما مضى !! فماذا أعددتَ أخي لمواجهة تلك اللحظات العصيبة؟! .

*ثم تأمل كيف أنَّ المحتضَر في وسط هذه الأجواء الرهيبة ، لا يتمنى إلا أمنيةً واحدةً، وهي أن يُردَّ إلى الدنيا ولو ساعةً من زمان ، ليعمل وليتوب إنْ كان مُسيئاً ، وليزداد من الصالحات إنْ كان محسناً ، فهل يا تُرى يُجَابُ إلى تلك الأمنية ؟!!.

اسمع الجواب في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[١] .

*واستمع إلى "ابن الجوزي" وهو يصف تلك الساعة الرهيبة والحالة الفظيعة، فيقول : "يا مَنْ أيام عمره في حياته معدودةٌ ، وجسمه بعد مماته مع دودة ، رأيتك في النقص مُذ أنتِ في المهد، تُقرِّبك الساعات من ساعة اللحد ، يا مَنْ عمره يمضي بالساعة والساعة ، يا كثير التفريط في قليل البضاعة"[٢] .

إذا استشعر المرء كل تلك المعاني،واستحضر بقلبه كل تلك المشاهد زاده ذلك حماسةً وتلهُّباً لطلب العلم الشرعي ، لأنه يعلم أنه لن يُنجيه من تلك الأهوال والكربات بعد رحمة الله تعالى ، إلا عمله الصالح الذي قدَّمه لنفسه حال حياته ، ومن أعظم تلك الصالحات طلب العلم الشرعي وتحصيله ، فطوبى لمن أعدَّ زاداً لذلك اليوم الذي لا بُدَّ منه !! .

---

(١) : سورة المؤمنون الآيتان (٩٩ ــ ١٠٠) .

(٢) : نقلاً عن كتاب " المدهش " لابن الجوزي .

٤٠ معرفة كيف صبر السلف على العري لأجل العلم

إذا كان ستر المرء لجسمه وبدنه بالثياب والملابس أمراً مشروعا مطلوباً، فإنّ ستره لعيوب النفس البشرية ، التي طبعها الجهل والتقصير والعصيان ، بلباس العلم والإيمان والتقوى ، أشدُّ أهميةً وأعظمُ شأنا، لأنَّ لباس التقوى هو خير لباس ، وأفضل كرامة ينالها أحدٌ من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾(١) .

ولقد صبر سلفنا الكرام على التقلل من اللباس والثياب ، والرضا منها باليسير، حرصاً على اللباس الأعظم ، وهو لباس العلم والإيمان والتقوى ، ولو شاءوا لكانوا من أعلى الناس لباساً وأكثرهم ثياباً ، ولكنهم ضحَّوا في سبيل طلب العلم الشرعي بكل غالٍ ونفيس ، لأنَّ التقوى عندهم هي الأساس ، فطوبى لهم يوم يقوم لرب العالمين الناس !! .

* قال"علي بن حرب" : "أتينا الإمام" زيد بن الحباب الخراساني" رحمه الله ، (أي لطلب العلم على يديه) ، فلم يكن له ثوبٌ يخرج فيه إلينا، فجعل الباب بيننا وبينه حاجزاً !! وحدَّثنا من ورائه !! "(٢) .

* قال"عمر بن حفص الأشقر":" فقدنا الإمام البخاري رحمه الله ، أياماً من كتابة الحديث بالبصرة، قال : فطلبناه فوجدناه في بيته وهو عُريانٌ !! ، وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شيءٌ !! (أي من المال) ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث"(٣) .

---

(١) : سورة الأعراف الآية (٢٦) .

(٢) : نقلاً عن كتاب " السير " للذهبي (٩/٣٩٣) .

(٣) : نقلاً عن كتاب " تاريخ بغداد" للبغدادي (٢/١٣) .

*قـال"أبو العباس الجرجاني": " كان"أبو إسـحاق الشـيرازي" رحمـه الله لا يملـك من الدنيا شيئاً ، فبلغ به الفقر مبلغه حتى كان لا يجد قوتاً ولا ملبسـاً، ولقـد كنـا نأتيه وهو ساكنٌ في القطيعة (وهي حيٌّ من أحياء بغداد) ، فيقـوم لنـا نصـف قَومَـة !! ، ليس يعتدل قائما من العُري !! كي لا يظهر منـه شـيءٌ !!"(١) .

*قـال"السمعاني" في ترجمة العبد الصالح الفقيه المحـدّث "أبـي الحسـن علـي بـن أحمد اليزدي"رحمـه الله :

" وكان له عمامةٌ وقميصٌ بينه وبين أخيه !! ، إذا خـرج هـذا قعـد ذاك في البيـت !! وإذا خرج ذاك قعد هـذا في البيـت !! ، فسـمعته يقـول وقـد دخلـتُ داره مع"علي بن الحسين الغزنوي" الواعظ مُسـلّماً عليـه ، فوجدنـاه عُريانـا مُتـأزراً بمئزرٍ (أي مكشوف الجزء الأعلى من الجسم) ، فاعتذر من العُـري ، وقـال :

نـحن إذا غسلنا ثـيابـنا نكـون كمـا قال القاضي "أبو الطيب الطبري":

قومٌ إذا غسلوا ثياب جـمالهم ... لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل "(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " طبقات الشافعية الكبرى " للسبكي (٣/٩٠) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"ذيل تاريخ بغداد"لابن النجار (٣/٤٩) .

٤١ استحضار الخاتمة الحسنة لأهل العلم الربانيين

مَنْ حفظ الله في الرخاء ، حفظه الله في وقت الشدة والبلاء ، والجزاء من جنس العمل ، فإذا علمتَ ذلك، فقل لي بربك: كيف تتوقع أن تكون خاتمة مَنْ قضى عمره ، وأفنى زهرة شبابه في تحصيل العلم الشرعي ، فتراه يسهر الليالي الطوال على قراءة العلم الشرعي وكتابته وحفظه ، فإذا جاء الصباح فهو شعلةُ نشاطٍ !! ؛ يُبلِّغ هذا العلم وينشره بين الناس بأفعاله قبل أقواله، ويذبُّ بسلطان العلم والبيان عن شرع الله تعالى ، ويُبطل افتراءات شياطين الإنس والجان ، ويُجاهد ويُدافع عن هذا الدين بلسانه وقلمه وماله ونفسه، فمَنْ كان هذا حاله كيف تتوقع أنْ تكون خاتمته ونهايته ؟!! ، فاسمع الجواب يا رعاك الله :

*حين احتُضِرَ الإمام"أبو إسحاق النيسابوري"رحمه الله ، وكان صائماً طوال ذلك اليوم ، فقال لولده : ارفع الستر!! ،ثم قال له : أنا عطشان ، فجاءه ولده بماء ، فقال له"أبو إسحاق" : هل غابت الشمس ؟!! فقال : لا ، فقال : فرُدَّ الماء، ثم جعل يقول : لمثل هذا فليعمل العاملون !! ثم فاضت روحه إلى بارئها !! "(١) .

*نقل"الذهبي" في ترجمة العبد الصالح المحدث"أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي"رحمه الله، قال : قال"أحمد بن يوسف الشيرازي": ولما احتضرَ (أي نزل الموت بأبي الوقت) سندتهُ إلى صدري ، وكان مستهتراً بالذكر (أي كثير اللهج بالذكر مُكثِراً منه) ، فدخل عليه"محمد بن القاسم" فأكبَّ عليه وقال :يا سيدي قال الرسول عليه الصلاة والسلام :" مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تاريخ بغداد" للبغدادي (٦/ ٢٠٦) .

فرفع "أبو الوقت" طَرْفَهُ إليه ، وتـلا قوله تعالى : ﴿ يَا لَيتَ قَومي يَعلَمُونَ * بما غَفَرَ لِي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ المُكرَمِينَ ﴾(١) ، فدُهِشَ مَنْ كان حاضراً من أصحابه ، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة !! ثم قال : الله الله الله !! .

وتوفي رحمه الله وهو جالسٌ على السجادة !! "(٢) .

*حين سُجِنَ الإمام"ابن تيمية" رحمه الله في "سجن القلعة" بدمشق أقبل على الإكثار من قراءة القرآن الكريم ، حتى أنَّه ختم ثمانين ختمةً وهو في الحبس ثم شرع في الختمة الحادية والثمانين حتى وصل إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * في مَقعَدِ صِدقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقتَدِرٍ ﴾(٣) ، ثم فاضت روحه إلى بارئها !!"، فما أجملها من خاتمة؟! وما أبدعها من نهاية؟!!.

*ذكر "ابن العماد الحنبلي"أنَّ : "الإمام"ابن قدامة المقدسي" رحمه الله ، كان كثير الذكر لله تعالى ، حتى أنه مات وهو عاقدٌ على أصابعه يُسبِّح !! "(٤) .

*قال" الذهبي في ترجمة العبد الصالح الإمام الحافظ"عماد الدين أبو طاهر السِلَفي" رحمه الله : " ولم يزل يُقرأ عليه الحديث حتى آخر يومٍ من حياته ، إلى أن غربت الشمس من ليلة وفاته !! ، وهو يردُّ على القارئ اللحن الخفي !! (أي الخطأ الخفي في التلاوة) ، وصلى الصبح عند انفجار الفجر من يوم الجمعة خامس ربيع الأول من سنة ٥٧٦ هـ أو قبلها، وتوفي عَقِبَهُ فجأة ،.."(٥) .

---

(١) : سورة يس الآيتان (٢٦ ــ ٢٧) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢٠/٣٠٨) .

(٣) : سورة القمر الآيات (٥٤ ــ ٥٥) .

(٤) : نقلاً عن كتاب"شذرات الذهب" لابن العماد (٥/٢٨) .

(٥) : نقلاً عن كتاب"طبقات الشافعية" للسبكي (٦/٣٢) .

٤٢ إدراك مدى غربة العلم الشرعي في هذا الزمان

بالرغم من أنَّ الكليات والمعاهد الشرعية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي يتخرّج فيها كل عام آلاف الطلاب الذين يحملون شهادات شرعية، وبالرغم من كثرة المؤلفات والرسائل العلمية التي تطرح في الأسواق سنوياً، برغم كل ذلك فإن العلم الشرعي يعيش في هذا الزمان غربةً حقيقيةً، وأزمة فعليةً، وحتى تتضح لك تلك الغربة المريرة، تأمل معي ما يلي:

* المسلمون في هذه الأيام كثيرون ألف مليون مسلم !!، ولكن كم هم المتدينون والملتزمون بأحكام الإسلام من بين هذا العدد الهائل ؟!! إنهم قليلٌ من كثيرٍ !! .

*وتأمل كم عدد الذين يطلبون العلم الشرعي مِن بين هؤلاء الملتزمين؟! إنهم قليلٌ من قليلٍ !! .

*وتأمل حال هؤلاء الذين يطلبون العلم كم عدد المخلِصين فيهم الذين يطلبون العلم ابتغاء وجه الله تعالى، لا طمعاً في شهادةٍ أو منصبٍ أو وظيفةٍ ؟!! إنهم قليلٌ من قليلٍ.

*قال"هشام الدستوائي" رحمه الله : " والله ما أستطيعُ أن أقول : إني ذهبت يوماً قطُّ أطلب الحديث أُريدُ به وجه الله !!" .

فقال"الذهبي"مُعلقاً : والله ولا أنا !!، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنَبُلُوا، وصاروا أئمةً يُقتدَى بهم، ... ، وقومٌ طلبوه بنيةٍ فاسدة لأجل الدنيا وليُثنَى عليهم، فلهم ما نووا !! .

*قال ﷺ :" مَنْ غزا ينوي عقالاً فله ما نوى "(١) ،وترى هذا الضرب (أي النوع) لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقعٌ في النفوس ، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل ، وإنما العالم مَن يخشى الله تعالى ، وقومٌ نالوا العلم ووُلُّوا به المناصب ، فظلموا وتركوا التقيد بالعلم ، وركبوا الكبائر والفواحش ، فتباً لهم فما هؤلاء بعلماء ؟!!،...، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئاً كثيراً وتضلَّعوا منه (أي توسعوا فيه) في الجملة .

فخلف من بعدهم خَلْفٌ بانَ نقصهم في العلم والعمل ، وتلاهم قومٌ انتموا إلى العلم في الظاهر ، ولم يُتقنوا منه سوى نزرٍ يسير ، أوهموا به (أي أوهموا الناس) أنهم علماء فضلاء !! ، ولم يَدُرْ في أذهانهم قط أنهم يتقربون به (أي بالعلم) إلى الله تعالى ، لأنهم ما رأوا شيخاً يُقتدَى به في العلم !! (قلت:فكيف لو أدرك الذهبي زماننا!!) ، فصاروا همجاً رعاعاً، ... ، فنسأل الله النجاة والعفو ، كما قال بعضهم : ما أنا عالِمٌ، ولا رأيتُ عالماً !!"(٢) .

*وتأمل في هؤلاء المخلصين: كم عدد الذين يطلبون العلم منهم بصدق وجدية وتوسعٍ ؟!!وكم عدد الذين يستحقون فعلاً أن يُسمَّوا علماء أو طلبة علم مِن هؤلاء المخلصين ؟!! ، وكم منهم يحفظ عشرة آلاف حديث ؟!! ، بل خمسة آلاف حديث ؟!! بل ألف حديث ؟!! ، إنهم قليلٌ من قليلٍ!! .

*قال"أبو بكر بن أبي شيبة" رحمه الله : " مَن لم يكتب عشرين ألف حديثٍ إملاءاً ، لم يُعَدَّ (أي لا يعتبر) صاحب حديث!!"(٣) ، فليت شعري لو أدرك الإمام "ابن أبي شيبة" زماننا هذا ــ ورأى أن طلاب الكليات الشرعية يتخرَّج أحدهم من قسم الحديث النبوي

(١) : رواه أحمد والنسائي والدارمي،ورجاله ثقات غير"يحي بن الوليد " لم يُوثقه غير ابن حبان .

(٢) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء"للذهبي (١٥٣/٧) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"شرف أصحاب الحديث"للبغدادي .

وهو لم يدرس إلا مائة أو مائتي حديث !! طوال سنوات الدراسة الأربع ، ثم يتبجّح هذا الطالب بأنه متخرِّج من قسم الحديث النبوي !! ، وبأنه طالب حديث!! ـــ ما عساهُ أن يقول ؟!! اللهم فارحم غربتنا .

*قال"محمد بن سيرين"رحمه الله : "ذهب العلم !! ، وبقيت منه شذراتٌ في أوعيةٍ شتى!! "(١) .

*قال"عبيد بن جناد":"سمعت"سفيان بن عيينة"رحمه الله وسألوه أن يُحدِّث، فقال : ما أراكم للحديث موضعاً !! (أي لستم أهلاً لتحمل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم) ، ولا أراني أن يُؤخَذ عني أهلاً !! ، وما مَثلي ومَثلكم إلا كما قال الأول: افتضحوا فاصطلحوا !! "(٢) ، فتأمل أخي هذا الكلام الذي يقوله "سفيان" لطلاب العلم على عهده،فليت شعري لو أدرك طلاب العلم الشرعي في زماننا ما عساه أن يقول؟!! .

*ثم تأمل أخي الكريم ، في حال هؤلاء الذين يطلبون العلم لوجه الله تعالى ، كم منهم يعمل بعلمه الذي تعلَّمه ؟!! كم منهم يصلح أن يكون قدوةً في الخير ؟!! كم منهم إذا رأيتهُ ظهرت عليه علامات طالب العلم الصادق ، من الخشية والوقار والسمت الحسن والخشوع لله والزهد في زخارف الدنيا وحفظ اللسان عن اللغو وكثرة الكلام ؟!! إنهم قليلٌ من قليلٍ !! .

*قال"عمران القصير":سألت "الحسن البصري"عن شيءٍ (أي عن مسألة علمية) ، فقلت له :إنَّ الفقهاء يقولون كذا وكذا !!، فقال: وهل رأيت فقيهاً بعينك!! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه!!"(٣).

---

(١) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء"للذهبي (٤/٦١٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٨/٤٦٧) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "الزهد" للإمام "أحمد" .

*قال"بقية بن الوليد"رحمه الله ،واصفاً غربة طلاب العلم الصادقين في زمانه :
" إن أصحاب الحديث(أي طلاب الحديث في زمانه) إذا اشتهى أحدهم الشهوة (أي من أنواع الطعام والشراب) أنفق عليها ثلاثة دراهم !! ، فإذا صار إلى الكتابة (أي كتابة العلم وتقييده) كتب بخطٍ دقيقٍ !! وورقٍ ضعيفٍ !! (أي أنه يبخل أن ينفق مالاً لشراء ورق جيد،بينما يسهُل عليه إنفاق ماله في الأكلات والشهوات)"(١) ، فما أشبه الليلة بالبارحة،فكيف لو أدرك"بقية "زماننا ورأى أكثر طلاب العلم الشرعي في هذا الزمان ، يُنفق أحدهم على شهوات بطنه وفرجه آلاف الريالات، ويبخل إن ينفق ألفاً أو ألفين من الريالات لشراء كتبٍ علميةٍ ، أو مجموعة دروسٍ تربويةٍ إيمانيةٍ نافعةٍ ، لبعض أهل العلم الربانيين !!.

وعلى ذلك فما ورد عن بعض أئمة السلف الكرام ، من أنهم دفنوا كتبهم أو أحرقوها قبل موتهم ، أو أنهم امتنعوا عن تعليم الناس وتحديثهم بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكل هذا محمولٌ على أنهم شعروا بغربة العلم الشرعي ، ولم يجدوا في الطلاب الإخلاص في الطلب ، والجدّية في التحصيل، ورأوا أن هؤلاء الطلاب يطلبون العلم لأجل الدنيا ومناصبها ، فأكرموا العلم الشرعي أن يضعوه في غير موضعه ، وأجلُّوه أن ينشروه ويُعلّموه لغير طلابه الصادقين ، لأنَّ مَن أعطى العلم الشرعي لغير طلابه الصادقين فهو كمَن ينثر الجواهر والدرر بين القاذورات والبَعَرْ،وتلك إهانةٌ لهذا العلم الشريف.

*ولا أجد تعبيراً عن غربة العلمُ الشرعي في هذا الزمان أصدقَ من قول الإمام "جلال الدين الشيرازي"رحمه الله ، المتوفَّى عام ٩١٨هـ واصفاً قلة العلماء الراسخين في عصره بقوله :
" لو علم الأسلاف ، أنه يخلُفُ مِن بعدهم نظائرنا من الأجلاف !! لأوصوا أن تُدفن

(١) : نقلاً عن كتاب"تهذيب تاريخ دمشق".(٣/٢٨٠) .

تُدفن كتبهم معهم في قبورهم ، بل لم يُظهِروا قط ما في صدورهم !! (اي من العلم)"(١) ، فلو أدرك "الشيرازي" زماننا ما عساه أن يقول؟!! .

*وما أجمل قول "أبي الحسن الفالي" رحمه الله، المتوفّى عام ٤٤٨هـ واصفاً حال المدرِّسين للعلم الشرعي في زمانه:

تصدَّر للتدريس كلُّ مُهوَّسٍ ... بليدٍ تَسَمّى بالفقيه المدرِّس
فحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلوا ... ببيتٍ قديمٍ شاع في كل مجلس
لقد هزُلَتْ حتى بدا من هُزالها ... كُلاها وحتى سامها كل مفلِسِ

*وقال رحمه الله واصفاً غربة الطلاب والمتعلمين في عصره:

لما تبدَّلت المجالس أوجُهاً ... غير الذين عهدتُ من علمائها
أنشدتُ بيتاً سائراً مُتقدِّماً ... والعينُ قد شرِقَت بجاري مائها
أما الخيامُ فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار" للعلامة "الأماسي" .

٤٣ اختيار الأوقات المناسبة لطلب العلم

من حكمة الله تبارك وتعالى أنّ درجة حيوية المرء ونشاطه ورغبته وإقباله على طلب العلم وتحصيله ، تتفاوت وتتباين من وقتٍ لآخر ، على مدار اليوم أو الأسبوع أو الشهر ، وعلاوةً على ذلك فإنّ بعض الأوقات يشعر المرء خلالها بروحانيةٍ عجيبةٍ ، وسرعةٍ في الفهم ، وقوةٍ في الحفظ دون بقية الأوقات الأخرى.

فإذا تقرر ذلك ، فاعلم أنه ينبغي لطالب العلم أن يختار لكل وقت ما يُناسبه من المواد العلمية الشرعية ، ويختار الأسلوب المناسب لطلب العلم في ذلك الوقت ، لأنّ وضع الشيء في غير موضعه ، إضاعةٌ للوقت وإهدار للجهد ، فإليك شيئاً من وصايا السلف، في هذا المجال :

*قال"الخطيب البغدادي": " أجود أوقات الحفظ : الأسحار ، ثم وسط النهار ، ثم الغداة ، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشِبَع !! "(١) .

*وهذا الإمام"ابن جماعة" رحمه الله يقول : " الخامس : في آداب المتعلم في نفسه ، أن يُقسّم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره ، فإن بقية العمر لا قيمة له ،.. ، وأجود الأوقات للحفظ : الأسحار ، وللبحث (أي تحقيق المسائل وتحريرها) الأبكار (وهو أول النهار) ، وللكتابة وسط النهار ، وللمطالعة والمذاكرة : الليل "(٢) .

*واستمع إلى"ابن الجوزي" وهو يقول : " ولما كانت القوى تَكَلُّ فتحتاج إلى

---

(١) : نقلاً عن كتاب"الفقيه والمتفقه"للبغدادي (٢/١٠٣) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تذكرة السامع والمتكلم"لابن جماعة .

تجديد ، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لا بدّ منه ، مع أن المهم هو الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين ، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل، ويُوزَّع الباقي بين عمل النسخ والمطالعة، وبين راحة البدن وأخذه لحظّه (أي من الراحة والمباحات) "(١) .

*وهذا"الخليل بن أحمد"رحمه الله يقول :

" أصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السَّحَر !! "(٢) .

* قال"شاه ولي الله الدهلوي"رحمه الله :

"وقت التوجه إلى الله ، هو وقت كون الإنسان خالياً عن التشويشات الطبيعية كالجوع المفرط ، والشبع المفرط ، وغلبة النعاسٌ ، وظهور الكلال (أي التعب) ، والخيالية :كامتلاء السمع بالأراجيف واللغط ، والبصر بالصور المختلفة والألوان المشوشة ، ونحو ذلك من التشويشات "(٣) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان (١/١٧٣) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "حجة الله البالغة" للدهلوي .

٤٤ معرفة كيف صبر السلف على الذلّ والمهانة لأجل طلب العلم

أخي الحبيب ، وأختي العالية : إن أهل الدنيا وأرباب الشهوات ، يصبر الواحد منهم لأجل تحصيل شهوته أو إرضاء معشوقه ومحبوبه ، يصبر على كل لومٍ وعتبٍ يُوجَّه إليه ، ويتحمَّل أقسى كلمات السخرية والاستهزاء ، طمعاً في الوصول إلى معشوقه ، ويرضى بأن يكون عبداً ذليلاً مَهِيناً يُصرِّفه معشوقه كيف شاء !!، ويلهو به كيفما أراد !! .

ولئن كان هذا هو حال أهل الشهوات وعُشاق الصور المحرمة ، فإن هناك عُشاقا من نوعٍ آخر !!،ألا وهم "عُشاق العلم" ، الذين يصبرون في سبيل طلب العلم الشرعي وتحصيله على كل ذلّ ومشقةٍ ومهانةٍ، لأنهم أيقنوا أن الذل في سبيل تحصيل العلم الشرعي هو العزّ الحقيقي ، ولأنهم علموا أنَّ احتمال المهانة لأجله هو الشرف الذي لا يعدلهُ شرفٌ أبداً ، ، وكذا كان سلفنا الكرام يفهمون الأمور ، وبهذا الميزان كانوا يزنونها ، فإليك شيئاً من أخبارهم :

*قال"ابن عباس" رضي الله عنهما : " لما قُبِضَ رسول الله ﷺ وأنا شابٌ ، قلت لشابٍ من الأنصار : هلمَّ فلنسأل أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولنتعلم منهم ، فإنهم اليوم كثيرٌ .

فقال لي : يا عجباً لك يا ابن عباسٍ ؟!!! أترى الناس يحتاجون إليكَ ، وفي الناس من أصحاب الرسول ﷺ مَنْ فيهم ؟! !(أي أنَّ الصحابة كثيرون متوافرون، فلا حاجة لسؤالك عن العلم مع وجودهم) ، قال"ابن عباس" : فتركَ ذلك (أي أعرض عن طلب العلم) ، وأقبلتُ أنا على المسألة (أي سؤال أهل العلم) وتتبع أصحاب الرسول ﷺ ،فإن كنت لآتي الرجل في الحديث، يبلغني أنه سمعه من الرسول ﷺ فأجدهُ قائلاً (أي نائماً نومة القيلولة في نصف النهار)

، فأتوسَّد ردائي على بابه!! (أي أنام على بابه وأجعل عمامتي وسادةً) ، فتسفي الريح على وجهي التراب حتى يخرج !! (أي من منزله للصلاة أو لقضاء حاجة) ، فإذا خرج ورآني قال : يا ابن عمّ الرسول ﷺ ما جاء بك ؟!! هلاً أرسلت إليَّ فآتيك ؟!! فأقول : لا !!! أنا أحق أن آتيكَ !! ، بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن الرسول ﷺ فأحببتُ أن أسمعهُ منكَ !! .

قال"ابن عباس": فكان الرجل (أي ذاك الشاب الأنصاري الذي عرضتُ عليه طلب العلم) بعد ذلك يراني، وقد ذهب أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واجتمع حولي الناس يسألونني ، فيقول: هذا الفتى (أي ابن عباس) كان أعقلَ مني !! "(١) .

* قال"عروة بن الزبير" رحمه الله : " كان يبلغني عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فآتيه فأجده قد قالَ (أي نام القيلولة) !! ، فأجلس على بابه ، فاسأله عنه إذا خرجَ (أي من بيته) !!! "(٢) .

*قال"الشافعي" : " لا يطلب أحدٌ هذا العلم بالكبر وعزّ النفس فيُفلِح !! ، ولكن مَن طلبهُ بذلّ النفس ، وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح !!".

وقال :" لا يُدرَكُ العلم إلا بالصبر على الذل (أي في سبيل تحصيله) "(٣) .

* وهذا"عبد الله بن فرُّوخ القيرواني" رحمه الله يقول : " رحلتُ إلى الكوفة وأكثر أملي السماع من"سليمان بن مهران الأعمش" رحمه الله ، فسألتُ عنه، فقيل لي : غضب على أصحاب الحديث ، فحلف ألا يُسمِعَهم مدةً !! (أي ألا يُحدثهم) .

قال"ابن فروخ": فكنت أذهب إلى باب داره ، فأجلس عند الباب لعلي أصلُ إليه !! فلم أقدر على ذلك !! ، فبينا أنا جالسٌ ذات يومٍ عند بابه ، وأنا أتفكّر في غربتي وما

---

(١) : نقلاً عن كتاب"جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (١/٨٥) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تاريخ الإسلام" للذهبي (٤/٣٢) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"المجموع" للنووي (١/٦٤) .

حُرمته من سماع العلم ،إذ فتحت الباب جارية وخرجتْ . فلما رأتني قالت لي: ما بالك على بابنا ؟!! ، فأخبرتها الخبر ، فسألتني عن بلدي فأخبرتها ، فإذا هي جاريةٌ كانت لنا وهي صغيرةٌ ثم بعناها !! .

فسارعتْ الجارية فدخلتْ على مولاها "الأعمش" وأخبرته خبري وشفعت لي عنده !! ، فأسكنني الأعمش بيتاً قُبالة بيته، وحدَّثني بما عنده من الأحاديث !! ، وقد حَرَمَ سائر الناس من ذلك !!" [1] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"ترتيب المدارك" للقاضي عياض (١١٠/٣) .

٤٥ معرفة ما هو العلم النافع ؟

وضوح الطريق وصفاء المنهج ، وتمايز المفاهيم ، وتحديد المعايير والضوابط ، قضيةٌ مهمةٌ جداً لكل سالكٍ في أيِّ طريق من الطرق ، وعلى ذلك فإنه ينبغي لطالب العلم الصادق ، أن يعرفَ ما هو العلم الشرعي النافع الذي يُوصله إلى خشية الله تعالى ومراقبته ، التي هي رأس العلم وأساسه ، لأننا في زمنٍ اختلطت فيه المفاهيم والتبست فيه المعايير، وتشعَّبت وتعددت فيه الطرق والمناهج ، فكان لزاماً بيان الوجهة الصحيحة ، وتحديد الهدف وتصحيح المفاهيم المغلوطة ، اعتماداً على النبع الصافي والمنهل العذب ألا وهو كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومنهج السلف الأبرار ، حتى تسير القافلة العلمية الشرعية ، على بصيرةٍ ونورٍ من ربها تعالى ، وإليك البيان والتوضيح :

*قال"ابن الجوزي"مبيناً حقيقة العلم النافع ، وهي أنه : " متى ما حصلَ ، أوجبَ معرفة المعبود عزَّ وجلَّ، وحرَّك إلى خدمته (أي إلى عبادة الله) بمقتضى ما شرعه وأحبَّه ، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص !! "(١) .

* قال "مجاهد بن جبر" : " الفقيه من يخاف الله ، وإنْ قلَّ علمهُ ، والجاهل مَن عصى الله ، وإنْ كَثُرَ علمهُ !! "(٢) .

*قال"ابن الجوزي":"رأيت جماعةً من العلماء يعصون الله ، ويظنون أنَّ العلم يدفع عنهم !! ، وما يدرون أنَّ العلم خَصمُهم ،...، فتفكرتُ فإذا العلم الذي

---

(١) : نقلاً عن كتاب"صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب" البداية والنهاية" لابن كثير (٢٢٨/٩) .

هو معرفة الحقائق والنظر في سِيَرِ القدماء (أي السلف) ، والتأدب بآداب القوم (أي أخلاقهم) ، ومعرفة الحق (أي الرب تبارك وتعالى) ، وما يجب له، ليس عند القوم !! (أي ليس عند هؤلاء العلماء الذين يعصون الله) ، وإنما عندهم صور ألفاظٍ يعرفون بها ما يحلُّ وما يحرم !! ، وليس كذلك العلم النافع !! .

إنما هو فهم الأصول ، ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه ، والنظر في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، والتأدب بآدابهم ، وفهم ما نُقِلَ عنهم ، وهو العلم النافع الذي يدع أعظمَ العلماء ، أحقر عند نفسه من أجهل الجهَّال !! ،... ، "(١) .

* وهذا "ابن رجب الحنبلي" يقول واصفاً لنا حقيقة العلم النافع :

"العلم النافع يدل على أمرين ، أحدهما : على معرفة الله تعالى ، وما يستحقه من الأسماء الحسنى ، والصفات العُلى ، والأفعال الباهرة ، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه ، والتوكل عليه والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني :المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه ، من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال ، فيُوجب ذلك لِمَنْ عَلِمَهُ المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه ، والتباعد عما يكرهه ويسخطه ، فإذا أثمَرَ العلم لصاحبه هذا فهو علمٌ نافعٌ ، ومتى كان العلم نافعاً ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وذلّ وانكسر له ، وقنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به ، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا،.."(٢) .

*قال"ابن القيم": "قال"حماد بن زيد" : قلت"لأيوب السختياني" : العلم اليومَ أكثر أو

---

(١) : نقلاً عن كتاب "صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"فضل علم السلف على علم الخلف" لابن رجب .

فيما تقدَّم ؟!! فقال : الكلام اليوم أكثر !! ، والعلم فيما تقدم أكثر !!!".

ففرَّق هذا الراسخ (أي أيوب السختياني) بين العلم والكلام ، فالكتب كثيرةٌ جداً، والكلام والجدال والمقدَّرات الذهنية كثيرةٌ !! ، والعلم بمعزلٍ عن إكثرها ، وهو ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ، وأكثر ما عند الناس كلامٌ وآراءٌ وخَرصٌ (أي ظنون وأوهام) ،والعلم من وراء الكلام!! "[١] .

*قال"عبد الله بن الإمام أحمد" : قلت لأبي : هل كان مع "معروف الكرخي" شيءٌ من العلم ؟!! فقال لي: يا بُنيَّ كان معه رأس العلم !! خشيةالله تعالى "[٢].

*واستمع إلى"ابن القيم" وهو يقول:"أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن ورسوله ﷺ نفس المراد ، وعلمُ حدود المُنزَّل، وأخسُّ همم طلاب العلم مَنْ قصر همته على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل ، ولا هو واقعٌ ، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس ، وليس له همَّة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقلَّ أن ينتفع واحدٌ من هؤلاء بعلمه !!"[٣] .

*فإنْ قلتَ: ما مراد"ابن القيم" بقوله" وعلم حدود المنزَّل" ؟!! فأقول : استمع إليه وهو يجيبك فيقول : " أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي ، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود حتى لا يُدخِل فيها ما ليس منها ، ولا يُخرِج منها ما هو داخلٌ فيها .

قال تعالى : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِه ﴾[٤]، ولا يمكن معرفة ذلك إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة الموصلين إلى الله تعالى "[٥] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " الفوائد " لابن القيم .

(٢) : نقلاً عن كتاب " فضل علم السلف على علم الخلف " لابن رجب الحنبلي .

(٣) : نقلاً عن كتاب"الفوائد" لابن القيم .

(٤) : سورة التوبة الآية (٩٧) .

(٥) : نقلاً عن كتاب " الفوائد " لابن القيم .

*حين ذُكِر في مجلس الإمام"أحمد بن حنبل" العبد الصالح"معروف الكرخي"، فقال بعض الحاضرين: هو قصير العلم، فقال"أحمد":أمسك عافاك الله !! وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروفٌ ؟!! (أي من التقوى وخشية الله ومراقبته)"(١) .

*قال"ابن رجب" : " والعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها ، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، في معاني القران والحديث وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك ، والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولاً ، ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهُّمِه ثانياً ، وفي ذلك كفايةٌ لمن عقل ، ولمن بالعلم النافع عُنيَ واشتغل ، ومَن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله ، واستعان به عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهَّمه وألهمه ، وحينئذٍ يُثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة، وهي خشية الله تعالى ، ... ، .

وأما ما كان مخالفاً لكلامهم (أي لكلام الصحابة والتابعين) فأكثره باطلٌ أو لا منفعة فيه ، وفي كلامهم في ذلك كفايةٌ وزيادةٌ ، فلا يوجد في كلامِ مَن بعدهم من حقٍ إلا وهو في كلامهم موجودٌ ، بأوجز لفظٍ وأخصر عبارةٍ ، ... ، فأفضل العلوم في نفسير القران معاني الحديث والكلام في الحلال والحرام ، ما كان مأثوراً عن الصحابة والتابعين تابعيهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلامِ المشهورين المقتدَى بهم ، ... ، فقد كانوا رحمهم لله يحرصون على ملازمة السنة واتباع الآثار:

حتى قال"سفيان الثوري":إن استطعتَ ألا تحكَّ رأسك إلا بأثرٍ فافعل !!".

وقال "زيد بن أخزم": سمعت" عبد الله بن داود" يقول : " ينبغي للرجل أن يُكرِه لده على سماع الحديث ، وكان يقول : ليس الدين بالكلام وإنما الدين بالآثار !! .

---

١) : نقلاً عن كتاب " فضل علم السلف على علم الخلف" لابن رجب الحنبلي .

ولما أعرض كثيرٌ من العلماء عن المنقولات ، ابتدعوا في الأصول والفروع، فالأصوليون تشاغلوا بالكلام وأخذوه من الفلاسفة ، وعلماء المنطق ، ودخلتْ أيدي الفروعيين في ذلك ، فتشاغلوا بالجدل وتركوا الحديث الذي يدور عليه الحكم ، ... ، فأما الأئمة وفقهاء أهل الحديث فإنهم يتّبعون الحديث حيث كان إذا كان معمولاً به عند الصحابة ومَن بعدهم ، أو عند طائفةٍ منهم"(١) .

*ويلخص لنا "ابن رجب "حقيقة العلم النافع بقوله :

"فأفضل العلم : العلم بالله الذي يُوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه.

ثم يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبه ويرضاه من العبد من قولٍ أو عملٍ أو حالٍ أو اعتقادٍ ، فمَن تحقق بهذين العلمين كان علمه علماً نافعاً، وحصل له العلم النافع ، والقلب الخاشع ، والنفس القانعة والدعاء المسموع "(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " فضل علم السلف" لابن رجب الحنبلي .

(٢) : نقلاً عن نفس المصدر السابق .

٤٦ التدرّج في اختيار العلوم والكتب الشرعية

بعض الناس قد تكون لديه همّةٌ عالية لطلب العلم الشرعي وتحصيله ، فتراه أول ما يبتدئ في الطلب يُحضِر كتاب "المغني" لابن قدامة أو "مجموع الفتاوى" لابن تيمية ، أو كتاب "فتح الباريء" لابن حجر ، ويعزم على العكوف على هذه الكتب الكبار ، وهو يظن أنه سيتمكن من إنهائها في شهر أو شهرين ليصبح عالماً مُتبحّراً في العلم الشرعي ، لكنه ما يكاد يفتح أحد هذه "الموسوعات السلفية" ويقرأ فيها ، إلا ويشعر أنه أمام مصطلحات وكلمات ورموز لا يعرف معناها !! ، ويشعر بأنه لا يفهم شيئا مما يقرأهُ !! .

فتكون النتيجة الحتمية هي أن يدع طلب العلم وتحصيله وينفر منه وربما إلى الأبد !! ، والخطأ الكبير الذي وقع فيه هذا الشخص ، هو أنه أراد أن يصعد سلم العلم الشرعي دفعةً واحدةً ، فوقع وسقط وانكسرت همته وحماسته للعلم ، وكان المتعيّن عليه أن يصعد سلّم العلم درجةً درجةً ، ويتدرّج قليلاً قليلاً ابتداءً بالكتب الصغيرة ، ثم ينتقل إلى المتوسطة ، حتى يصل في نهاية المطاف إلى الكتب الكبيرة والموسوعات الضخمة ، ومَنْ استعجل الشيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه وعدم الحصول عليه .

فإن قلت لي : فهلا أرشدتني إلى منهجٍ متدرّج في القراءة والتحصيل العلمي !! فأقول لك: نعم ونُعمى عينٍ ، فتدبر ما يلي:

١ ـ في القرآن الكريم : أقترح أن يحدد طالب العلم الشرعي لنفسه مقداراً معيناً من القران يحفظه كل يوم، وليكن هذا المقدار وجهاً كاملا من القرآن أو نصف وجه أو عشر آيات على الأقل ، ويا حبذا لو كان الحفظ على

يد شيخٍ متقن لتلاوة كتاب الله تعالى ، فـإنْ لم يتيسـر ذلـك فليـكن الحفـظ بالتعاون مع أحد الـزملاء الـجـادين،فـإنَّ ذلـك مما يـقوي الـهمة ويشحذ العزيمة للحفظ، وليحرص الطالب على مراجعة مـا حفظه مـن القرآن باستمرار، وليُكثِر من قراءة الآيات التي حفظها في النوافـل وفي قيـام الليـل،فـإنَّ هذا مما يساعد على ثبات المحفوظ ورسـوخه في الذهـن.

٢ ـ *في علم التفسير* : أقترح على الطالب أن يقـوم كـل يـوم بقـراءة تفسير الآيات التي ينوي حفظها في ذلك اليوم فـإنَّ معرفـة المعـاني تسـاعد علـى الحفظ،ثم بعد حفظ تلك الآيات يقـوم بإعـادة قـراءة تفسـيرها مـرةً أخـرى ، لتثبتَ المعاني في الذهن ، واقترح أن يبدأ الطالب في علـم التفسـير بـأحد هذيـن الكتابين : إما "تفسير البغوي" للإمام"البغوي" رحمـه الله ، وهـو مـن أئمـة أهـل السنة الكرام ، أو كتاب"زبدة التفسير" للشـيخ"محمـد سـليمان الأشـقر" ، ثـم ينتقل بعد ذلك إلى تفسير"تيسير اللطيف المنّان"للشـيخ السـعدي رحمـه الله ، ثـم ينتقل بعد ذلك إلى تفسير"فتح القديـر"للشـوكاني رحمـه الله ، ثـم تفسـير "ابـن كثير" للحافظ"ابن كثير الدمشقي" رحمـه الله ، ثـم ينتقـل بعـد ذلـك إلى كتـب التفسير المطوّلة مثل"تفسير ابن جريـر الطـبري"رحمـه الله ، وتفسـير "القرطـبي" رحمه الله ، وغيرهما من موسوعات التفسـير الكبـار.

٣ ـ *في علم الحديث النبوي وفقهه* : أقـترح أن يُخصـص الطـالب لنفسه مقدارا معيناً من الأحاديث النبوية يحفظها كل يوم وليكـن هـذا المقـدار مـا بين ٣ ـ ٥ أحاديث يومياً،وإنْ تيسر الحفظ على يد شـيخٍ متقـنٍ لعلـم الحديـث وللغة العربية فهذا هو المُبتَغى،وإلا فليكـن الحفـظ مـع زميـلٍ نـاصح جـادٍّ في تحصيل العلم ليشدَّ كلٌ منكما من أزر الآخـر وهمّتـه.

وأقـترح أن تكـون بداية الحفظ في كـتـاب"الأربعين النووية"للنووي

رحمه الله ،وتتمتها للحافظ"ابن رجب" رحمه الله ، مع قراءة شرح الأحاديث التي تُحفَظ من كتابٍ مُختصرٍ ، كشرح الإمام "ابن دقيق العيد" للأربعين النووية ، وبعد الانتهاء من حفظ"الأربعين النووية"،يتم الانتقال إلى كتاب"عمدة الأحكام" في الحديث ،للحافظ"عبد الغني المقدسي"رحمه الله ، فيحفظ منه الطالب يومياً ما بين ٣ـ٥ أحاديث مع قراءة شرحها في كتاب"فتح العلاَّم شرح عمدة الأحكام"للشيخ البسام ، وبعد الانتهاء من كتاب "العمدة" يتم الانتقال إلى كتاب"بلوغ المرام من أدلة الأحكام" للحافظ "ابن حجر" مع قراءة شرحه المسمَّى"سُبل السلام "للصنعاني ، أو شرح الشيخ البسَّام لكتاب"بلوغ المرام" ، ثم بعد ذلك ينتقل الطالب إلى الحفظ في كتاب"المنتقى" للمجد ابن تيمية رحمه الله ، مع شرحه المسمَّى"نيل الأوطار من منتقى الأخبار"للشوكاني ، ثم بعد ذلك يتم الانتقال إلى كتاب"جامع العلوم والحكم" لابن رجب .

وبعد ذلك يتم الانتقال إلى قراءة أو حفظ دواوين السنَّة الكبار مع شروحها ، فيبدأ الطالب "بصحيح البخاري" مع شرحه"فتح الباري" لابن حجر العسقلاني"، ثم ينتقل إلى"صحيح مسلم" مع شرحه"للنووي"، ثم ينتقل إلى"سنن أبي داود" مع شرحها المسمَّى"عون المعبود شرح سنن أبي داود "للعظيم آبادي"،ثم ينتقل إلى"سنن الترمذي"مع شرحها المسمَّى "تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي" للمباركفوري ، ثم "سنن النسائي" و"سنن ابن ماجه" و"مسند الإمام"أحمد"مع شرحه المسمَّى"الفتح الرباني"للساعاتي، إلى غير ذلك من كتب السنَّة ودواوينها الكبار.

٤ ـ <u>في علم التوحيد</u> : أقترح أن يبدأ الطالب بكتاب"الأصول الثلاثة" للشيخ"محمد بن عبد الوهاب"رحمه الله ، مع شرحه للشيخ"ابن عثيمين"،ثم

ينتقل إلى كتاب"أعلام السنّة المنشورة" للشيخ"حافظ الحكمي" رحمه الله ، ثم ينتقل إلى كتاب"لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد" للمقدسي مع شرحه للشيخ"ابن جبرين"،ثم ينتقل إلى كتاب"التوحيد" للشيخ"محمد بن عبد الوهاب" مع شرحه المسمى"فتح المجيد شرح كتاب التوحيد" أو شرح الشيخ"ابن عثيمين" المسمى"القول المفيد شرح كتاب التوحيد"،ثم ينتقل الطالب بعد ذلك إلى كتاب "القواعد المثلى في شرح أسماء الله وصفاته الحسنى"للشيخ" ابن عثيمين" ، وقد شرحه الشيخ في مجموعة أشرطة نافعة فليحرص الطالب على الاستماع إليها، ثم ينتقل الطالب إلى كتاب"العقيدة الواسطية" لشيخ الإسلام"ابن تيمية" رحمه الله، مع شرحها للشيخ"ابن عثيمين".

ثم ينتقل الطالب إلى كتب العقيدة الكبار مثل "العقيدة التدمرية" لابن تيمية، و"العقيدة الطحاوية"لأبي جعفر الطحاوي"رحمه الله ، مع شرحها"لابن أبي العز"، ومثل كتاب "السنّة" لابن بطّة ، وكتاب"أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة "لـ"اللالكائي"رحمهم الله أجمعين .

٥ ـ ***في علم الفقه*** : أقترح أن يخصص الطالب لنفسه مقداراً معيناً من المسائل الفقهية يفهمها ويضبطها كل يوم وليكن هذا المقدار ما بين ٤ ـ ٧ مسائل يومياً ، وأقترح أن يبدأ الطالب بكتاب"الدرر البهية"للشوكاني،ثم ينتقل إلى سماع أشرطة"فتاوى نور على الدرب"لابن باز" و"ابن عثيمين" ، ثم ينتقل إلى كتاب"االشرح الممتع على زاد المستقنع" للشيخ "ابن عثيمين"، ثم ينتقل إلى كتاب"المقنع"لابن قدامة المقدسي رحمه الله ، ثم ينتقل إلى كتب الفقه المقارن والموسوعات الفقهية مثل كتاب"المغني"لابن قدامة ، وكتاب "المجموع شرح المهذّب" للنووي ، عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه .

٦ ـ ***في السيرة النبوية*** : أقترح أن يبدأ الطالب بقراءة كتاب"الرحيق المختوم "

للمباركفوري، ثم ينتقل إلى كتاب"هذا الحبيب يا محب" للجزائري ، ثم ينتقل إلى كتاب "السيرة النبوية" "لابن كثير"،ثم ينتقل إلى كتاب"زاد المعاد" "لابن القيم"رحمهما الله .

٧ ـ في التاريخ والتراجم والأخبار : أقترح أن يبدأ الطالب بقراءة كتاب"صور من حياة الصحابة" للأستاذ:عبد الرحمن رأفت الباشا، ثم كتاب"صور من حياة التابعين" لنفس المؤلف،ثم كتاب"الرّقة والبكاء"لابن قدامة،،ثم كتاب"الزهد "للإمام "أحمد"،ثم ينتفل إلى كتاب" البداية والنهاية"لابن كثير،ثم ينتقل إلى كتاب"سير أعلام النبلاء"للحافظ "الذهبي"، ثم كتاب"تاريخ بغداد"للخطيب البغدادي رحمه الله ، وغير ذلك من كتب السير والتراجم والأخبار والتواريخ .

٨ ـ الكتب التربوية والإيمانية : أقترح أن يبدأ الطالب بقراءة كتاب "التبيان في آداب حملة القرآن"للنووي ، ثم ينتقل إلى كتاب"مختصر منهاج القاصدين"للمقدسي ، ثم ينتقل إلى كتاب"استنشاق نسيم الأنس" لابن رجب ، ثم ينتقل إلى كتاب"الفرائد" لابن القيم ، ثم ينتقل إلى كتاب"صيد الخاطر"لابن الجوزي ، ثم ينتقل إلى كتاب"الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" لابن القيم ، ثم كتاب"التخويف من النار"لابن رجب ، ثم ينتقل للكتب الكبار مثل "مدارج السالكين"لابن القيم، وغيرُ ذلك من الكتب الإيمانية النافعة.

هذه الأقسام السبعة هي الركائز الأساسية في بناء شخصية الطالب الإيمانية والعلمية، وأما العلوم الأخرى التي تُعرف عند العلماء "بعلوم الآلة" كعلم النحو وعلم أصول الفقه وعلم مصطلح الحديث، فأقترح ألا يشتغل الطالب بها في بدايات الطلب لأنها علومٌ صعبةٌ نسبياً فربما لو شرع فيها

الطالب وهو لا زال في بدايات الطلب لوجدها عسيرةً وصعبةً فينفر عن طلب العلم الشرعي ويدعهُ بالكلية ، ولكن ليؤجلها إلى الوقت المناسب.

فإن قلت لي:قد عرفتُ الآن ماهي الكتب المناسبة للقراءة في كل فنٍّ من الفنون وعلمٍ من العلوم،ولكن كيف أقرأ هذه الكتب؟! ما هي الطريقة المثلى لتحصيل أكبر فائدةٍ منها ؟!! .

فأقول لك : اقرأ الطريقة رقم (٧٤) وستجد فيها الجواب عن سؤالك.

٤٧ معرفة كيف آثر السلف العلم على زوجاتهم وأولادهم وأصدقائهم

الكتاب الذي يُصنفهُ العالم هو ولده المخلَّد بعد موته ، إنَّه ولدٌ لا يجد منه أبوه عقوقاً ولا عصياناً،إنه ولدٌ بارٌ بأبيه حال حياته،فإذا مات الأب حمل اسمه مِن بعده وأبقى له الذكر الجميل والثناء الحسن بين الناس .

والكتب هي زوجات العالم اللاتي يتنقل بينهن ويبيت كل ليلةٍ مع إحداهنَّ ساهراً الليل ، يفتض أبكار الحِكَم والمعاني . فهو يعيش مع هؤلاء الزوجات ، أرغد عيش وأنعمهُ !! ، فلا غيرة بينهنَّ ، ولا حسد ولا بغضاء ولا مكائد ، ولا مشاكل على الإطلاق .

والكتاب هو خير صديقٍ للمرء ، فهو أنيسه في الخلوة ، ورفيقه في الجلوة ، لا يغتابه ولا ينمُّ عليه ، ولا يسعى بنميمةٍ إليه ، فإنْ نزلتْ بالمرء ضائقةٌ ماليةٌ ، ضحَّى هذا الصديق بنفسه لأجل صديقه ، ورضي بأن يُباعَ في الأسواق لتفريج كُربة صاحبه ، ولما عقل السلف الكرام هذه المعاني العظام كانوا يُؤثرون العلم الشرعي وتحصيله ، على الزوجات والأولاد والأصدقاء ، فاسمع أخبارهم فإنها عجبٌ عُجابٌ لو رأتْ عيناكَ :

* هذا"ابن خلكان" يقول:كان "محمد بن شهاب الزهري" الإمام المحدّث الكبير، إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله !!(أي وجعل يقرأ فيها) فينشغل بها عن كل شيءٍ من أمور الدنيا (أي، من الزوجة والأولاد والمال) ، فقالت له امرأته يوماً : واللهِ لهذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر !! (أي أنها غارتْ من شدة محبة الزهري للكتب وحرصه على العلم) "(١) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " وفيات الأعيان" لابن خلكان (٣/٣١٧) .

*تزوَّج"عبد الله بن القاسم العتكي" رحمه الله بابنة عمه ، فحملت منه وأراد السفر إلى المدينة النبوية لطلب العلم على يد الإمام"مالك بن أنس" ، وكان ينوي البقاء عند "مالك" مدةً طويلةً ليطلب العلم على يديه ، فأخبرَ زوجته برغبته تلك !! ، ولئلا يظلمها خيَّرها بين أنْ يُطلِّقها ويُفارقها لتتزوج من تشاء !! ، وبين أن تنتظر عودته بعد سنين ، الله أعلم كم ستكون ؟!! ، فاختارت البقاء زوجةً له ، فترك لديها ما تيسَّر من المال ، ثم رحَل وزوجته حامل إلى المدينة !! وبقي عند الإمام"مالك" سبع عشرة سنةً متواصلةً لا يعرف عن زوجته وولده شيئاً !! .

قال"ابن القاسم : وأنختُ بباب مالك سبع عشرة سنةً ، ما بِعتُ فيها ولا اشتريت شيئاً، فبينا أنا عنده ذات يوم إذ أقبل حُجَّاجُ مصر ، فإذا شابٌ متلثمٌ قد دخل علينا ونحن في المسجد، فسلَّم على "مالك" وقال : أفيكم ابن القاسم ؟!! فأشاروا إليَّ ، فأخذ يُقبِّل ما بين عينيَّ !! ، ووجدتُ منه رائحةً طيبةً ، فإذا هي رائحة الولد !!، وإذا هو ابني الذي تركت أمه حاملاً به !! قد شبَّ وكَبُرَ وصار رجلاً !! "(١) .

*قال"الزبير بن بكَّار" رحمه الله : " قالت ابنة أخي لأهلنا : خالي خير رجلٍ لأهله !!(أي لزوجته) ، لا يتخذ ضرَّةً !!، ولا يشتري جاريةً!! ، فقالت امرأة"الزبير": لهذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر وأصعب!!"(٢) .

*قال الإمام"إبراهيم الحربي" رحمه الله:" أصابتني ضائقةٌ ماليةٌ ذات مرة، إلى أن انتهى الأمر إلى أن عَدِمَ عيالي قوتهم وطعامهم !! ، فقالت لي زوجتي : هبْ أني وإياك نصبر على الجوع ، فكيف بهاتين الصبيتين ؟!! فإنهما لا تصبران

---

(١) : نقلاً عن كتاب " ترتيب المدارك" للقاضي عياض (٣ /٢٥٠) (بتصرف) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تاريخ بغداد"للبغدادي (٨/٤٧١) .

على ما نصبر عليه ، فهات شيئاً من كتبك حتى نبيعه أو نرهنهُ !! ونشتري به طعاماً، فرفضتُ ذلك، وبخلتُ بكتبي أن أبيعها ، وقلت لها : اقترضي لهما بعض الطعام، وأمهليني بقية اليوم والليلة فلعل الله يأتي بالفرج من عنده !!.

قال "الحربي": فبينما أنا في غرفة الكتب للمطالعة والنسخ ، إذ طرقَ الباب طارقٌ، فقلت : مَنْ هذا ؟!! ... فقال : رجلٌ من الجيران ، فقلت : ادخل !! فقال : أطفئ السراج حتى أدخل !! ، فأطفأتُ السراج فدخل ووضع صُرَّةً كبيرةً كانت معه ، وقال لي : إنا أصلحنا لصبياننا طعاماً ، فأحببنا أن يكون لك ولصبيانك فيه نصيبٌ !! ، ثم قال الرجل: وهذا شيءٌ آخر فوضعهُ إلى جانب الصُرَّة الكبيرة ، وقال : استعنْ به على حوائجك !! ، ثم انصرف الرجل وتركني وأنا لا أعرفه !!.

فدعوتُ الزوجة وقلتُ لها : أسرجي المصباح فأسرجتهُ ، فإذا الصُرة الكبيرة منديلٌ فيه خمسون وسَطَاً (أي منديلاً صغيراً) في كل وَسَطٍ لونٌ من ألوان الطعام !! ، وإلى جانب الصُرة كيسٌ فيه ألف دينار، فقلت للزوجة : أيقظي الصبيان حتى يأكلوا ، وقضينا من تلك الدنانير ديناً كان علينا !!" [١].

*قال القاضي "عياض" في ترجمة الإمام الفقيه "أبي عمر أحمد بن عبد الملك الأشبيلي" المعروف "بابن المكْوِيّ" رحمه الله :

"وكان قد حُبب إليه الدرس مدة عمره !! ، لا يفتر عنه ليلهُ ونهارهُ !! ، وجُعِلت فيه لذتهُ !! ، وقد ذُكِرَ أنَّ صديقاً له قصده في عيدٍ زائراً له ، فأصابه داخل داره ، ودربه مفتوحٌ (أي كان باب الدار مفتوحاً) فجلس ينتظرهُ (أي ليخرج إليه) فأبطأ عنه ، فأوصى إليه (أي أرسل إليه شخصاً ليخرج إليه) فخرج وهو ينظر في كتابٍ!! ، فلم يشعر (أي ابن المكوي) بصديقه حتى عَثَرَ فيه !! (أي اصطدم به)

---

(١) : نقلاً عن كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي (٦/٣١) .

لاشتغال باله بالكتاب !! ، فتنبَّه حينئذ لـــه وسـلَّم عليــه !! ، واعتـــذر لــه مــن احتباسه (أي تأخره عن مقابلته) بشُغلهِ بمسألةٍ عويصـــةٍ لم يمكنـــه تركهـــا ، حتـــى فتحهـــا الله عليه وفهَّمهُ إياهـــا !! .

فقال له الرجل : في أيام عيدٍ، ووقت راحةٍ مســـنونةٍ ؟!! (أي أتطلب العلم حتـى في أيـام العيد ؟) ، فقال له"ابن المكوي" : إذا عَلَتْ هـــذه النفـــس ، انصبَّـــت إلى المعرفـــة !! (أي القراءة والتعلم)،و ما لي راحةٌ ولا لذةٌ في غير النظـــر والقـــراءة"(١) .

*قـــال الإمام"محمد بن طاهر المقدسي" رحمه الله : " كنتُ يومـــا أقـــرأ علـــى"أبـــي إسحاق"الحبَّال" بمصر جزءاً (أي مـن أحـاديث الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام) فجـــاءني رجلٌ من أهل بلدي من بيت المقدس، وأسرَّ إليَّ كلامـــا قـــال فيـــه : إنَّ أخـــاك قـــد وصل إلى الشام !! ــ وذلك بعد دخـــول الأتراك بيـــت المقـــدس ، وقتـــل النـــاس بها ــ فواصلتُ القـــراءة !! .

فقال لي"أبو إسحاق : ما لكَ ؟!! ... قلتُ : خيرٌ !! ، قـــال: لابـــدَّ أن تخـــبرني مـــا قال لك هذا الرجل ، فأخبرته بقدوم أخي سالماً ونجاتـــه مـــن القتـــل علـــى أيـــدي الترك !! ، فقال لي : كم لك لم ترَ أخاكَ ؟!! ... فقلـــت لـــه : ســـنين !! ، فقـــال: ولِمَ لا تذهب إليه ؟!! (أي الآن ما دام قد وصل إلى هنا ولم تـره منـذ سـنين) .

فقلتُ : حتى أُتمَّ الجزء !! (أي لا أذهب إليه حتـى أفـرغ مـن قـراءة هـذا الجـزء مـن الحديـث)

فقال : ما أعظم حرصكم يا أصحاب الحديث !! ثـــم قـــال :

قد تمَّ المجلس وصلى الله على محمد وآله وصحبـــه ، وانصـــرفَ عـــني "(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " ترتيب المدارك" للقاضي عياض (٤/٦٣٦) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"لسان الميزان" للحافظ ابن حجر (٥/٢٠٨) .

٤٨ التأمل في وصف العلماء وطلاب العلم الربانيين

الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، وقد رسم الرب تعالى لنا صورةً مشرقةً وضّاءةً لأهل العلم الربانيين ، تطرب لها القلوب وتشتاق لتحصيلها النفوس ، وتتابع سلفنا الكرام في توضيح وتفصيل جوانب تلك الصورة المتلالئة المتألقة ، فتعال بنا أخي الكريم نتأمل جوانب تلك الصورة المشرقة ، لعلنا أن نكون من أهلها:

*وصف الرب تعالى العلماء الربانيين بالخشية والخوف منه سبحانه ،فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(١) .

* قال"الحسن البصري" في وصف العالم الرباني:"هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله،هذا خيرة الله ، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته،ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته،وعمل صالحا في إجابته، وقال :إنني من المسلمين ، هذا خليفة الله "(٢) .

* قال"ابن القيم" واصفا العالم وطالب العلم الرباني: "هو مَن عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صَدَق الله في معاملته ، ثم أخلص له في مقصوده ونيّاته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهَّر من أوساخه وأدرانه ومُخالفاته ، ثم صبر على أحكام الله في نعمائه وبليّاته ، ثم دعا إليه

---

(١) : سورة الإسراء الآيات (١٠٧،١٠٨،١٠٩) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تفسير ابن كثير" للحافظ"ابن كثير الدمشقي (٤/١٠٠) .

على بصيرة بدينه وآياته ، ثم جرَّد الدعوة إليه وحده بما جاء عن رسوله عليه الصلاة والسلام، ولم يَشُبْها (أي يخلطها) بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ،...

وليس له من نفسه إلا ما جعلها حبساً على مراد الله الديني الأمري النبوي ، وبذلها لله في إقامة دينه ، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي، فانغمس فيهم يُمزِقون أديمه ، ويرمونه بالعظائم، ويُخيفونه بأنواع المخاوف ، ويتطلّبون دمه بجهدهم، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم ، يصدع بالحق عند مَن يخافه ويرجوه ، قد زَهِدَ في مدحهم وثنائهم وتعظيمهم ، يصيح فيهم بالنصائح جهاراً ، ويُعلِن لهم بها ، ويُسِرُّ لهم إسراراً ، قد تحرر من كل شيءٍ ما سوى الله ، وتعلَّق بمراضي الحيّ القيوم ، مقامهُ ساعةً في جهاد أعداء الله ، ورباطه ليلةً على ثغر الإيمان ، آثَرُ عنده وأحبُّ إليه من جميع ما طلعتْ عليه الشمس ، ولولا هذه الهموم ما أحب العيش ، والبقاء لحظةً واحدةً !!"(١) .

*قال الإمام"أبو عبد الله الحاكم النيسابوري" رحمه الله ، واصفاً حال أهل العلم الصادقين : " هم قومٌ سلكوا محجَة الصالحين ، واتبعوا آثار السلف من الماضين،ودمغوا أهل البدع والمخالفين ، بسنن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله أجمعين ،آثروا قطع المفاوز والقِفار (أي الصحاري والأراضي الموحشة) ، على التنعم في الدمن والأوطار ، وتنعَّموا بالبؤس في الأسفار،مع مُساكنة أهل العلم والأخبار، وقنِعوا عند جمع الأحاديث والآثار، بوجود الكِسَر والأطمار (أي قنعوا من الدنيا بقليل الطعام واللباس)،جعلوا المساجد بيوتهم ، وأساطينها (أي أعمدتها وسواريها) تكاياهم!!(أي متكآتهم التي يستندون عليها) ، وبواريها (أي حُصُرَها وفُرُشَها) فُرُشَهم !! (أي التي ينامون عليها) ، نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم ، وجعلوا

---

(١) : نقلاً عن كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم (٤٧/٢) .

غذاءهم الكتابة، وسَمَرَهم المعارضة (أي تصحيح ما كتبوه من العلم) ، واستراوحهم (أي راحتهم ونُزهتهم) المذاكرة!! ، وخَلُوقهم(أي طيبهم وعطرهم) المداد !! (أي حبر الكتابة)، ونومهم السُّهاد (أي السهر على طلب العلم) ، واصطلاءهم الضياء، وتوسُّدهم (أي وسادتهم التي ينامون عليها) الحصى ، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاءٌ !! ، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤسٌ !! ، فعقولهم بلذاذة السنَّة غامرة !! ، وقلوبهم بالرضا في الأحوال عامرة !!، تعلُّم السنن سرورهم ، ومجالس العلم حبورهم (أي سعادتهم وسرورهم) ، وأهل السنَّة قاطبةً إخوانهم ، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم"(١) .

* قال"ابن الأعرابي" رحمه الله في تفسير"الرباني":" إذا كان الرجل عالماً عاملاً مُعلِّماً قيل له :رباني ،فإنْ حُرِمَ عن خصلةٍ منها لم نقل له :ربانياً"(٢) .

*وهذا"ابن القيم" يقول واصفا العلماء الربانيين : " هم مَن اهتدى بهم الحائر، وسارَ بهم (أي في طريق الخير والهداية) الواقف !! ، وأَقبَلَ بهم (أي إلى الخير) المُعرِض، وكَمُلَ بهم الناقص ، ورجع بهم (أي إلى الحق) الناكص ، وتقَوَّى بهم (أي قوة الإيمان) الضعيف ، هؤلاء هم خلفاء الرسل حقاً، وهم أولوا الصبر واليقين ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٣)، فنالوا إمامة الدين بالصبر واليقين"(٤) .

*وهذا"منصور بن عمار" رحمه الواعظ المشهور يقول واصفاً حال أهل العلم الربانيين : "الحمد لله المنعم المنَّان ،...، ووكَّل بالآثار المفسِّرة للقرآن، والسنن

---

(١) : نقلاً عن كتاب"معرفة علوم الحديث" للحاكم النيسابوري .

(٢) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٩٠) .

(٣) : سورة السجدة الآية (٢٤) .

(٤) : نقلاً عن كتاب " مدارج السالكين "لابن القيم (٣/٣٠٤) .

القوية الأركان، عصابةً(أي جماعة) مُنتخبـــةً، وفَّقهـم لطِلابِهـا وكتابتهـا ، وقوَّاهـم على رعايتها وحراستها ، وحبـب إليهـم قراءتهـا ودراسـتها ، وهـوَّن عليهـم الدأب والكَلال (أي التعب) ، والحِـلَّ والترحيـال ، وبـذل النفـس مـع الأمـوال، وركوب المخاوف من الأهوال ، فهم يرحلون مـن بـلادٍ إلى بـلادٍ ، خـائضين في العلم كل وادٍ ، شُعث الرؤوس خُلقـانَ الثيـاب ، خُمـصَ البطـون (أي جوعـى) ، ذُبلَ الشفاه ، شُحبَ الألوان ، نُحّلَ الأبدان (أي أبدانهـم هزيلـة مـن شـدة التعـب) ، قـد جعلوا لهم هماًّ واحداً ، ورضوا بالعلم دليلاً ورائـداً ، لا يقطعهـم عنـه جـوعٌ ولا ظمأ ، ولا يُمِلُّهم منه صيـفٌ ولا شـتاء !! ،... .

فلو رأيتهم في ليلهم ، وقد انتصبوا لنسخ ما سمعوا،وتصْحيـح مـا جمعـوا، هـاجرين الفرش الوطيَّ ، والمضجع الشهي ، غشـيهم النعـاس فأنَـامهم ، وتسـاقطت مـن أكفِّهم أقلامهم ، فانتبهوا مذعوريـــن !! .

قد أوجع الكدُّ (أي التعب) أصلابهـــم ، ونبّـه السـهر ألبـابهم ، فتمطَّـوا لـيُريحوا الأبدان ،... ، ودلكوا بأيديهم عيونهم ، ثم عـادوا إلى الكتابـة حرصـاً عليهـا ، وميلاً بأهوائهم إليها ، لعلمتَ أنهم حُرَّاس الإسلام ، وخُـزَّان الملـك العـلاَّم .

فإذا قضوا من بعض ما راموا أوطارهم ، انصرفـوا قـاصدين ديـارهم ، فـلزموا المساجد ، وعمروا المشاهد (أي بحلقات العلم والتدريـس) ، لابسـين ثـوب الخضـوع (أي لله جلَّ في علاه) ، مُسالمين ومسلَّمين ، يمشون علـى الأرض هونـاً، لا يُـؤذون جـاراً ، ولا يُقارفون عاراً (أي جريمـةً أو فاحشـة) ، حتـى إذا زاغ زائـغٌ ، أو مـرق في الديـن مارقٌ ، خرجوا خروج الأُسْدِ من الآجام ، يُناضلون عـن معـالم الإسـلام "(١) .

* قـال الاستاذ"مصطفى صادق الرافعي" رحمه واصفـاً العـلماء الربـانيين :

---

(١) : نقلاً عن كتاب "المحدث الفاصل بين الراوي والواعي " للرامهرمزي .

(هم) امتدادٌ لعمل النبوة في الناس دهـراً بعـد دهـر، ينطقـون بكلمـتها، ويقومون بحجتها ، ويأخذون من أخلاقهـا كمـا تـأخذ المـرآة النـور، تحويـه في نفسها وتُلقيه على غيرها ، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهـار جمالـه معـاً !!"(١) .

*ورحـم الله مَن قـال:

تـعلّم ما الرزيّةُ فَقد مالٍ ... ولا شاةٌ تمـوت ولا بعـيرُ
ولكنّ الرزية مـوتُ حَبْرٍ ... يمـوت بموتـه خلـقٌ كثـيرُ .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " وحي القلم " للرافعي (٣/٥٣) .

٤٩ مخالطة الأشخاص الحريصين على طلب العلم

مصاحبة الأشخاص الحريصين على طلب العلم لها دورٌ كبيرٌ في إذكاء همة المرء وإشعال حماسته لطلب العلم، ولا عجب في ذلك،فإنَّ"الصاحب ساحب"، والمرء عجينةٌ بيضاء تُشكّلها بيئته ومجتمعه والناس الذين يختلط بهم ويحتكُ معهم ، وهذا المعنى قررته شريعتنا الغرّاء:

*عن"أبي موسى الأشعري " رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال:" مَثلُ الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن تبتاع منه ، وإما أن يُحذيكَ (أي يُهديك من هذا الطيب) وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك ، وإما أنْ تجد منه ريحاً مُنتنةً "(١) .

*قال"عيسى بن مريم"عليه السلام: "جالسوا من تُذكركم بالله رؤيته ، ومَنْ يزيد في علمكم منطقه ، ومن يُرغبكم في الآخرة عمله " .

*قال"عبد الله بن مسعود"رضي الله عنه : " اعتبروا الرجل بمن يُصاحِب !! فإنما يُصاحب الرجل مَن هوَ مثله !!"(٢) .

*قال"أحمد بن حرب":"عبدتُ الله خمسين سنةً ، فما وجدتُ حلاوة العبادة حتى تركت ثلاثة أشياء : تركتُ رضى الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق ، وتركتُ صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين ، وتركتُ حلاوة الدنيا حتى وجدتُ حلاوة الآخرة "(٣) .

---

(١) : متفق عليه .

(٢) : رواه"البيهقي" في"شعب الإيمان" ونقله عنه"السيوطي" في "الجامع الكبير" ج٢ .

(٣) : نقلاً عن كتاب " سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣٢/١١) .

*ورحـــم الله الشاعر العربي حين قرر هذا المعنـــى بقولـــه:

إذا كنتَ في قومٍ فصَاحِب خيارهم .... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه .... فــكلُّ قرينٍ بـــالـــمقـــارن يقتـــدي

فاحـــرص أخي الحبيب على مخالطة الأتقيـــاء الحريصـــين علـــى طلـــب العلم الشرعي، فإنك تستفيد بالاحتكـــاك بهـــم علـــو همتـــك في الطلـــب، وقـــوة عزيمتك للتحصيل ، وتستفيد تحصيل فوائد ومسائل كنـــت تجهلهـــا فيمـــا مضـــى ، أو تصحيح معلومات سابقة كنت تعلمها لكن على غـــير وجههـــا الصحيـــح.

وهـــؤلاء الزملاء الصالحون هم عُدَّتك عند البـــلاء ، وهـــم زينتـــك في الرخاء ، فاحرص على اختيار أخشاهم وأتقـــاهم لله وأعلمهـــم بشـــرعه ، ليكـــون خلاً لك ، وعُضَّ عليهم بالنواجد ، فإنهم في هذا الزمـــان قلـــةٌ نـــادرةٌ !!

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً ... فقد صاروا أقـــلَّ مـــن القليـــل

ورحـــم الله سلفنا الأبرار فقد كـــانوا يشـــعرون بقلـــة الأخ الصـــالح الناصح التقي ، فكانوا يقولون عن زمـــانهم :
"ذهب الإخوان وبقي الخـــوَّان !! ، ذهـــب النـــاس وبقـــي النسنـــاس !! ، ذهـــب الرجال وبقي الأنذال !!" ، فكيف لو أدركوا زماننا هـــذا مـــا عســـاهم أن يقولـــوا ؟!! وما تُراهم يفعلـــوا ؟!! .

٥٠ معرفة مدى حرص السلف على العلم حتى عند سكرات الموت

لقد بلغ حرص السلف الصالح على تحصيل العلم الشرعي مبلغاً عجيبا، لدرجه أنهم وهم في سكرات الموت، وهم في اللحظات الأخيرة لهم في هذه الدنيا الفانية ،كانوا يحرصون على طلب العلم وتحصيله ، فاقرأ معي وتدبّر رعاك الله ، هذه النماذج المشرقة ، والصور المتألقة :

*عن المعافى بن زكريا عن بعض الثقات : " أنه كان بحضرة"أبي جعفر بن جرير الطبري" رحمه الله ، قبل موته بساعة أو أقلَّ منها ، فذُكِر عند"ابن جرير" دعاءٌ عن "جعفر بن محمد"، فاستدعى"ابن جرير" محبرةً وصحيفةً وكتب الدعاء !! ، فقيل له : يا إمام أتكتب العلم وأنت في هذه الحال ؟!! (أي وأنت في حال الاحتضار) ، فقال :ينبغي للإنسان ألا يدع اقتباس العلم حتى الممات !! "(١).

*قال"إبراهيم بن الجرّاح" : مرض الإمام"أبو يوسف القاضي" رحمه الله مرض الموت ، فأتيته أعودهُ ، فوجدته مغمىً عليه ، فلما أفاق قال لي : ما تقول في مسألة كذا وكذا ؟!! (أي من مسائل العلم) ، فقلتُ: يا إمام أفي مثل هذه الحالة ؟!! (أي أنت الآن في حال الاحتضار وليس الوقت وقت مُدارسة ومناقشة للمسائل العلمية) فقال لي: لا بأس بذلك !! ندرس لعله ينجو به ناجٍ !! ،ثم قال لي : يا إبراهيم أيُّما أفضل في رمي الجمار (أي في الحج) أن يرميها الرجل ماشياً أو راكباً؟!! فقلتُ له : ..... ، ثم قمتُ من عنده ، فما بلغتُ باب داره حتى سمعتُ الصُراخ عليه !! ، وإذا هو قد مات رحمه الله !! "(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " كنوز الأجداد" لمحمد كرد علي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"مناقب أبي حنيفة"للموفق المكي(١/٤٨١)

٥١ التأمل في ذهاب العلماء المعاصرين

العلماء الربانيون هم سادة الأمة وقادتها ونجومها ، ولكنَّ هؤلاء العلماء ليسوا مُخلَّدين على الدوام !! بل سيموتون كما مات مَن قبلهم مِنْ أهل العلم !! وحينئذ إذا ماتوا ورحلوا عن هذه الدار قل لي بربك : مَن سيقود الأمة ؟!! ومَن سيُربّي الشباب المؤمن ؟!! ومَن الذي سيقوم بتعليم الناس دين ربهم عز وجل ؟!! ومَن الذي سيتصدَّر لإفتاء الناس وبيان أحكام لشريعة في الوقائع التي تحدث وتستجدُّ ؟!!...

سئلةٌ كثيرةٌ ، وإشكالات كبيرة ، الحل لها والمخرج منها هو :

ن نحرص من الآن على إعداد الكفاءات والكوادر الفتيةً ، من شباب هذه لصحوة الإسلامية المباركة ، تلك الكوادر المزوَّدة بالتربية الإيمانية أولاً ، ثم العلم الشرعي الصحيح المستمدّ من الكتاب والسنّة ومنهج السلف الصالح ، تحل هذه الكفاءات محل هؤلاء العلماء بعد موتهم ورحيلهم عن هذه الدار ، لتكون هذه الكوادر خير خلف لخير سلف، ولكي تبقى راية الحق خفّاقةً رفوعةً لها رموزها وقادتها الذين يُدافعون عنها ، ويقودون مسيرتها المباركة.

وحقيقةً إن موت العلماء الربانيين وذهابهم هو من أعظم لصائب وأشدّها على النفس:

قال الحق جلّ في علاه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾(١) .

---

١) : سورة الرعد الآية (٤١) .

*قال"ابن عباس":نقص الأرض من أطرافها هـــو مـــوت العـــلماء والفقـــهاء وذهاب الصـــالحين"(١) .

فيـــا فتى الإسلام : إذا كان العلماء المعاصرون سيموتون لا محالـــة ، فلا بدّ أن تجتـــهـــد في طلب العلم الشرعي وتحصيله على أيديهم قبل أن يموتـــوا ، خشية أن يموتوا ويرحلوا عن هذه الدار ، ويُدفن علمهم معهم في قبورهـــم ، قبـــل أن تطلب العلم على أيديهم ،وحينئذ سيفوتك علمٌ كثيرٌ غزيرٌ لنْ تجده في بطون الكتـــب ، وحينئذ ستندم وتتحسر على ما فاتك من العلم ،ولكن هيهات أن ينفع الندم حينئـــذ ، فبادر باستغلال الفرصة قبل أن تذهب عنك إلى غير رجعة !! .

*قـــال"أبو الدرداء"رضي الله عنه : " **تعلّموا قبل أن يُرفع العلم !! ، فإنَّ رفعِ العلم هو ذهاب العلماء !! ، ما لي أرى علماءكم يذهبونَ !! وجُهَّالكم لا يتعلمون !!**"(٢) .

يـــا فتى الإســـلام : أيرضيـــك إذا مـــات العلمـــاء الربـــانيون أن يتصدر لتعليم العلم الشرعي وتدريـــس النـــاس وإفتـــائهم طـــلاب الدنيـــا والجـــاه والشهرة والمناصب، الذين يبيعون دين الله تعالى بالدرهم والدينـــار،ويُفتـــون النـــاس على جهل فيَضِلُّون ويُضِلُّـــون!!

* عـــن"عبد الله بن عمرو بن العاص" رضي الله عنهما قال :قال الرسولﷺ: " **إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعـــاً ينتزعه من صـــدور الناس ،ولكن يقبـــض العلم بـــمـــوت العـــلماء !! حتى إذا لـــم يُبـــقِ عالـــما اتخذ الناس رؤوساً جُهَّـــالاً فـــسُـــئلوا فأفـــتـــوا بغير علـــمٍ !! فـــضـــلُّـــوا وأضـــلُّـــوا** "(٣) .

*يـــا فتى الإسلام : **اعلم أنك إن تخاذلتَ وتكاسلت عن طـــلب العلم الشرعي ، فإنَّ**

---

(١) : رواه "عبد الرزاق" في مصنفه، و"ابن أبي شيبة" في مصنَّفه، و"ابن جرير" في تفسيره .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تنبيه الغافلين"لأبي الليث السمرقندي .

(٣) : متفق على صحته .

الفُساق وطلاَّب الدنيا والمناصب سيُمسكون بالزمام بدلا عنك !! فالساحة لن تبقى فارغةً !! لأنَّ الأمَّة لا بدَّ لها من قياداتٍ علميةٍ شرعيةٍ تسير وراءها وتترسَّم خُطاها ، فهل يسرُّك أن يتصدر لتعليم العلم الشرعي للناس ولإفتائهم الفسقة والفجرة،الذين وصفهم الأول بقوله:

تصدَّر للتدريس كل مهوَّس ... بليد تسمَّى بالفقيه المدرس

يا فتى الإسلام : أنتَ اليوم شاب وغداً ستصبح رجلاً مكتمل القوى ، تتوجه إليك الأنظار لتخدم أمتك، وتقدم لها ما ينفعها ، فما المانع أن تكون أنت واحداً من الكفاءات والكوادر الشبابية المسخَّرة لخدمة هذا الدين ؟!! ما المانع أن تكون أنت واحداً ممن يخلُفُ هؤلاء العلماء في مهمة نشر العلم وتبليغه للناس،وقيادة الأمة إلى بحر الأمان ؟!!

ليس هناك أي مانع من ذلك !! ، لأنَّ هؤلاء العلماء كانوا في وقت من الأوقات شباباً صغاراً مثلك ، ليس لديهم من العلم الشرعي شيءٌ ، لكن بالصبر والجدّ والاجتهاد وصلوا إلى هذه المكانة العلمية السامية ، فما المانع أن نسير على نفس الدرب ؟!! ، فإنَّ مَن سار على الدرب وصل ، بل إنَّ لديكما أخي الحبيب وأختي الغالية الآن من الإمكانيات والتسهيلات ما لم يتوفر لهؤلاء العلماء أيام طلبهم للعلم .

فيا فتى الإسلام : جدَّ واجتهد في طلب العلم ولا تخاذل ولا تفتر عن تحصيله ، فأنت رجل المستقبل وعماد الغد ، وأمله المرتقب بإذنِ الله تعالى :

إنْ لم تكن للحق أنتَ فمَن يكون ؟! ... والناس في محراب لذات الدنايا عاكفون

٥٢ الابتعاد عن الجدل والمناقشات الفوضوية

النفس البشرية بطبيعتها تحب الانتصار والظهور على الآخرين، وينشأ من ذلك أن المرء قد يُجادل ويُماري بالباطل في موضوعٍ ما وهو يعلم أنَّ الحقَّ والصواب في هذا الموضوع مع خصمه ، فيضيع وقتٌ كثيرٌ في مثل هذه المجادلات التي لا تأتي بفائدةٍ أبداً .

*وقد حثنا النبيﷺ على ترك المراء والجدل ، بقولهﷺ : " أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة (أي حولها) لمن ترك المراء وإنْ كان مُحقاً !!"(١) .

*وبيَّن لناﷺ أنَّ الجدل والمراء هو من علامات خذلان الرب للعبد ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ما ضلَّ قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل !! " (٢) .

*قال"لقمان"الحكيم لابنه : " لا تُجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك، ولا تُجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك ، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم ولمن هو دونك ، فإنما يلحق بالعلماء مَن صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم في رفقٍ " .

والجدال والمراء والنقاش الفوضوي غير المنضبط بقواعد وآداب الحوار الشرعي الإسلامي هو من العوائق المهمة التي تقطع على المرء طريقه في طلب العلم الشرعي وتحصيله، ويظهر ذلك في الآتي:

*الجدال والمراء والنقاش الفوضوي سببٌ لقسوة القلب وغفلته، وإذا

---

(١) : رواه أبو داود والضياء المقدسي ، وحسَّنه "الألباني" في صحيح الجامع"برقم (١٤٦٤) .

(٢) : رواه أحمد والترمذي وقال:حسن صحيح ، ورواه"الحاكم"وصححه وأقرّه على ذلك الذهبي .

وإذا قسا القلب فترت حماسته للتحصيل، وضعفت همته للطلب، وتكاسل المرء عن الطاعات ومال إلى الكسل والفتور والخمول.

*قال الإمام "مالك": "الجدل في الدين يُنشيء المراء ، ويذهب بنور العلم من القلب ويُقسّيه ، ويُورث الضغائن !! "[1] .

* النقاش الفوضوي والجدل والمراء سببٌ لتشويش القلب وتشتيت الفكر وتفرُّق الهمّة ، فأيُّ طلبٍ للعلم سيكون بعد ذلك ؟!!.

*قال "الإمام "مالك" : " ليس هذا الجدل من الدين بشيء!!" [2] .

*المراء والجدال سبب لإثارة الأحقاد والعداوات والبغضاء بين المتجادلين ، فأيُّ مكانٍ للعلم في قلبٍ قد امتلأ بالحقد والبغضاء على إخوانه وأقرانه من الطلاب.

*الجدل والمراء فيه إضاعةٌ للوقت وإهدارٌ للزمان في غير فائدة.

فإنْ قلت لي : ولكن لا بدَّ من النقاش والجدال لإظهار الحق ؟!! فأقول لك : إذا كنت ستُنافش انتصاراً لنفسك وغضبةً لها فبئس ما تصنع !! ، وإنْ كنت ستناقش وتُجادل لأجل إظهار الحق فنِعْمَ ذاك النقاش ، لكن اعلم أنَّ النقاش لأجل إظهار الحق والصواب له علامةٌ واضحةٌ ذكرها لنا الإمام الشافعي بقوله : " ما ناظرتُ أحداً قط إلا وددتُ أن يُوفَّق ويُسَدد، وأنْ يُظهِرَ الله الحق على لسانه"[3]، فانظر لنفسك هل أنت من هذا الصنف ؟!! ثم قل لي : أين هذا التجرد للحق والصدق في طلب الهدى والإخلاص عن مناقشاتنا ومجادلاتنا في هذه الأيام ؟!! .

(١ ، ٢) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء"للذهبي (٨/٦٧) .

(٣) : نقلاً عن سير أعلام النبلاء" للذهبي ج ١٠ .

٥٣ مذاكرة العلم مع العلماء والأقران

لئن كنّا في الطريقة السابقة قد حذّرنا من النقاش الذي يتحول إلى مراءٍ وجدلٍ عقيمٍ وحبِ انتصارٍ للنفس ، فإننا في هذه الطريقة نبين أنَّ هناك نوعا محموداً من النقاش العلمي ، ألا وهو النقاش الهادف البنّاء الملتزم بأصول وقواعد وآداب الحوار الإسلامي ، والذي يكون مقصوده بيان الحق وتوضيح الصواب بكل تجرُّدٍ وإنصافٍ ، أو إن شئتَ فسمّه "مذاكرة العلم" كما سماه السلف الكرام .

إنَّ هذا النوع من النقاش هو وسيلةٌ ناجعةٌ لإشعال الهمة وإيقاظ الحماسة في النفس لطلب العام الشرعي وتحصيله ، وهذا النوع من النقاش والمدارسة ، وتبادل المعلومات بين المتناقشِين ، حثنا عليه سلفنا الكرام ورغَّبونا فيه بأقوالهم وأفعالهم :

*قال "أبو هلال العسكري": "والحفظ لا يكون إلا مع شدة العناية وكثرة الدرس وطول المذاكرة ، والمذاكرة حياة العلم ، وإذا لم يكن درسٌ لم يكن حفظٌ ، وإذا لم تكن مذاكرةٌ قلّت منفعة الدرس ، وَمَن عَوَّل على الكتاب وأخلَّ بالدرس والمذاكرة ضاعت ثمرة سعيه واجتهاده في طلب العلم!!"(١) .

*وهذا "الزهري" يقول :"إنما يُذهب العلم النسيان وترك المذاكرة!!"(٢) .

*قال بعض السلف:"القلوب تُرَبٌ ، والعلم غرسها، والمذاكرة ماؤها ، فإذا انقطع عن الترب ماؤها جفَّ غرسها" .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " الحث على طلب العلم " لأبي هلال العسكري .

(٢) : نقلاً عن كتاب"البداية والنهاية" لابن كثير (٣٤٥/٩) .

فإنْ قلت لي : ما فوائد مدارسة العلم ومذاكرته ومناقشته مع الأقران والزملاء أو مع أهل العلم ؟!!فأقول: لهذه المذاكرة والمناقشة فوائد كثيرة منها :

*هذه المدارسة والمذاكرة سببٌ لرسوخ المادة العلمية وثباتها في الذهن، وذلك لأنَّ المعلومة التي يتعلّمها المرء عن طريق السؤال والجواب والأخذ والرد، والمناقشة والتعقيب ؛ تثبت في الذهن أكثر من المعلومة التي يتعلمها المرء عن طريق القراءة الفردية المجرّدة ، ورحم الله الإمام "إبراهيم النخعي" حين أدرك هذه الحقيقة فقال : " مَن سرّه أن يحفظ الحديث ، فليُحدّث به!!(أي غيره)، ولو أن يُحدّث به مَن لا يشتهيه ، فإنه إذا فعل ذلك كان (أي الحديث) كالكتاب في صدره !!"(١) .

*هذه المذاكرة والمناقشة العلمية يستفيد منها المرء معلومات جديدة لم يكن يعرفها من قبل ، أو يحصّل من ورائها تصحيح معلومات سابقة لديه كان يفهمها بشكل خاطئ .

*قال"الخليل بن أحمد" رحمه الله: " ذاكر بعلمك ، تَذْكُر ما عندك (أي يزداد ثباتاً ورسوخاً) وتستفد ما ليس عندك !!"(٢) .

*وهذه المناقشة العلمية تُشعر المرء بقلّة علمه وحقارة ما حصّله من العلم مهما بلغ،ولا سيما إذا كانت المناقشة مع عالِم مُتبحّر في العلم، وهذا الشعور بالجهل وقلة العلم يدفع ا المرء إلى المزيد من الاجتهاد في طلب العلم وتحصيله .

*عن "يزيد بن أبي زياد" قال : " التقى"ابن أبي ليلى" مع "عبد الله بن الهاد" ، فتذاكرا الحديث ، فسمعتُ أحدهما يقول لصاحبه : يرحمك الله فربَّ حديث أحييتهُ في صدري كان قد مات !!"(٣) .

*وهذه المدارسة العلمية تُشعرك بلذة العلم وحلاوته وفضله ، وهذا يظهر حين يأتي

---

(١) : نقلاً عن كتاب"الجامع لأخلاق الراوي" للبغدادي (٢/٢٦٨) .

(٢ ، ٣) : نقلاً عن كتاب""الجامع"للبغدادي، ج٢ .

خصمك بحجة تؤيد قوله فترد على تلك الحجة وتدحضها وتنصر قولك الحق الذي تعتقده، فيسكت خصمك وتنقطع حجته،ويُظهر الله الحق على يديك ، وحينئذ تستشعر للذة العلم وحلاوته وقُبح الجهل وبشاعته لأنه لولا هذا العلم الذي تحمله بعد توفيق الله عزَّ وجلَّ لما استطعت الردَّ على خصمك وإبطال قوله ، والانتصار للحق الذي تحمله،وهنا تزداد همتك وحماستك لتحصيل العلم وطلبه .

*والمذاكرة والمدارسة تُربّي المرء على الجرأة في الكلام وطلاقة اللسان وعلى خلع ثوب الحياء من مواجهة الآخرين والرد عليهم .

*والمناقشة والمدارسة العلمية ، تُربّي المرء على التحلي بأدب الحوار والنقاش وتبادل الآراء ـ من حلمٍ وضبطٍ للنفس وعدم رفع الصوتُ على الآخرين وانتقاء الكلمات والعبارات الطيبة البعيدة عن التشنُّج والعصبية والانفعالية ـ وكل هذه الأمور معانٍ تربوية من المهم أن يتخلَّق بها طالب العلم الشرعي.

*وهذه المذاكرة والمناقشة العلمية تدعو المرء إلى المزيد من القراءة والإطلاع ، لتحصيل أكبر قدرٍ ممكن من الأدلة التي تنصر رأيه وتؤيد قوله ، ليردَّ بها على خصمه في المناقشات القادمة .

فإنْ قلت لي : قد عرفتُ ثمار وفوائد المذاكرة والمناقشة النافعة ، فهلا أخبرتني عن حال سلفنا الأبرار في مذاكرة العلم مع الزملاء والأقران ؟!! ...
فأقول لك : اقرأ معي الطريقة التالية ، ففيها ما طلبتَ !! .

٥٤ معرفة حال السلف في مذاكرة العلم

لقد أدرك سلفنا الكرام أهمية مذاكرة العلم في تثبيت المحفوظ، واكتساب معلومات جديدة وفوائد نفيسة لم تكن معروفة لدى المرء سابقاً،ولذا رغّبوا وحثّوا تلاميذهم على"مذاكرة العلم"بل كانوا هم بأنفسهم يحرصون على"مذاكرة العلم" مع الأقران، فإليك شيئاً من أخبارهم في هذا المجال :

*قال"علقمة بن قيس النخعي" رحمه الله : " تذاكَروا الحديث !! فإنَّ حياته ذكرهُ!! (أي مذاكرته) "(١) .

*كان"سعيد بن عبد العزيز" رحمه الله يُعاتب تلاميذ"الأوزاعي"ويقول لهم : ما لكم لا تجتمعون ؟!!! ما لكم لا تتذاكرون ؟!!" (٢) .

*قال"فضيل بن غزوان" رحمه الله : " كنا نجلس أنا وفلانٌ وفلانٌ ، وعدّد ناساً نتذاكر الفقه!!(أي من بعد صلاة العشاء) فربما لم نقم حتى نسمع النداء بصلاة الفجر !! "(٣) .

*قال"علي بن شقيق" رحمه الله : " قمت مع "عبد الله بن المبارك" في ليلة باردة ، لنخرج من المسجد . فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرتهُ ، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن فأذّن للفجر !!"(٤) .

*قال"إبراهيم النخعي" : "إنه ليطول عليَّ الليل حتى ألقى أصحابي فأُذاكرهم !!"(٥) .

(١) : نقلاً عن كتاب "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم .
(٢) : نقلاً عن كتاب "الجامع" للبغدادي (٢/٢٦٨) .
(٣) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/١٤٣) .
(٤) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/٢٧٧) .
(٥) : نقلاً عن كتاب " الجامع لأخلاق الراوي " للخطيب البغدادي (٢/٢٦٨) .

*قال"قتيبة بن سعيد": " كان"وكيع بن الجراح" رحمه الله إذا صلى العشاء ينصرف معه "أحمد بن حنبل" ، فيقفان على الباب ، فيتذاكران الحديث !! ، فما يزالان يتذاكران حتى تأتي الجارية وتقول:قد طلع الكوكب، أو قالت : الزهرة !! (أي قد قرب الفجر!!) "(١) .

*بل لقد كان بعض السلف يُذاكر العلم مع جاريته وأَمَتِه:

*عن"الزهري" : " أنه كان يسمع العلم من "عروة بن الزبير" وغيره" ، فيأتي إلى جاريةٍ له وهي نائمةٌ فيُوقظها ويقول : اسمعي حدثني فلان كذا وكذا !! وحدثني فلان كذا !! ، فتقول الجارية: مالي وما لهذا الحديث ؟!.. فيقول لها : قد علمتُ أنكِ لا تنتفعين به ، ولكني سمعتهُ الآن فأردت أن أستذكرهُ !!"(٢) .

*بل لقد كان بعض السلف يُذاكر العلم مع الأعراب البدو:

*عن زياد بن سعد قال:ذهبنا مع الزهري إلى أرضه بالشِعب ، فكان الزهري يجمع الأعاريب فيُحدّثهم !! (أي بالعلم) يريد (أي بتلك المذاكرة) الحفظ !!"(٣) .

*بل كان بعض السلف يُذاكر العلم مع نفسه لوحده:

*عن" المراغي" قال : دخلت مقبرةً "بتستر" فسمعت صائحاً يقول:الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة !!، الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة!! ، ساعةً طويلةً !!، فكنت أطلب الصوت،إلى أن رأيت"ابن زهير" وهو يدرس مع نفسه من حفظه حديث الأعمش !!"(٤) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "الجامع لأخلاق الراوي"للبغدادي (٢/٢٦٨) .

(٣) : نقلاً عن نفس المصدر السابق (٢/٢٦٨) .

(٤) : نقلا عن نفس المصدر السابق (٢/٢٦٧) .

وقبل أن نختم الحديث عن موضوع "مذاكرة العلم مع الأقران" لا بدَّ من الإشارة إلى عدة قضايا مهمة ومنها:

١ ـ احذر أن تتحول المناقشة والمذاكرة العلمية إلى جدل ومراء عقيم ، فإن أصبحتْ كذلك فعليك بالانسحاب ومغادرة المجلس على الفور فإنه مجلس سوءٍ قد حضره الشيطان .

٢ ـ احرص على أن تكون مذاكرتك للعلم الشرعي ومناقشته مع أقرانك المعروفين بالحرص على الطلب والرغبة في التحصيل والاجتهاد فيه، لتكون فائدة المذاكرة أكبر، ولا تجعل مذاكرتك للعلم مع كل من هبَّ ودبَّ .

٣ ـ أثناء مذاكرتك ومناقشتك للعلم مع أقرانك وإخوانك احرص على الالتزام بأسلوب الحوار الموضوعي البنّاء،واحرص على التحلي بأدب النقاش الهادف المفيد الذي مقصوده بيان الحق ونشر العلم بدون رفع صوتٍ أو صياحٍ أو اتهاماتٍ شخصيةٍ .

٥٥ زيارة أهل العلم الربانيين والجلوس معهم

إنَّ مما يعين على التحمس لطلب العلم الشرعي ، الجلوس مع أهل العلم الربانيين ، والحديث معهم ، وسؤالهم عما أشكل عليك في أمر دينك، سواءً بالهاتف أو بالبريد أو عن طريق المقابلة الشخصية وجهاً لوجه، وكذا زيارتهم في بيوتهم والحرص على مخالطتهم والقرب منهم والتودد إليهم، وذلك أن مجالسة هؤلاء العلماء الربانيين ومخالطتهم يستفيد منها المرء فوائد عديدة من أهمها :

*الجلوس مع العلماء الربانيين يقوّي الإيمان ويُرقق لقلب، ويُشعل الهمَّة ويُوقد الحماسة للطاعات، فينصرف المرء من مجالسهم وقد امتلأ قلبه إيمانا ويقيناً، وقد تحركت همَّته لنصر هذا الدين.

*مُجالسة العلماء الربانيين ومخالطتهم تكشف لك مدى ما هم عليه من إخلاصٍ لله وورعٍ وتقوى وزهدٍ في هذه الدنيا الفانية ، فتتمنى أن تكون مثلهم ، فيزيدك ذلك اجتهاداً في تحصيل العلم ، لأنك تعلم أنهم ما حصَّلوا ذلك إلا بالعلم الشرعي بعد توفيق الله لهم ، ومعونته إياهم ..

*إذا جالستَ أهل العلم الربانيين فإنك تستفيد من تجاربهم وخبرتهم في طريق"طلب العلم الشرعي" ، فتعرف ماهي العلوم التي تبدأ بها ؟!! ، و ما هي الطريقة المناسبة لحفظ ذاك المتن ؟!!، وأيُّ الكتب أنسب للبدء بالقراءة فيها ؟!! ، وتستفيد كذلك معرفة ما هي العوائق والعقبات التي واجهتهم في أثناء الطلب وكيفية التغلب عليها والتخلص منها ؟!! .

ولأجـل هـذه الفوائـد العظيمـة المترتبـة علـى مجالسـة العلماء الربانيين وزيارتهم ، كان طـلاب العلـم مـن السـلف الكـرام يُسـافر أحدهم المسافات الطوال، ويقطع الفيافي والقفار لأجل لقـاء عـالم ربـاني جليـل، ونلقي العلم على يديه ، مع أنَّ بإمكانه تحصيل ذلك العلـم في بلـده وبـين أهلـه ، وسترى في الطريقة رقم (٦٠) من هذا الكتاب ، نمـاذج عمليـة رائعـة ومشـرقة ، تبين لك مدى حرص طلاب العلم من السـلف ، علـى لقـاء العلمـاء الربـانيين ومجالستهم والاختلاط بهم والاقتبـاس منهـم .

٥٦ معرفة وصايا السلف في الحث على طلب العلم

النصيحة واجبة على المسلم لإخوانه المسلمين،مصداقاً لقوله ﷺ:"الدين النصيحة الدين النصيحة ، الدين النصيحة"(١) ، وقد استشعر سلفنا الكرام هذه المسئولية الكبرى والمهمة العظمى،فكانوا ينصحون إخوانهم المسلمين ويحثونهم على كل خير ويحذّرونهم من كل شر، ومن مجالات الخير التي حثنا عليها ورغّبنا فيها السلف الكرام "ميدان طلب العلم الشرعي"، فتعال أخي الحبيب نقتبس شيئاً من وصاياهم في هذا المجال:

*قال"معاذ بن جبل" رضي الله عنه : " تعلّموا العلم ، فإنّ تعلُّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة ، وبذله لأهله قربةٌ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة.

وهو الأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادةً وأئمةً تُقتصُّ آثارهم ، ويُقتدَى بأفعالهم ويُنتهَى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خُلَّتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطبٍ ويابسٍ ، وحيتان البحر وهوامُّه وسباع البر وأنعامه ، لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم.

يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكُّر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام ، به تُوصَل الأرحام، وبه يُعرف الحلال

---

(١) : رواه مسلم في"صحيحه" من حديث"تميم الداري" رضي الله عنه .

من الحرام ، هو إمام العمل والعمل تابعه ، ويُلهَمُه السعداء ، ويُحرَمه الأشقياء !!"[١] .

*قال"الحسن بن علي" رضي الله عنه :" مُوصياً أبناءه وأبناء أخيه :
"إنكم صغار قوم يُوشك أن تكونوا كبار آخرين ، فتعلَّموا العلم فمَن لم يُحسِن منكم أن يُؤديه أو يحفظه فليكتبه وليضعهُ في بيته !!"[٢] .

*قال"عروة بن الزبير" لأبنائه : "يابني تعلَّموا العلم ، فإنكم إنْ تكونوا صغار قومٍ فعسى أن تكونوا كبارهم ، وآ سوأتاه !! ماذا أقبح من شيخٍ جاهلٍ ؟!!"[٣].

*قال"ابن عون ": " ثلاثٌ أحبهنّ لي ولإخواني : هذا القران يتدبره الرجل ويتفكر فيه فيوشك أن يقع على علمٍ لم يكن يعلمه، وهذه السنّة يتطلّبها ويسأل عنها، ويذرُ الناس إلا من خير !! "[٤] .

---

(١) : رواه"ابن عبد البر" في "جامع بيان العلم وفضله"(١/٦٥) عن معاذ بن جبل" رضي الله عنه مرفوعا وموقوفا والموقوف هو الصحيح .

(٢) : نقلاً عن كتاب" التراتيب الإدارية" للكتاني (٢/٢٤٦) .

٥٧ الاستكثار من الزاد الإيماني

إن مما يُعين على التحمس لطلب العلم أن يُكثر طالب العلم الصادق من العبادات التي تربي القلب وتربطه بالله عزَّ وجلَّ، وتُهذِّب النفس، وترفع مستوى الإيمان، أو ما يمكن أن نسميه"بالزاد الإيماني"، وذلك ككثرة التوبة والاستغفار والذكر، والإكثار من قراءة القران، والمداومة على قيام الليل، والإكثار من النوافل وصيام التطوع ، والعناية الشديدة بأعمال القلوب كالخوف والرجاء والتوكل والخشية ومراقبة الله تعالى ، فإن مثل هذه العبادات تعطي طالب العلم قوةً وحماسةً عجيبةً للطاعات ، وتزيده حرصاً على الطلب والتعلم.

*قال الرسولﷺ موصياً أحد الصحابة رضوان الله عليهم : " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله !!" [١] .

*وهذا"شيخ الإسلام"ابن تيمية" يقول مقرراً ذلك : " لا بدَّ للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته ، وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه !!"[٢] .

*جاء في ترجمة الإمام"ابن حجر العسقلاني"رحمه الله أنه : " كان مُلازما لقيام الليل وسنة الضحى، يسرد الصوم !! (أي يُكثر الصيام) ، وواظب أخيرا على صوم يوم وإفطار يوم !!، وكان كثير البرِّ بالفقراء"[٣] .

*واستمع إلى"الخطيب البغدادي"وهو يقرر هذه الحقيقة بقوله:"فطالب العلم على الأخص ينبغي أن يكون له وردٌ ، من صلاةٍ وقرآنٍ وذكرٍ ودعاءٍ،

---

(١) : رواه الترمذي وابن ماجة وصححه "الألباني" في"صحيح الجامع" برقم (٧٧٠٠) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٦٣٧/١٠) .

(٣) : نقلاً عن مقدمة كتاب"تغليق التعليق" لابن حجر العسقلاني ,

وتخصيص يوم من الأسبوع لصيامه، وساعة يُحاسب فيها نفسه قبل أن يُحاسب،وساعة يُفضي فيها إلى إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وهذه عبادة الروح."(١) .

*قال"ابن بدران" وهو يُترجم للإمام"ابن قدامة المقدسي" الفقيه الحنبلي المشهور : " كان مُتعبّداً يغلب عليه الاشتغال بالعلم والفقه.

وقال"سبط"ابن الجوزي" : " من رآه كأنما رأى بعض الصحابة، وكأنّ النور يخرج من وجهه، وكان كثير العبادة،يقرأ في كل يوم وليلة سُبُعاً من القرآن !! (أي قرابة أربعة أجزاء ونصف يومياً) "(٢) .

*قال"ابن سماعة":"كان ورد القاضي"أبي يوسف"رحمه الله في اليوم مائتي ركعة !!"(٣) .

*واستمع إلى الإمام"ابن القيم" وهو يصف لنا أثر الزاد الإيماني في تقوية الهمة والحماسة لطلب العلم ، بقوله : "إن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يُطق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام"ابن تيمية"رحمه الله ، في مشيته وكلامه وإقدامه وكتابته أمرا عجيبا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً،...، والذكر قوت القلب والروح ، فإذافقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وحضرتُ شيخ الإسلام مرةً صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله إلى قريبٍ من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال : هذه غدوتي، ولو لم أتغدّ هذا الغداء لسقطتْ قواي !! "(٤) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي .

(٢) : نقلاً عن مقدمة كتاب"روضة الناظر" لابن قدامة وشرحها"نزهة الخاطر" لابن بدران .

(٣) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء" للذهبي (٥٣٧/٨) .

(٤) : نقلاً عن كتاب "الوابل الصيب" لابن القيم .

*قال"أبو بكر الأنباري":" كان"أبو عبيد القاسم بن سلاّم"رحمه الله ، يُقسّم الليل أثلاثاً (أي ثلاثة أجزاء) :

فُصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويُصنّف الكتب ثلثه"(١) .

*عن"ابن أبي مطر"رحمه الله قال :"بتُّ ذات ليلة عند الإمام "أحمد" فجاءني بوضوءٍ (أي لأتوضأ به إذا قمت لصلاة الليل) ،فلما طلع الفجر دخل عليَّ فوجد الماء على حاله !! (أي عرف أني نمت ولم أقم لصلاة الليل) .

فقال : سبحان الله !! طالب حديثٍ لا يقوم الليل !!

فقلت : يا أبا عبد الله إنني مسافرٌ !! (أي قدمت من سفر) ، فقال : حجَّ "مسروق بن الأجدع" فما نام إلا ساجداً !!"(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء"للذهبي (١٠/٤٩٧) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"مناقب الإمام"أحمد" لابن الجوزي .

٥٨ تسجيل المادة العلمية على أشرطة

بعض الناس لا يستطيعون طلب العلم الشرعي عن طريق القراءة في الكتب ، إما لكثرة أسفارهم وتنقلاتهم التي لا تساعدهم على القراءة ، أو لضعف أبصارهم عن القراءة ولا سيما بالليل ، أو لأنَّ نفسياتهم لا تطيق العكوف على قراءة الكتب مدةً طويلة.

والعلاج الناجع لمثل هذه المعوقات عن طلب العلم الشرعي، هو أن يقوم المرء بتسجيل المادة العلمية التي يرغب في حفظها أو في فهمها ــ سواءً كانت آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو مسائل علمية ــ على أشرطة(كاسيت)،ثم يقوم بعد ذلك بالاستماع إليها وتكرارها مرةً بعد أخرى،وهو في منزله أو وهو في سيارته أو في أثناء السفر لمسافات طويلة ، أو قبل النوم وهو مُستلقٍ على فراشه..

ويمكنه كذلك اقتناء أشرطة القران وأشرطة أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، والدروس العلمية المتوفرة بكثرة في"التسجيلات الإسلامية" ، والاستماع إليها وتكرارها ، وتدوين أهم الفوائد التي فيها.

وأسلوب"الاستماع إلى المادة العلمية على"أشرطة" فيه فوائد متعددة ، فهو حفظٌ للوقت واستغلالٌ للزمن من جانب، وهو كذلك يُوفِّر للمرء سهولةً في تلقي المعلومات والفوائد العلمية، كما أنه وسيلةٌ جديدةٌ للتعلم والتحصيل ترتاح إليها النفس، وتتقوى بها الهمة لتحصيل العلم الشرعي،وعلاوةً على كل ما تقدّم فإنَّ الأذن لا تتعب ولا تملُّ بسرعة من سماع المادة العلمية، بخلاف العين فإنها ربما تتعب أو تملُّ بسرعة من القراءة في الكتب والمصنفات .

٥٩ الرحلة لطلب العلم الشرعي

من الأسباب المعينة على التحمس لطلب العلم أن يرحل المرء من بلده إلى بلادٍ أخرى قاصداً لقاء العلماء الربانيين وتلقي العلم عنهم ومجالستهم والاستفادة منهم، وهذه الرحلة لطلب العلم جاءت نصوص الشرع المطهر تحثُّ عليها وترغّب فيها، ومن ذلك :

*وقد أخبرنا الرب تعالى في محكم التنزيل عن قصة رحيل كليم الرحمن موسى عليه السلام ،إلى "الخضر" لطلب العلم منه، وقد جاءت هذه القصة مبسوطةً في سنّة النبي عليه الصلاة والسلام ، كما في صحيح البخاري من حديث"أُبَي بن كعب" رضي الله عنه .

*قال الرسول ﷺ :" مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة "(١) .

*عن"عُقبة بن الحارث" رضي الله عنه ، أنه تزوّج ابنةً "لأبي إهاب بن عزيز"، فأتته امرأةٌ فقالت : إني قد أرضعتُ عقبة والتي تزوّج!! ، فقال لها "عقبة" : ما أعلم أنك أرضعتني، ولا أخبرتني !! ، فركبَ (أي سافر عقبة من "مكة") إلى الرسول ﷺ بالمدينة ، فسأله فقال الرسول ﷺ : كيف وقد قيلَ ؟!! ففارَقَها عقبة، ونكَحَت زوجاً غيره "(٢) .

*وقد كان سلفنا الأبرار يحثون على الرحلة لطلب العلم، ومن ذلك :

*سأل "عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل"أباه : هل ترى لطالب العلم أن يلزم رجلاً

---

(١) : رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) : رواه البخاري في صحيحه .

عنده علم فيكتبَ عنه ؟!! أو يرحل إلى المواضع التي فيها العلماء فيسمع منهم ؟!! فقال : يرحل ويكتب عن الكوفيين والبصريين وأهل المدينة ومكة، يُشامُّ الناس!! (أي يقترب من العلماء ويُخالطهم) ، يسمع منهم !!"(١) .

* قيل للإمام"أحمد": أيرحل الرجل في طلب العلم ؟!! فقال : بلى والله شديداً !! ، لقد كان "علقمة بن قيس النخعي" و"الأسود بن يزيد النخعي"رحمهما الله (وهما من أهل العراق) يبلغهما الحديث عن عمر !! (أي وعمر بن الخطاب بالمدينة) فلا يُقنعهما حتى يخرجا إليه !!(أي يرحلا إلى المدينة النبوية) فيسمعانه منه!! "(٢) .

*قال"ابن جماعة"رحمه الله : " ولذلك استحب السلف التغرُّب عن الأهل، والبعد عن الوطن ، لأنَّ الفكرة إذا توزَّعت قَصُرَت عن درك الحقائق وغموض الدقائق، ولذلك يُقال : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك !!"(٣).

*ورحم الله الشاعر الذي قال حاثاً على الرحلة والتغرُّب لطلب العلم:

فغرِّب ولا تَحفَل بفُرقةِ موطن ... تفزْ بالمنى في كل ما شئت من حاجِ

فلولا اغتراب المسك ما حلَّ مَفرِقا ... ولولا اغتراب الدُرِّ ما حلَّ في التاج .

فإنْ قلت لي : ما دامت الرحلة لطلب العلم الشرعي بهذه المكانة الهامة ، فما هي فوائدها ومزاياها ؟!! فأقول : لها فوائد متعددة من أبرزها :

*الرحلة وسيلةٌ للتحمس لطلب العلم الشرعي وتحصيله.

*الرحلة لطلب العلم تُوسِّع مدارك المرء ومعلوماته الشرعية،لأنَّ العلم الشرعي بحرٌ لا ساحل له ، فلا يتمكَّن أن يحويه كله عالم بعينه، وإنما لدى كل عالمٍ طائفةٌ منه ، فبالرحلة يتعرَّف المرء على معلومات وفوائد علمية جديدة لم يكن يعرفها من قبل .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"فتح المغيث بشرح ألفية الحديث" للسخاوي .

(٢) : نقلاً عن كتاب"شرح الألفية" للحافظ العراقي (٢/٢٢٦) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"تذكرة السامع والمتكلم" لابن جماعة .

* مشاهدة القدوات العملية الحية من أهل العلم الربانيين، والاقتداء بهم، والسير على نهجهم .

*التغرُّب عن الأهل والبلدان أقرب لضبط العلم وإتقانه لأنَّ القلب والفكرَ حينئذٍ يكون خالياً من الشواغل والصوارف والارتباطات العائلية فيتفرغ للعلم، بخلاف ما لو بقي المرء في بلده فإنَّ الشواغل والصوارف كثيرة،والقيام بها يستهلك وقتا كبيراً. فمتى سيطلب العلم ؟!.

*يتعرف المرء خلال الرحلة لطلب العلم على إخوةٍ له في الله من طلاب العلم ، فيكونون عوناً له على تحصيل العلم ، ويشدُّون من أزره ويُقوون همته للطلب.

*يستفيد المرء بالرحلة معرفة أحوال الناس وأخلاقهم وكيفية معاملتهم، كما يكتسب معلومات جديدة عن البلدان التي يرحل إليها .

فإن قلت لي : ولكنَّ السفر والترحال فيه مفارقةٌ للأهل والزوجات والولدان والإخوان والخِلاَّن، وهذه كلها مشاقٌ عظيمة فكيف لي بالصبر عليها؟!

فأقول : اعلم أنَّ للرحلة لطلب العلم لذةً وراحةً لو قد شعرت بها لأنْسَتكَ كل هذه المصاعب والمشاق !! واستمع إلى الحافظ "الرامهرمزي" وهو يُحدِّثك عن لذة الرحلة لطلب العلم الشرعي، فيقول:

"لو عرف الطاعن على أهل الرحلة مقدار لذة الراحل في رحلته،ونشاطه عند فصوله(أي خروجه من بلده للرحلة) من وطنه ، واستلذاذ جميع جوارحه عند تصرُّف لحظاته في المناهل والمنازل،... ، والنظر إلى دساكر الأقطار وغياضها (أي اماكن اجتماع الأشجار والماء)، وحدائقها ورياضها،وتصفُّح الوجوه ، ...، ومشاهدة ما لم يرَ من عجائب البلدان، واختلاف الألسنة والألوان ، والاستراحة في أفياء الحيطان (أي ظلال البساتين)، وظلال الغيطان، والأكل في المساجد، والشرب من الأودية ، والنوم حيث يدركه الليل، واستصحاب مَن يحبُّ في ذات الله بسقوط

لحشمة، وترك التصنُّع، وكُنْه (أي حقيقة) ما يصل إلى قلبه من السـرور عند ظَفَره بغيته ، ووصوله إلى مقصده، وهجومه على المجلس الذي شَمَّر لـه، وقطع الشُقَّة ليه، لعلم أنَّ لذات الدنيا مجموعةٌ في محاسن تلك المشاهد، وحلاوة تلك لناظر، واقتناص تلك الفوائد، التي هي عند أهلها أبهى من زهر لربيع،وأحلى من صوت المزامير، وأنفسُ من ذخائر العقيان ا (أي الذهب) "[1] .

فإن قلت لي: قد هَيَّجت قلبي للرحلة، فزدني تشويقا وتحفيزاً يها،فأقول لك : اقرأ معي الطريقة التالية ، ففيها مُبتغاك :

١) : نقلاً عن كتاب " المحدث الفاصل" للرامهرمزي .

٦٠ معرفة أخبار السلف في الرحلة لطلب العلم

لقد كان سلفنا الكرام يُصدّقون أقوالهم بأفعالهم، فكانوا يدعون الناس إلى الخير والهدى بلسان الفعل والحال قبل لسان المقال، وكما استعرضنا في الطريقة السابقة شيئاً من كلماتهم ووصاياهم الذهبية في الحث على الرحلة لطلب العلم الشرعي ، فتعال بنا أخي الكريم لنرى كيف حوّلوا هذا الكلام النظري إلى واقعٍ عمليّ حيٍّ ،حفظتهُ لنا كتب التاريخ والسِيَر والتراجم :

*قال"جابر بن عبد الله"رضي الله عنهما: " بلغني عن رجلٍ من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، حديثٌ سمعه من الرسول ﷺ ، فاشتريتُ بعيراً وشددت عليه رَحلي ، وسافرتُ إليه (أي من المدينة النبوية) مدة شهرٍ إلى الشام !! ، فلمَّا قدمت عليه (أي على الصحابي الذي روى الحديث وهو عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه) قلت للبوَّاب : قُل له"جابر بن عبد الله"!!.

فلمَا علم بوصولي خرج إليَّ فاعتنقني ، فقلت له: حديثٌ بلغني أنك تُحدّثه عن الرسول ﷺ ، فخشيتُ أنْ أموتَ أو تموتَ قبل أن أسمعه منك !! .

فقال"ابن أنيس": سمعت الرسول ﷺ يقول :" يُحشَر الناس يوم القيامة عُراةً غُرلاً (أي غير مختونين) بُهماً!! ، قلنا: ما بُهماً ؟!! فقال : ليس عليهم شيءٌ، فُيناديهم (أي الرب تعالى) بصوت يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَن قَرُبَ : أنا الملك ،أنا الديَّان ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة يدخل الجنة ، وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمةٍ !! ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار يدخل النار وأحدٌ من أهل الجنة يطلبه بمظلمةٍ ، قلتُ : وكيف وإنما نأتي الله عُراة بُهماً ؟! فقال: بالحسنات

والسيـــئات !! "(١) .

*قـال" أبو الدرداء" رضي الله عنه : " لو أعيتني آيةٌ من كتاب الله عزَّ وجلَّ (أي لم أفهمها) ، فلم أجد أحداً يفتحها عليَّ إلا رجلاً ببرك الغماد (وهو اسم مكان بينه وبين مكة مسيرة خمس ليال) لرحلتُ إليه !! " .

*قال"سعيد بن المسيب"رحمه الله : " إنْ كنتُ لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد !!"(٢) .

* وهذا"أبو العالية" رحمه الله يقول : " كنا نسمع الرواية عن أصحاب الرسولﷺونحن بالبصرة ، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم (أي مشافهةً)!! "(٣) .

*وهذا" الإمام ابن عبد البر" يقول : "ورحل"مسروق بن الأجدع" رحمه الله في حَرْفٍ !!(أي لأجل كلمةٍ واحدة من العلم) ، وأنَّ أبا سعيد (لعله يقصد الحسن البصري) رحل في حرفٍ !!" (٤) .

*رحل الإمام"محمد بن إسحاق بن منده" رحمه الله لطلب العلم وعمره عشرون عاماً ، ورجع إلى بلده وعمره خمسٍ وستون سنةً !! ، وكانت رحلته خمساً وأربعين سنةً !! ، ثم عاد إلى وطنه شيخاً !! ، فتزوج ورُزِقَ الأولاد وحدَّث بالكثير !!" (٥) .

---

(١) : والحديث رواه البخاري في صحيحه مختصرا مجزوماً به،وبوّب عليه باب"الخروج في طلب العلم"، ورواه البخاري مبسوطاً في كتاب"الأدب المفرد" .

(٢) : نقلاً عن كتاب"البداية والنهاية" لابن كثير (٩/١٠٠) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"الكفاية في علم الرواية" للبغدادي .

(٤) : نقلاً عن كتاب "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (١/٩٤) .

(٥) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣/١٠٣٢) .

*قال"عبدان الجواليقي" رحمه الله : " رحلتُ إلى البصرة (أي سافرتُ إليها) ثماني عشرة مرةً !! ، من أجل حديث"أيوب السختياني"، كلما ذُكِرَ لي حديثٌ من حديثه دخلت إليها (أي رحلت إليها) بسببه" .

*قال"مسروق بن الأجدع":"طفتُ الأرض كلها في طلب العلم !!" (١) .

*رحل الإمام"أبو سعد السمعاني"رحمه الله ، إلى أكثر من مائةِ مدينة، وأهم رحلاته ثلاث : الرحلة الأولى وكانت مدتها نحو عشر سنواتٍ !!، ... ، والرحلة الثانية كانت مدتها ست سنواتٍ !! ، ...، والرحلة الثالثة كانت مدتها أربع سنوات !! "(٢) .

*كان الحافظ"أبو العلاء الهمداني"رحمه الله يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً !! (أي قرابة مائة وخمسين كيلو مترا) ،...، وسافر إلى بغداد وأصبهان مراتٍ كثيرة ما شياً على قدميه !!، يحمل كتبه على ظهره !!"(٣).

*قال"يحي بن معين" : " لما خرجتُ مع "أحمد بن حنبل" إلى اليمن لطلب العلم (أي عند"عبد الرزاق الصنعاني") ،حججنا، فبينا أنا في الطواف إذ أنا بعبد الرزاق يطوف بالبيت!! ، فسلَّمت عليه وقلت له: هذا أخوك "أحمد بن حنبل" فقال: حياهُ الله وثبتَّه ، ... .

قال"يحي": فرجعتُ إلى "أحمد" فقلت له: قد قرَّب الله خُطانا !! ووفَّر علينا النفقة !! ، وأراحنا من مسيرة شهرٍ!! (أي لأن عبد الرزاق موجودٌ معنا في مكة فلا حاجة بنا إلى السفر إلى صنعاء) ، فقال"أحمد" :إني نويتُ ببغداد أن أسمع من"عبد الرزاق"بصنعاء، والله لا غيَّرتُ نيتي!!"(٤)

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/١٠٨) .

(٢) : نقلاً عن مقدمة كتاب" التحبير للمعجم الكبير" للسمعاني بتحقيق"منيرة ناجي" .

(٣) : نقلاً عن كتاب"طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى (١/٣٢٦) .

(٤) : نقلاً عن كتاب"المنهج الأحمد" للعليمي الحنبلي (١/٨)

*بقي الإمام الحافظ"يعقوب بن سفيان الفسوي"رحمه الله في الرحلة لطلب العلم ثلاثين سنةً !!"(١) .

*قال"ابن الجوزي":" لقد طاف الإمام"أحمد" الدنيا مرتين حتى جمع كتابه"المسند"" (٢) ، والآن ها هو كتاب" المسند" بين أيدينا في أفخر طباعة وأرقى إخراج ، فلا نحتاج إلى أن نطوف الدنيا لنجمعه !! ولكننا نحتاج إلى من يقرأه ويحفظه !! فأين هم ؟!! .

* قال"أبو حاتم الرازي" : " أول ما خرجتُ (أي رحلت) في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين (أي بقيت في الرحلة سبع سنين) ، فأحصيتُ ما مشيتُ على قدميّ زيادة على ألف فرسخ (أي خمسة آلاف كيلو متراً) فلم أزل أُحصِي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته !!، وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصى كم مرةً !! ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من قرب مدينة"سلا" (وتقع في المغرب الأقصى) إلى مصر ماشياً، ومن مصر إلى الرملة ماشياً، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرسوس ، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص ،...، ثم خرجتُ من حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرَّقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة ،كل ذلك ماشياً !! ، هذا في سفريّ الأول وأنا ابن عشرين سنةً !!"(٣).

*كان"إسحاق بن منصور المروزي" رحمه الله من تلاميذ الإمام"أحمد بن حنبل"،وكان

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تهذيب التهذيب" لابن حجر (١١/٣٨٦) .

(٢) : نقلا عن كتاب"صيد الخاطر" لابن الجوزي .

(٣) : نقلاً عن كتاب "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم" .

قد كتب عن "أحمد "مجموعةً من المسائل الفقهية ، ثم رجع إلى بلده نيسابور ، ثم إنـــه بلغه أنَّ الإمام"أحمد" قد رجع عن تلك المسائل وصار يُفتي بخلافها، فوضـــع"إسـحاق" صُحُفَهُ وكُتُبَهُ التي دوَّن فيها تلك المسائل في جراب(أي كيس) ، وحملها على ظهره وخرج ماشياً على قدميه !! من "نيسابور" (لعلها الآن في إيران أو في الاتحاد السوفيتي) إلى بغداد !! ، فأتى الإمام"أحمد" وسأله عن تلك المسائل وعرضها علـيـه ، فأقـرَّ لـه أحـمـد بمـا أفـتاه به أولاً ، وأُعجبَ أحمد من شأنه !! "(١) .

*رحـل الإمام"بقي بن مخلـد الأندلسـي"رحلتـين إلى مصـر والشـام والحجـاز وبغداد، طلباً للعلم، استمرت الرحلة الأولى أربعة عشـر عامـا، والثانيـة عشـرين عـامـاً متابعـةً !! "(٢) .

وليس العجب فقط من طول مـدة رحلتـه وتغرُّبـه لأجـل طلـب العلـم وإنمـا العجب العُجاب فعلاً هو أنَّ هذه الرحلات كلهـا كـانت علـى الأقـدام، كمـا صرح "بقي" بذلك في قوله : " كل مَن رحلت إليـه فماشـياً علـى قدمـيَّ، وكـل مَن سمعت منه في البلدان ماشياً علـى قدمـيَّ"(٣) .

*قـال"محمد بن إسحاق الأرغياني" رحمه الله :" ما أعلم منبراً مـن منـابر الإسـلام بقي عليَّ لم أدخله لسماع الحديـث !! "(٤) .

*قـال"ابن المقريء" رحمه الله : " طفتُ الشـرق والغـرب (أي لأجـل طلـب العلـم) أربـع مـراتٍ !! " (٥) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "طبقات الحنابلة " لابن أبي يعلى (١/١١٤) (بتصرف) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تاريخ التراث العربي" لمحمد فؤاد (١/٢٣٨) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (٢/٦٣٠) .

(٤) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (٢/٦٢٧) .

(٥) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣/٩٧٣) .

٦١ إدراك أن العلم الشرعي خير من المال

النفس البشرية مجبولةٌ على حب المال ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾(١) ، والمؤمن الصادق يُروّض نفسه ويُربّيها حتى يكون المال عبداً لها ، لا أن تكون النفس أمةً مملوكةً للدرهم والدينار، ومع ذلك فهناك شيءٌ أعزُّ وأغلى من المال ألا وهو العلم الشرعي، فإنْ طالبتني بالدليل على ذلك فتأمل معي هذه الحجج والبراهين الساطعة:

* العلم ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أما المال فهو ميراث الجبَّارين والمترفين وأهل الكبر والفسوق .

* العلم يحرس المرء ويحفظه في الدنيا والآخرة ، بينما المال لا يحرسك بل أنت الذي تحرسه وتحفظه في الصناديق والخزائن .

*العلم الشرعي النافع لا يهبه الله إلا للصالحين المتقين ، أما المال فيُعطيه الله للمسلم والكافر والبَرّ والفاجر والصالح والطالح .

*العلم الشرعي لا ينقص بالنفقة منه وبذله وتعليمه للآخرين ، بينما المال ينقص بالإنفاق منه .

*العلم الشرعي تنتفع به وأنت في قبرك، وأما المال فلا يدخل معك في قبرك .

*صاحب العام العامل بعلمهٌ ذِكرُه باقٍ عند الناس حتى بعد موته ، أما صاحب المال فإذا مات انقطع ذكره، هذا إنْ سلِم بعد موته من شتم الناس له وقدحهم فيه واتهامه بالبخل.

*صاحب العلم يُؤجَر ويُثاب على كل مسألةٍ تعلّمها لله أو علّمها للناس أو عملَ بها ،

---

(١) : سورة الفجر الآية (٢٠) .

أما صاحب المال فإنه يُسأل عن كل درهمٍ من أين اكتسبه ؟!! وفيمَ أنفقهُ ؟!! .

*العلم حاكمٌ على المال والمال محكومٌ بالعلم، كما في الزكاة والميراث والنفقة، ولا عكس .

* عن"عبد الله بن كثير"عن أبيه قال:"ميراث العلم خيرٌ من ميراث الذهب والفضة ، والنفس الصالحة خيرٌ من اللؤلؤ ، ولا يُستطاع العلم براحة الجسم".

*صاحب العلم كلما ازداد علماً شرعياً نافعاً ازداد خشيةً لله ورفعةً عنده سبحانه ، أما صاحب المال فكلما ازداد من الأموال ازداد طغياناً وضلالاً، وازداد من الله سبحانه وتعالى بُعداً .

*قال"عبد الله بن مسعود" رضي الله عنه : "منهومان لا يشبعان : صاحب علمٍ !! وصاحب دنيا !! ،ولا يستويان ، أما صاحب العلم فيزداد رضاً بالله، وأما صاحب الدنيا فيزداد في الطغيان !! ، ثم قرأ "ابن مسعود" (أي تدليلا على صحة قوله): ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[1]، ثم قرأ للآخرة(أي لصاحب الدنيا): ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[2] "[3] .

فاحرص أخي على العلم ،فإنك إنْ حصّلته وظفرت به فأنت أعزُّ من الأغنياء وأشرف من الأثرياء ،لأنك قد نلت عزَّ الدنيا والآخرة،

يا طالبَ العلم لا تبغي به بدلاً ... فقد ظفرتَ وربِّ اللوحِ والقلم

العلم أشرف مطلوبٍ وطالبه ... لله أفضل مَن يمشي على قدمِ

---

(١) : سورة فاطر الآية (٢٨) .

(٢) : سورة العلق الآيتان (٦ ـــ ٧) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"أخلاق العلماء"للآجري .

٦٢ الدعوة إلى الله تعالى

الدعـوة إلى الله تعـالى هـي مهمـة الأنبيـاء عليهـم الصلاة والسلام، ومهمة أتباعهم من بعدهم ، وهذه المهمة العظيمـة والخصلـة الجليلـة لهـا وسائل متعددة: كإقامة الدروس والمحاضرات، وإلقـاء الكلمـات والمواعـظ عقـب الصلوات، ودعوة ونصيحة الضالين والمنحرفـين، ومجادلـة ومقارعـة أهـل العنـاد والزيغ،و..و..،ولكن كل هذه الوسائل المتنوعة لا بـدّ لهـا مـن زاد،يُعين على القيام بها على الوجه الأكمل، وهذا الزاد هو العلـم الشـرعي .

*قـال الله تعالى مقرراً ذلك في محكـم التـنزيل :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[١]

وتأمل قوله ﴿على بصيرة﴾ أي على علمٍ بمَـن أدعـو إليـه وهـو الـرب تعـالى، وعلى علمٍ بما أدعو إليه من الحق والهـدى .

*وهـذا"ابن القيم" يقول مُقررا ذلـك :

وإذا كانت الدعوة إلى الله تعالى أشرف مقامات العبد وأجلّهـا وأفضلهـا ، فهـي لا تـحصل إلا بالعلم الذي يدعو بـه وإليـه ،..."[٢] .

والدعـوة إلى الله تعالى تُشـعل الـحماسة لطـلب العلم الشرعي وتُـوقـد الهمّة لتحصيله لأنـه:

لا بُدّ للداعية من حصيلةٍ علميةٍ شرعيةٍ، ليعرف ما يدعو إليه، ولينفع الناس ويُبصّرهم

(١) : سورة يوسف الآية (١٠٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٥٤) .

بأمور دينهم ، فإنَّ الجاهل بالشيء لا يمكن أن يدعو إليه ، لأن فاقد الشيء لا يُعطيه !!.

* لا بدَّ للداعية من الإعداد والتحضير العلمي الجيد لما سيقوله للناس ويدعوهم إليه ، ولا يسوغ بحالٍ من الأحوال أن يُصبح كلام الداعية مجرد ثرثرة لفظيةً وكلامٍ مكرورٍ قد ملّت منه القلوب والأسماع.

*الداعية لا بدَّ أن يُواجه في طريق الدعوة الشاق،عقبات ومصاعب،ولا بدَّ أن تعترضه شبهات وأهواء نفسية وخارجية،ولا بدَّ أن تُواجهه معارضاتٌ من أهل الأهواء والشهوات فكيف سيستطيع الصبر على هذا الطريق بدون زاد العلم الشرعي؟! بل كيف سيستطيع الرد على أباطيل هؤلاء المرجفين وفضحها وإبطالها إلا بسلاح العلم الشرعي؟!! .

٦٣ معرفة كيف ربّى السلف أبناءهم على طلب العلم

كثيرٌ من الآباء يظن أنّ تربية الأبناء تعني توفير الطعام والشراب واللباس والمسكن لهم فقط، وهذا فهمٌ خاطئ ، لأنّ التربية الحقيقية ليست تربية الأجسام،إنما تربية القلوب والأرواح، تربيتهم على الأخلاق الكريمة وعلى الالتزام بأحكام هذا الدين والبذل في سبيله والتضحية من أجله،ولما أدرك سلفنا الكرام هذه المعاني العظيمة للتربية كانوا يحرصون على تربية أبنائهم على كل خيرٍ وفضيلة ، ومن ذلك طلب العلم الشرعي .

*قال"عبد الله بن داود" رحمه الله :"ينبغي للرجل أن يُكرِه ولده على سماع الحديث"(١)

*وتدبّر معي هذا الأسلوب العجيب في تربية الأبناء على طلب العلم الشرعي :

*قال الإمام"أبو الوقت السجزي"رحمه الله : " رحلتُ مع والدي لسماع صحيح البخاري ماشياً على قدميَّ !! ، من هراة (وهي مدينة بالمشرق) إلى الداوودي"ببوشنج"(وهي مدينة بالمشرق) ، وكان عمري آنذاك عشر سنين !! ، فكان والدي (أي أثناء الرحلة) يضع على يديَّ حجرين ، ويقول: احملهما !! ، فكنت من خوفه أحفظهما بيديَّ ، وأمشي وهو يتأملني ، فإذا رآني قد عييتُ (أي تعبت) أمرني أن أُلقي حجراً واحداً ، فأُلقيه ويخفُّ عني ، فأمشي إلى أن يتبين له تعبي، فيقول لي : هل تعبت !! فأخافه وأقول: لا ، فيقول : لَمَ تُقصِّر في المشي ؟!!!! فأُسرِع بين يديه ساعةً ، ثم أعجزُ !!، فيأخذ الحجر الآخر فيُلقيه !! ، فأمشي حتى أعطب (أي أعجز عن مواصلة المشي)،فحينئذ كان يأخذني ويحملني!! .

كُنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم ، فيقولون :يا شيخ عيسى(وهو اسم والدي) ادفع إلينا

---

١) : نقلاً عن كتاب"شرف أصحاب الحديث" للبغدادي .

هذا الطفل نُركِبُهُ وإياك إلى"بوشنج"، فيقول لهم والـــدي : معـــاذ الله أن نركـــبَ في طلب حديث الرسولﷺبل نمشـــي (أي لأنَّ المشـــي اجره أعظـــم) وإذا عجـــزَ (أي ولـــدي هذا عن السير) أركبتهُ على رأسي إجلالاً لحديـــث الرســـول ﷺ ورجـــاء ثوابـــه !! .
قال"أبو الوقت" : فكان ثمرة ذلك مِن حُسن نيتـــه أنـــي انتـــفعت بســـماع هـــذا الكتاب (أي صحيح البخاري) وغيره ، ولم يبقَ من أقراني أحدٌ ســـواي ، حتـــى صـــارتْ الوفود ترحل إليَّ من الأمصـــار !! "(١) .

*قـــال"السبكي" في ترجمـــة الإمـــام القـــدوة"أبـــي ســـعد الســـمعاني" : "وُلِـــد في الحادي والعشرين من شـــعبان ســـنة ســـتٍ وخمســـمائةٍ بمـــرو، وحملـــه والـــده إلى "نيسابور" سنةَ تسعٍ، وأحضرهُ السماع (أي حلقـــات الحديـــث النبـــوي) وهـــو في الســـنة الرابعة !! على"عبد الغفـــار الشـــيروي ، ... "(٢) .

*قالت الأُستاذة"منيرة ناجي" في مقدمتها لكتاب" التحبير في المعجـــم الكبـــير" وهـــي تُترجم"لأبي سعد السمعاني" : " وقد اعتنى به والده عنايةً كبيرةً ، فبكَّر بإسماعـــه مـــن أجِلَّة مشايخ مرو ، ثم رحل به إلى "نيسابور" بلد الحديث والمحدِّثين ، وكانت ســـنُّـــه آنذاك بلغت الثالثة والنصف من العمر، فكان والدهُ في "مرو" وفي"نيسابور" يُحضِـــره مجالس المحدثين !! (أي وهو لم يبلغ الرابعة من عمره بعد) ، ويكتب له ما أملوهُ !! (أي من أحـــاديث رسول اللهﷺ) أو ما قرئَ عليهم في تلك المجالس وهو حاضرٌ !! ، وَيُثبتُ ذلك ويُصححه ، ليكون أصلاً يرجع إليه ولده ويروي منه إذا كَبُرَ، وكان يأخذ له الإجـــازات منهـــم، وبهذا حصَّل لولده علو الإسناد من مشـــايخ عصـــره ، وكـــانت هـــذه الإجـــازات والسماعات والمقروءات أساس مادته العلمية الأولى "(٣) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبـــلاء" للذهـــي (٢٠/٣٠٣) .
(٢) : نقلاً عن كتاب"طبقات الشافعية" للسبكي (٧/١٨٠) .
(٣) : نقلاً عن كتاب " التحبير في المعجم الكبير " للسمعاني ، تحقيق "منيرة ناجي" .

*وقد استفاد"السمعاني"من تربية أبيه له على طلب العلم منذ الصغر، فأخذ يُربّي أولاده على نفس الطريقة التي رباه عليها أبوه،

*قال "المعَلّمي"رحمه الله ، في مقدمته لكتاب "الأنساب" لأبي سعد السمعاني"وهو يصف رحلات "السمعاني" لطلب العلم :

"والرحلة الثانية كانت مدتها ست سنوات ،... ، واصطحب (أي السمعاني) معه في رحلته هذه ولده "أبا المظفر عبد الرحيم" ، وكان له من العمر نحو ثلاث سنوات!! ، فطافَ به بلاد "خراسان" وما وراء النهر، وأحضره مجالس سماع الحديث هناك، وحصّل له النُسخ من الكتب والأجزاء التي أُحضِرَ مجالس سماعها وجمعَ (أي السمعاني) له (أي لولده) مُعجماً لمشايخه في ثمانية عشر جُزءاً !!"(١).

*قال الخطيب البغدادي في ترجمة الإمام"محمد بن جرير الطبري"رحمه الله :

"وحفظَ القران وعمره سبع سنين ، وكتب الحديث وعمره تسع سنين ، ورحل في طلب العلم وعمره اثنتا عشرة سنة حين سمح له أبوه بالرحلة !! وكان والده يُرسل له بالنفقة من وقت لآخر !!"(٢) .

*قال"هشام بن عمّار"رحمه الله : " باع والدي داراً له بعشرين ديناراً (أي لأجل أن أرحل لطلب العلم) ، وجهّزني للحج ، فلمّا وصلت المدينة أتيتُ مجلس"مالك بن أنس" ، ... ، فقلت له : إنّ أبي باعَ منزله ، ووجّه بي أتشرّف بك والسماع منك !! ، ... "(٣) .

*نقل الذهبي في ترجمة الإمام"أبي القاسم بن عساكر"رحمه الله قال : " وُلِدَ في أول سنة ٤٩٩هـ ،وسمع (أي الحديث النبوي على المشايخ) في سنة ٥٠٥هـ (أي وعمره ست سنين)

---

(١) : نقلاً عن كتاب"الأنساب" للسمعاني ، بتحقيق العلامة "المعلّمي" .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تاريخ بغداد"للبغدادي (١٦٢/٢)، (بتصرف) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"معرفة القراء الكبار" للذهبي (١٩٦/١) .

باعتناء أبيه وأخيه "(١) .

*قـــال"أبو عبد الله المراغي"رحمه الله :

إذا رأيت شباب الحي قــد نشأوا ... لا ينقــلون قِــلال الحبر والــورقا

ولا تراهم لدى الأشياخ في حلَقٍ ... يَعُونَ مــن صالح الأخبار مـــا اتسقا

فذرهمُ عنك واعلم أنهمٌ هــمَجٌ ... قد بَدَّلــوا بعــلو الــهمّــة الحُمُقا

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٤٢٨/٤) .

٦٤ اجتناب كثرة الأكل والشرب

هذه البطن أمرها عجيبٌ ، إن ملأتها وأثقلتها بالطعام والشراب أتعبتك وسببت لك الأمراض، وقسوة القلب والغفلة، وإنْ أنت أجعتَها وأفرغتها من الطعام والشراب أنصَبتكَ وأشغلت قلبك وخاطرك بالجوع، والوسط والاعتدال والتوازن هو المنهج السديد والطريق الرشيد.

* وقد حذَّرنا الرسولﷺ من الإفراط في الأكل والشرب ، بقوله :

" ما ملأ آدميٌ وعاءاً شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه !! ، فإن كان لا محالةَ فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه ، وثلث لنَفَسه " (١) .

*قال"عمر بن الخطاب " رضي الله عنه : " إياكم والبطنة !!(أي كثرة الأكل) ، فإنها ثِقلٌ في الحياة ونَتَنٌ بعد الممات !!"(٢) .

والإفراط في الأكل والشرب يُعتبر قاتلا للهمة والحماسة لطلب العلم الشرعي وتحصيله ويظهر ذلك في الآتي:

*كثرة الأكل والشرب سببٌ لكثرة النوم، وكثرة النوم إهدارٌ للزمان في غير فائدة وسببٌ لقسوة القلب وغفلته،فأيُّ حماسة لطلب العلم الشرعي ستكون حينئذ ؟!!.

*كان الإمام"النووي"رحمه الله لا يأكل بعض أنواع الفاكهة ويقول : أخاف أن

---

(١) : رواه الترمذي وابن ماجة من حديث"المقدام بن معدي يكرب" رضي الله عنه،وصححه "الألباني" في صحيح الجامع برقم (٥٦٧٤) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تصفية القلوب"للذماري .

تُرطب جسمي وتجلب لي النوم ، وكان يـأكل في اليـوم والليلـة أكلـةً ويشـرب شربة واحدةً عـند السَحـر "(١) .

*وكـثرة الأكل والشرب تسبب بلادة الذهـن وانغـلاق التفكـير،فـأيُ حفـظ وأيُ فهم للمسائل والنصوص العلمية الشرعية سـيكون حينئـذ؟! .

*قـال"لقمان"الحكيم رحمه الله لابنـه :

"يا بُنيَّ إذا امتلأت المعدة ضاقت الفكـرة!! (أي تبلُـد الذهـن) ، وخرسـت الحكمـة ، وقـعدت الأعضاء عن العـبادة !! (أي تكاسـلت عنهـا) "(٢) .

*والإفـراط في الأكل والشرب يسبب خـمول البدن وتكـاسله عـن الطاعـات والباقيات الصالحات وميله إلى الراحة والسكون والدعة ولا يُنال العلم براحة الجسد.

*قـال"الإمام الشافعي" : " ما شبعتُ منذ ست عشـرة سـنةً إلا مـرةً !! (أي لعلمه بأضرار الإفراط في الأكل والشـرب) "(٤) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٤٧٢/٤) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"تصفية القلوب" للذماري .

(٣) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣٦/١٠) .

٦٥ إعداد فهارس علمية للموسوعات السلفية

قد يرغب المرء في قراءة كتاب من الكتب الشرعية فيتناول الكتاب ويبدأ بالقراءة فيه ، ولكنه يشعر بالكسل والفتور بعد قليل، فيدع القراءة ، بينما لو كلف نفسه أو كلفه غيره بإعداد فهرس للأحاديث النبوية التي احتوى عليها ذلك الكتاب بعينه لرأى أن ذلك الفتور والكسل قد زال عنه وقد توقدت همته وحماسته للقراءة في هذا الكتاب ، بل ربما فرغ من قراءة الكتاب وإعداد الفهرس الحديثي في أيام قليلة، والسبب في هذه الظاهرة هو أنه في الحالة الأولى كان المرء يقرأ قراءة عامة مجردة بلا هدف محدد ففترت النفس وتكاسلت،بينما في الحالة الثانية كانت القراءة قراءة ذات هدف محدد ومعين فنشطت النفس لهذه القراءة وتحمست لها وحرصت عليها.

فإذا تقرر ذلك فاعلم رعاك الله أنه ينبغي توجيه العناية إلى إعداد فهارس علمية للكتب والموسوعات السلفية، تسهيلا للعثور والوصول إلى الفوائد والنفائس العلمية التي احتوت عليها تلك الكتب والموسوعات بأيسر طريق، وتحفيزاً وإيقاظاً للهمم والعزائم نحو قراءة تلك الكتب والموسوعات السلفية وتحصيل العلم منها ، وأقترح هنا بعض الكتب والموسوعات السلفية التي ينبغي العناية بفهرستها ، ومن أهمها :

ـ كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للحافظ "ابن حجر العسقلاني"،فهذا السِّفر العظيم بحاجة إلى عشرات الفهارس لما فيه من اللآلئ والجواهر والفوائد ، فمثلاً :

فهرس للأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرها "ابن حجر" في خلال شرحه "لصحيح البخاري" مع بيان حكم الحافظ "ابن حجر" عليها من حيث الصحة والضعف ، ونحتاج إلى فهرس آخر للمسائل الفقهية التي تعرَّض لها ابن حجر في شرحه ، وفهرس ثالث للمسائل العقائدية التي وردت في ثنايا شرح "ابن حجر "لصحيح البخاري، ونحتاج إلى فهرس للأحاديث التي ذكرها البخاري في صحيحه مُعلَّقةً ووصلها "ابن حجر" في كتابه "فتح الباريء" ونحتاج إلى فهرس للفوائد اللغوية التي احتوى عليها كتاب "فتح الباريء"، ونحتاج إلى فهرس لمرويات تفسير الآيات القرآنية التي اشتمل عليها هذا الكتاب العظيم، ونحتاج إلى فهرس ..... ، وفهرس .....، وفهرس .... .

ب ــ كتاب "مجموع الفتاوي"لشيخ الإسلام"ابن تيمية".

ج ــ كتاب "التمهيد" لابن عبد البرّ الأندلسي" رحمه الله .

د ــ "مصنف عبد الرزاق بن همَّام الصنعاني" .

هـ ــ "تفسير "ابن جرير الطبري" .

و ــ "تفسير القرطبي"للقرطبي .

٦٦ معرفة مدى إجلال السلف للعلم الشرعي

هذا العلم الشرعي هو دين رب العالمين، وهو ميراث سيد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وهو العُدَّة عند البلاء وهو الزينة في الرخاء وهو النور في الظلماء ، ولذا كان سلفنا الكرام يُجلُّون هذا العلم الشرعي أشدَّ الإجلال، ويُعظِّمونه أيما تعظيم، تقرباً إلى الله تعالى ، وحباً لرسوله عليه الصلاة والسلام ، فتعال أخي الحبيب نرحل معهم :

*قال"النووي" في ترجمة العبد الصالح "عيسى بن يونس" رحمه الله :

"ذهب الأمين والمأمون (وهما ابنا الخليفة هارون الرشيد) إلى "عيسى بن يونس" (أي ليحدثهما بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام) فحدثهما بما أرادا ، فأمر له "المأمون"بعشرة آلاف درهم !! فأبى "عيسى"أن يقبلها ، فظن "المأمون" أنه استقلَّها (أي رآها قليلةً) فأمر له بعشرين ألفاً ، فردَّها"عيسى" وقال : لا ، ولا إهليلجة !! (وهي كالخردلة والذرة في الصغر) ، ولا شربة ماء على حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو ملأت لي هذا المسجد ذهباً إلى السقف (أي ما قبلته منك إجلالا لهذا العلم) ، فانصرفا من عنده !! "[١] .

*حكى "العماد الأصبهاني" في ترجمة العبد الصالح الحافظ الإمام "أبي طاهر السِلَفي" رحمه الله قال :" قال"الرهاوي": وبلغني أن سلطان مصر حضر عنده (أي حضر مجلس السلفي) لسماع الحديث ، فجعل (أي السلطان) يتحدث مع أخيه ، فزجرهما الشيخ (أي السلفي) وقال : أيش هذا ؟!! نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان ؟!! "[٢] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "تهذيب الأسماء واللغات" للنووي (٢/٤٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "الخريدة" للعماد الأصبهاني .

*قال"ابن خلكان" في ترجمة إمام العربية"أبي عثمان المازني" رحمه الله :
"وقَصَدَهُ يهوديٌ ليقرأ عليه كتاب"سيبويه"(أي طلب من المازني أن يُدرسه هذا الكتاب) ،وبذل له مائة دينارٍ (وهذا مبلغ كبير آنذاك) في تدريسه إياه فامتنع (أي رفض المازني تدريسه) ، فقال له أحد تلاميذه : جُعِلتُ فداك !! أتردُّ هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟!!
فقال له"المازني" : إنَّ هذا الكتاب يشتمل على ثلاث مائة وكذا آية من كتاب، ولست أرى أن أُمكِّن منها ذِمّيا،غيرةً على كتاب الله وحميةً له !!"(١) .
* قال السخاوي : " قال"هبة الله بن المبارك السقطي":كان مسند بغداد"أبو الغنائم محمد بن علي البغدادي" رحمه، ذا وجاهة وحالٍ واسعة ،فافتقر وقلَّ ماله ، وقد قصدتهُ في جماعةٍ من الأثرياء لنسمع منه الحديث النبوي وهو مريضٌ ، فدخلنا عليه وهو على حصيرة وعليه جُبَّة قد أكلت النار أكثرها !! ، وليس عنده ما يُساوي درهماً !! .
فتحامل على مرضه وحدثنا بما أردنا من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم قمنا من عنده لننصرف ، فلما خرجنا قلت لمن معي :
هل معكم مالٌ لنعطيه للشيخ ؟!! فجمعنا نحو خمسة مثاقيل من الذهب، فدعوتُ ابنته وأعطيتها إياها لتُسلِّمها لأبيها ، وبقيتُ أنتظر ردَّه!! .
فلما دخلتْ عليه ابنته وأعطتهُ الدنانير لطم وجهه ونادى :
وآ فضيحتاه !! آخذُ على حديثٍ عوضاً وأجراً ؟!! لا والله !!.
ثم نهض عن سريره حافياً ، فدعاني فأتيتهُ ، فبكى وقال لي :
تفضحني مع أصحاب الحديث ؟!! الموت أهون عليَّ من ذلك !! (أي من أن آخذ مالاً على تعليم الحديث النبوي) فأخذتُ الذهب ورددتهُ للجماعة فلم يقبلوه وتصدَّقوا

---

(١) : نقلاً عن كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان (٢٨٤/١) .

به !! (أي على الفقراء)" (١) .

فيا أخي الحبيب ، ويا أيتها الغالية الكريمة :

ما أنتما قد عرفتما مدى إجلال السلف لهذا العلم الشرعي، ومدى تعظيمهم له ، فاحذرا أن تُفرّط في هذه الدرة المصونة واللؤلؤة المكنونة ، فإنه لا يُفرط فيها إلا الجُهّال والحمقى!! فاحذرا أن تكونا منهم ، والله الموفق لسواء السبيل.

(١) : نقلاً عن كتاب " فتح المغيث بشرح ألفية الحديث " للحافظ السخاوي (٢٤٧/١١) .

٦٧ محاسبة النفس ونقد الذات

محاسبة النفس على تقصيرها وتفريطها في طلب العلم الشرعي وتحصيله من الأمور المحمسة والمحفزة لطلب العلم ، وذلك لأن :

*هذه المحاسبة تكشف للمرء مدى الجهل الذي يعيشه ويغرق فيه.

*وهذه المحاسبة تبين للمرء كيف أن عمره يمرُّ وينقضي بدون أن يتزوَّد فيه من العلم الشرعي .

*وهذه المحاسبة والمُعَاتبة تكشف للمرء الصوارف والملهيات التي شغلته عن طلب العلم الشرعي وتحصيله ليبادر باجتنابها وتركها.

*وقد أمرنا الرب تبارك وتعالى بمحاسبة أنفسنا ومعاتبتها على تقصيرها في الطاعات والباقيات الصالحات، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

* قال "الحافظ "ابن كثير" في تفسيره عند هذه الآية : ﴿ ولتنظرْ نفسٌ ما قدمت لغدٍ ﴾ : " أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم"(٢).

*قال "ميمون بن مهران" رحمه الله : " لا يكون العبد من المتقين حتى يُحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة الشريك الشحيح لشريكه"(٣) .

---

(١) : سورة الحشر الآية (١٨) .

(٢) : نقلاً عن "تفسير ابن كثير" (٣٤٢/٤) .

(٣) : نقلاً عن كتاب " إحياء علوم الدين " للغزالي (٣٧١/٤) .

*قال "ابن القيم" : " فإذا كان العبد مسئولا ومُحاسبا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾(١)، فهو حقيقٌ أن يُحاسِب نفسه قبل أن يُناقَشَ الحساب"(٢) .

فإذا كانت المحاسبة بهذه المكانة والأهمية فاحرص أخي الحبيب إذا أويت إلى فراشك بالليل لتنام أن تقف مع نفسك وقفة جادة صادقة، وتساءل مع نفسك :

كم آيةً من كتاب الله حفظتها اليوم ؟!! ...

هل قرأتُ وردي من القرآن كاملاً ؟!! ...

كم حديثاً نبوياً حفظته طوال هذا اليوم ؟!! ...

كم صفحةً قرأتها من الكتاب الفلاني ؟!! ...

كم مسألة علمية حفظتها أو حققتها طوال اليوم ؟!! ...

هل حضرتُ طوال هذا اليوم مجلساً إيمانياً أو درساً علمياً نافعا ؟!! ...

كم .... ؟! وهل .... ؟!! ولماذا .....!! وكيف .... ؟!! ...

فإنْ وجد المرء بعد محاسبته لنفسه ، أنه على خير فليحمد على ذلك وليسأله المزيد من التوفيق ، وإنْ وجد أنه مفرّط ومقصّر في تحصيل العلم الشرعي فليبادر باستدراك ما فاته ، وليبدأ صفحةً جديدةً ، ملؤها الجد والاجتهاد في طلب العلم وتحصيله ، وليتأمل في الصوارف والشواغل التي صدته عن طلب العلم فيما مضى فليجتنبها ، وليضع لنفسه برنامجاً حازماً لتحصيل العلم، وليستعن بإخوانه الصالحين على تنفيذه ، وهذا و الله هو عين الربح الحقيقي !! فهل من مُدكر ؟!! .

---

(١) : سورة الإسراء الآية (٣٦) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" إغاثة اللهفان" لابن القيم ج١ .

٦٨ إقامة مسابقات في تلخيص الكتب الشرعية

مما يُعين على التحمس لطلب العلم الشرعي إقامة مسابقات في تلخيص الكتب الشرعية، بحيث يتم اختيار بعض الكتب الشرعية المناسبة والملائمة لعقليات وقدرات المتسابقين ثم يُعطى المتسابقون فترة زمنية كافية للقيام بعملية تلخيص الكتاب ضمن عدد محدد من الصفحات ، بحيث يحتوى الملخص على النقاط الرئيسية والتفاصيل الهامة في الكتاب ، ثم يتم تسليم الملخصات إلى المشرف المسئول عن المسابقة ،ثم تتولى لجنة تحكيم مُحايدة عملية قراءة تلك الملخصات ومراجعتها،ثم يتم اختيار أفضل تلك الملخصات وتتم مناقشة أصحابها فيها ثم تُقدَّم لهم الجوائز التشجيعية .

وأسلوب مسابقات"تلخيص الكتب الشرعية" علاوةً على كونه وسيلةً للتحمس لطلب العلم الشرعي، فهو أُسلوبٌ تربوي راقٍ لتربية الشباب والناشئة على كيفية التقاط التفاصيل الهامة والنقاط الرئيسية في كتاب ما ، وعرضها بشكل مُرتَّب ومُنظَّم ، حيث تُمثل هذه النقاط الرئيسية والتفاصيل الهامة لُبَّ الكتاب وخلاصته المهمة .

٦٩ معرفة مدى حرص السلف على كثرة المشايخ

إذا كان أهل الدنيا يحرصون على الاستكثار من الأموال والسيارات والفلل والقصور ، فإنَّ المؤمن الصادق يحرص على لقاء أكبر عدد ممكن من العلماء الربانيين وتلقي العلم على أيديهم ، لأن هؤلاء العلماء الربانيين أرحمُ به وأشفق عليه من أبيه وأمه، ولقد كان سلفنا الكرام لشدة حرصهم على تحصيل العلم الشرعي لا يقتصرون على عالم أو عالمين أو عشرة يطلبون العلم على أيديهم،بل كانوا يطوفون البلدان ويرحلون عن الأوطان طلباً للقاء المزيد والمزيد من أهل العلم الربانيين، طمعاً في تحصيل فائدة علمية لم يُحصّلوها من قبل، أو الاستفادة من تجارب وخبرات هؤلاء العلماء في طريق طلب العلم الشرعي، فهيا بنا يا أخي لنرحل معهم بقلوبنا وأبصارنا :

*قال الحافظ"القرشي" في ترجمة الفقيه "أبي سعد السمَّان الرازي"رحمه الله:
"وقرأ على ثلاثة آلاف وستمائة رجلٍ من شيوخ زمانه !!، وقصد أصبهان لطلب الحديث في آخر عمره ، وكان يقول :
من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام !!" (١) .

*قال"ابن نقطة ": " سمعتُ من غير واحد من أهل العلم أنَّ "أبا الفتيان عمر بن عبد الكريم الروّاسي"رحمه الله سمع من ثلاثة آلاف شيخ وستمائة !!"(٢) .

*واستمع إلى "الذهبي"وهو يقول في ترجمة العلامة المحدث المؤرخ"ابن النجار البغدادي" رحمه الله :" قال"ابن الساعي" :كانت رحلة "ابن النجار" سبعاً وعشرين

---

١) : نقلاً عن كتاب " الجواهر المضية في تراجم الحنفية " للقرشي (١/١٥٦) .

٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٢٣٧/٤) .

سنةً!!، واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ !!"(١)

*قـال "ابن كثير" في ترجمة الإمام"البخاري" رحمه الله : "رحل إلى سائر مشايخ الحديث في البلاد التي أمكنته الرحلة إليها !! ، وكتب عن أكثر من ألف شيخ !! "(٢) .

*وهـذا"أبو حاتم بن حبان" رحمه الله يحكي عن حاله في طلـب العلـم فيقـول :

" لعلَّنا كتبنا عن أكثر من ألفي شـيخ !!".

فقال"الذهبي" معلقاً : كذا فلتكـن الهمـم !!"(٣) .

*قـال"هشام بن عبيد الله الرازي" رحمه الله يحكي حالـه في طلـب العلـم :

" لقيتُ ألفا وسبعمائة شيخٍ !!، وخرج مـني (أي أنفقت) في طلـب العلـم سـبعمائة ألف درهـمٍ !!"(٤) .

*حـكـى"الذهبي" في ترجمة الإمام"محمد بـن إسحاق بـن منـده" رحمـه الله قال :" وعِدَّة شيوخه الذين سمع منهم ألف وسـبع مائـة شـيخٍ !! ، وكتـب بيـده عدة أحمالٍ !! (أي من الكتـب)"(٥) .

*قـال"الذهبي" في ترجمة المحدث الرحَّالة"مـحمد بـن طـاهر المقدسـي" :

" سمع ببلده من الفقيه نصر ، و... ، وببغداد أبا محمد الصريفيني و ..، وبمكة من سعد بن علي الزنجاني و.... ، وبمصر من أبي إسحاق الحبَّال ،وبالإسكندرية من الحسن بـن عبد الرحمن ، وبتنّيس من علي بن الحسين الحداد ، وبدمشق من أبي القاسم بـن أبي العلاء ، وبحلب من الحسن بن مكي ، وبالجزيرة من عبد الوهاب التميمي ، وبالرحبـة

---

(١) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٤٢٨/٤) .

(٢) : نقلا عن كتاب"البداية والنهاية" لابن كثير (٢٨/١١) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ"للذهبي (٣ / ٩٢٠) .

(٤) : نقلاً عن كتاب"تذكرة الحفاظ"للذهبي (٣٨٧/١) .

(٥) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ " للذهبي (١٠٣٢/٣) .

من الحسين بن سعدون ، وبصور من الفضل بن المحب ، و... ، وبهراة من محمد الفارسي وغيره ، وبجرجان من إسماعيل بن مسعدة ، وبآمد من قاسم بن أحمد ، ولقي بأستراباذ علياً بن عبد الملك الحفصي ، وببوشنج عبد الرحمن بن محمد ، وبالبصرة عبد الملك بن شعبة ، وبالدينور أحمد بن عيسى ، وبالري إسماعيل بن علي الخطيب ، وبسرخس محمد بن عبد الملك ، وبشيراز علياً بن محمد الشروطي ، ولقي بقزوين محمد بن ابرهيم ، وبالكوفة أبا القاسم حسين بن محمد ، وبالموصل هبة الله المقري، وبمرو محمد بن الحسن، وبكرمان محمد بن سعد الحاكم ، وبمرو الروذ الحسن بن محمد الفقيه وبنهاوند عمر القاضي ، وبهمذان عبد الواحد بن علي، وبالحديثة طرادا الدبيثي وبواسط صدقة المتولي، وبساوة محمد الكاملي ، وبأسد آباد علياً المحلمي ، وبالأنبار أبا الحسن الخطيب ، وبإسفرايين عبد الملك المعدل ، وبآمل طبرستان الفضل البصري ، وبالأهواز عمر بن جيكان ،وببسطام أبا الفضل السهلكي ، وبيزدجرد الحسن البيهقي !! فهذه أربعون مدينةً قد سمع فيها الحديث !! ، وسمع في بلدان أخرى تركتُ ذكرها !!"(١) .

*قال"الذهبي" في ترجمة الإمام"ابن عساكر" رحمه الله : "وعدد شيوخه ألف وثلاث مئة شيخ ونيف وثمانون امرأةً !! ،... ، وحدَّث عنه خلق كثير،...، وأملى في أبواب العلم أربع مائة مجلس وثمانية !!"(٢) .

*قال"يعقوب، بن سفيان" رحمه الله : "كتبتُ عن ألف شيخ وكسر ، كلهم ثقات !!"(٣)

*قال"أبو القاسم الهذلي" رحمه الله يحكي حاله في طلب علم القراءات: "فجملة من لقيتُ في هذا العلم ثلاث مائة وخمسة وستون شيخاً ، من آخر

(١) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٢٤٢/٤) .

(٢) : نقلا عن كتاب"تذكرة الحفاظ"للذهبي (١٤٢٨/٤) .

(٣) : نقلا عن كتاب"تهذيب التهذيب" لابن حجر (٣٨٧/١١) .

المغرب إلى باب فرغانة يميناً وشمالاً وجبلاً وبحراً، ولو علمتُ أحدا يُقدَّم عليَّ في هذه الطريقة (أي في علم القراءات) في جميع بلاد الإسلام لقصدته !!.

قال "ابن الجزري"معقباً : كذا ترى همم السادات في الطلب !!"[1] .

(١) : نقلاً عن كتاب"غاية النهاية في طبقات القراء"لابن الجزري .

٧٠ إدراك مدى انتشار الجهل بين المسلمين

اعلم رعاك الله تعالى أن مما يزيدك تحمساً لطلب العلم الشرعي أن تتأمل في الحالة المريرة من الجهل والأمّية الشرعية التي تنتشر بين أكثر المسلمين في هذه الأيام، ولا حول ولا قوة إلا بالله،وحتى تتصور هذه الحالة تأمل معي هذه الوقفات اليسيرة:

*العالم الإسلامي يأتي في المرتبة الأولى من حيث انتشار الجهل والأمية بين أفراده،وأما الجُهال بأحكام الشرع من بين المتعلمين فهم كثير كثير!!.

*أخي: لا تنسَ مئات القباب والأضرحة المنتشرة في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي والتي يطوف بها عشرات الآلاف من الناس ويذبحون لها من دون الله عزَّ وجلَّ ، ويستغيثون بمن فيها من الأموات !! ، إما جهلا بتحريم ذلك وأنه شركٌ أكبر ، أو اعتمادا على بعض"الفتاوي ذات البلاوي" التي يُصدرها علماء السوء والضلالة في تلك الديار!! فمَنْ لهؤلاء يعلمهم عقيدة التوحيد الصافية من شوائب الشرك والبدع والضلالات ؟!! .

*هل تعلم أخي الحبيب أن هناك عشرات الآلاف من المسلمين لا يُحسن أحدهم قراءة الفاتحة على وجهها الصّحيح لعدم وجود مَن يُعلمهم ويُبصّرهم بأمور دينهم !! .

*وهل تعلم أن هناك مئات الآلاف من النساء لا يعرفن أحكام الحيض والنفاس،فتدع إحداهن الصلاة في غير وقت الحيض وتصلي وهي حائض جهلا منها!! فمَنْ المسئول عن هؤلاء جميعا بين يدي الله تبارك وتعالى ؟!! .

*وهـل تعلم أن هناك مئات المراكز الإسـلامية في بـلاد الكفـر لا يوجـد فيهـا طالب علم فضلا عن عالم يُعلم الكفار الذين دخلـوا في الإسـلام أصـول دينهـم ومبادئه،فقل لي بربك:من لهؤلاء المساكين؟!أما تخشى أن يسـألك الـرب تعـالى"قـد عرفتَ طريق الحق،فلماذا لم تبلغـه إلى الخلـق!! ".

*وهـل تعلم:أن هناك بلاد إسلاميـةً كثـيرةً حين تزورهـا وتبحـث فيهـا عـن العلماء فلا تكاد تجـد أحدا،أو على أحسن تقدير ربمـا وجـدتَ عالمـاً أو عـالمين طاعنين في السن قد أوشـكا على الموت والهـلاك، فمـن لإخوانـك المسـلمين في تلك الديـار والبقـاع ؟!! .

فـيا فتى الإسلام : ما دام الحال كما ذكرنـا،فمـا أنـت قـائل لربك تعالى إذا سألك عن هـذا الوضـع المأسـاوي ؟! فـأعدَّ للسـؤال جوابـاً !! وللجواب صـوابـاً!! .

ويـا فتى الإسلام : لا تحصُرْ نفسـك في بلـد معـين أو بقعـة محددة من الأرض لا تُفارقها ولا تهتم بسواها ، بـل اعلـم أن كـل أرض الإسـلام هي أرضك وكل وطن إسلامي فهو وطنك، وأهله هـم أهلـك، وهـم ينتظرونـك لتنقذهم من هذا الوضع المأساوي فماذا أعـددتَ لهـم ؟!!

وأينـما ذُكِـرَ اسـم الله في بـلـدِ ... عددتُ ذاكَ الحمى من صُلب أوطاني .

٧١ اتباع الطريقة الصحيحة في الجلوس للقراءة

كثيرٌ من الناس عندما يقرأ في كتاب ما،فإنه يجلس للقراءة جلسات غير صحية تُتعب جسمه وتُؤدي إلى نفور القلب والفكر من القراءة والتحصيل العلمي،فترى أحدهم مثلا يقرأ في ضوء خافتٍ ضعيفٍ، وآخر يقرأ في ضوء شديد الإضاءة ، وثالثٌ يحني ظهره بشكل غير طبيعي عند القراءة ، ورابعٌ إذا قرأ قرَّب الكتاب من عينيه لمسافة قريبة جداً جداً !! . وخامسٌ ... ، إلى غير ذلك من الصور والمظاهر الخاطئة لطريقة الجلوس أثناء القراءة .

والنتيجة المنطقية لكل الصور المتقدمة هي أن تتعب العين بسرعة، وتملَّ النفس من القراءة والتحصيل العلمي . فيدع المرء طلب العلم وينفر منه، وهذه والله خسارة كبرى !! .

والعلاج الناجع لمثل هذه الظواهر الخاطئة هو"اتباع الطريقة الصحيحة في الجلوس للقراءة"، والتي تتمثل في النقاط التالية :

احرص على أن يكون مكان القراءة جيد التهوية ليس بالحار الشديد ولا بارد المؤذي *احرص على أن تكون الإضاءة في مكان القراءة مناسبة، فلا هي بالضعيفة الباهتة ولا هي بالقوية المؤذية للعين .

احرص طوال القراءة على أن تجعل بين عينيك وبين الكتاب الذي تقرأ ه مسافة مناسبة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة جداً ، ولتكن مثلا قُرابة ثلاثين سنتيمتراً .

*إذا كنتَ تشعر أثناء القراءة بضعف في الإبصار أو بنزول دموع أو بألم في العين أو بصداعٍ في الرأس فبادر بعرض نفسك على الطبيب فلعلك تحتاج إلى نظارةٍ طبيةٍ للقراءة .

*احرص طوال جلوسك للقراءة على أن يكون ظهرك مستقيماً لا انحناء فيه،أو على الأقل فيه انحناء يسيرٌ، لأن الانحناء الشديد للظهر يُؤذي العينين ويُرهقهما .

٧٢ تجميع الكتب الشرعية النافعة

اقتناء أكبر قدر ممكن من الكتب الشرعية النافعة والحرص على تجميعها وسيلة مساعدة على إيقاظ الهمة وإشعال الحماسة لطلب العلم ، وذلك لوجوه :

١* إذا جمع المرء هذه الكتب وصفّها عنده في مكتبة منزله ، أو في غرفته الخاصة به، وصار ينظر إلى هذه الأكوام المتجمعة من الكتب الشرعية ذات الطباعة الفاخرة والأنيقة،لابد أن تتحرك همته للقراءة في بعضها ولو لفترة قصيرة ، لأنه حين ينظر إلى هذه الكتب سيتذكر المجهود الشاق والمضني الذي بذله علماء السلف لكتابة هذه الكتب وتأليفها وجمعها وما لاقوه من مصاعب في سبيل ذلك! وحينئذ سيقارن بين حالهم وحاله هو !! ، ويقول لنفسه معاتباً : هم بذلوا ما بذلوا وضحّوا بكل شيء لأجل العلم الشرعي!فأنتِ يا نفسُ ماذا عملتِ؟!! وماذا قدّمتِ ؟!! .

*وحين ينظر المرء إلى هذه الكتب الكثيرة في مكتبته لا بد أن يسأل نفسه: إلى متى أجمع الكتب ولا أقرأ فيها ؟!!...

ثم يعاتبها قائلاً : يا نفس ليس العيبُ في الإكثار من تجميع الكتب بل هذا التجميع محمدةٌ وفضيلة إنما العيب هو في ترك القراءة فيها !! فاستيقظي من غفلتكِ وانتبهي من رقدتكِ !! .

*وأحياناً يُصاب المرء بمشكلة أو بلاء أو همّ وغمّ وترغب نفسه في عمل أي شيء يُنسيه هذا الهم أو تلك المشكلة ، فإذا كانت الكتب مصفوفةً أمامه

في مكتبته مدَّ يده إليها وتناول أول كتاب تصل إليه يده ليقرأ فيه،وربما لم يدع الكتاب حتى يُنهيه، وهذا هو المطلوب.

*ثم إن إنفاق الأموال في شراء الكتب الشرعية وتجميعها عمل خير وتُقىً يُؤجَر عليه المرء في الدنيا ويصل إليه نفعه بعد موته وهو في قبره إذا أوصى بهذه الكتب لمن ينتفع بها أو جعلها وقفاً على مركز إسلامي أو مسجد من المساجد أو مكتبة من المكتبات العامة ، فهل بعد هذه الغنيمة غنيمة ؟!! .

فإن قلت لي : قد عرفتُ فوائد تجميع الكتب الشرعية والإكثار من اقتنائها ، لكن هل من مُشوِّق للقلوب ومحفز للنفوس إلى الحرص على هذه الخصلة الحميدة ؟!!
فأقول لك : اقرأ معي الطريقة التالية ، ففيها ما طلبتَ !! .

٧٣ معرفة مدى حرص السلف على تجميع الكتب

إذا كان عزُّ التاجر ومجده في دراهمه وكيسه ، فإن عزَّ العالم ومجده وفخره في كتبه وكراريسه ، فهي ماله الحاضر، وهي ذخره الذي يبقى نفعه له من بعده،ولئن كان أهل الدنيا ,وأتباع الشهوات يتسابقون في تجميع الأموال وتحصيل اللذات والاستكثار منها،فإن العالم الرباني يُسابق ويُسارع في تجميع أكبر قدرٍ ممكن من الكتب الشرعية،لأنها رأس ماله وعُدَّته التي يَقدُم بها على الله تعالى ، وكذا كان سلفنا الكرام يفهمون هذه القضية ، فتدبر معي هذه النماذج العظيمة والصور المشرقة في الحرص على تجميع الكتب الشرعية واقتنائها :

*قال الشيخ"محمد الطباخ" في ترجمة العلامة الأديب النحوي الوزير"أبي الحسن القفطي الحلبي" رحمه الله :

"أنه (أي القفطي) لما أقام بحلب (وكان حينها وزيراً) كان يسعى كل السعي في شراء الكتب واقتنائها من البلدان البعيدة ،... ، وتوافد عليه الورّاقون والنسّاخون وباعة الكتب من كل حدبٍ وصوب ،...، وكان يبذل فيها (أي في شراء الكتب) الأثمان العالية ويُجزل فيها العطاء فتتوجه إليه من شتى البقاع والأصقاع ،...، حتى اجتمعت له مكتبة جامعة نادرة المثال!!" [١].

*وقال"ابن شاكر الكتبي" في ترجمة الوزير"القفطي" : "وجمعَ من الكتب ما لا يُوصف، وقُصِدَ بها من الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم تكن له دارٌ ولا زوجةٌ، وأوصى (أي القفطي) بكتبه"للناصر" صاحب "حلب"(أي أميرها) ،وكانت تساوي خمسين

---

(١) : نقلاً عن كتاب "إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء" للطباخ (٤/٤١٤) .

ألف دينار !!(فلو افترضنا أن الدينار يساوي الآن مائة ريال على أقل تقدير، لكان المجموع هو خمسة ملايين ريال!!) "(١) .

*خلَّف الإمام"يحي بن معين" رحمه الله من الكتب مائةً وأربعة عشر قمطراً !! (والقمطر هو الكيس الكبير أو الصندوق الذي تُوضَع فيه الكتب) وأربعة حباب شرابية مملوءة كُتباً !!" .

*وهذا الحافظ"ابن حجر" يقول في ترجمة الإمام"ابن القيم": " وكان (أي ابن القيم) مغرى بجمع الكتب !! ، فحصَّل منها ما لا يُحصى، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا !!، سوى ما إصطفوهُ (أي اختاروه) منها لأنفسهم !! "(٢) .

*قال"ابن رجب" في ترجمة المحدث"ابن الخشَّاب البغدادي" رحمه الله :

" ذكر"ابن النجار"أنه لم يمت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث إلا وكان (أي ابن الخشاب) يشتري كتبه كلها !!، فحصلت أصول المشايخ عنده، وكان لا يخلو كمُّه (أي جيب ثوبه) من كتب العلم !!"(٣) .

*حكى"المنذري" قال : " كان الحافظ"السِلَفِي" رحمه الله تعالى مُغرى بجمع الكتب !! ، وما حصل له من المال يُخرجه في ثمنها، وكان عنده خزائن كتب لا يتفرَّغ للنظر فيها !! "(٤) .

*نقل"الذهبي" في ترجمة"القاضي عبد الرحيم بن علي اللخّي" قال :" وبلغنا أن كتبه التي ملكها بلغت مائة ألف مجلد، وكان يُحصِّلها من سائر البلاد !!"(٥) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي (٢/١٢١) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة" لابن حجر (٤/٢٢) .

(٣) : نقلاً عن كتاب " ذيل طبقات الحنابلة " لابن رجب (١/٣١٩) .

(٤) : نقلاً عن كتاب " طبقات الشافعية الكبرى " للسبكي (٦ /٣٢) .

(٥) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢١ /٣٤١) .

* قال "الذهبي" في ترجمة العبد الصالح " محمد بن عبد الله السلمي المرسي" رحمه الله :

" كتب وقرأ وجمع من الكتب النفيسة كثيراً ، ومهما فُتِحَ به عليه صرفهُ في ثمن الكتب !! "(١) .

(١) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣١٣/٢٣) .

٧٤ اتباع الطريقة الصحيحة في القراءة

كثيرٌ من الناس تكون لديه همة لطلب العلم فيختار الكتاب المناسب لمستواه ويختار الوقت والمكان المناسبين للقراءة ثم يشرع في القراءة والمطالعة لمدة ساعة أو ساعتين،ثم يجد أنه لم يخرج من قراءته تلك بأيّ فائدةٍ !! ، ويشعر بأنه لا يذكر شيئاً مما قرأه قبل ساعاتٍ !!، وحينئذٍ تتحطم معنوياته وتهبط عزيمته للقراءة والتعلم !!! .

وهذه في الحقيقة مشكلة يُعاني منها الكثيرون، وسببها هو عدم اتباع الطريقة الصحيحة في القراءة والفهم ، وهذه الطريقة النموذجية في القراءة والفهم لها عدة مظاهر بارزة من أهمها :

*احرص أثناء قراءتك للكتاب على وضع علامات أو إشارات معينة أو خطوط ملونة عند العبارات الهامة والمفيدة التي تمر بك في أثناء القراءة.

*عند قراءتك لفصل ما من كتاب ما احرص على تحديد الفكرة الرئيسية التي يدور حولها الفصل كله وقم بتدوين هذه الفكرة على الهامش الأيسر من صفحة الكتاب .

*كل فصل أو مقطع طويل من الكتاب يحتوي على عدة فقرات فاحرص على تحديد الفكرة الرئيسية التي تدور حولها كل فقرة ، ثم قم بتدوينها على هامش الصفحة .

*عند فراغك من قراءة الفصل كاملا قم بكتابة ملخص لهذا الفصل يتضمن الفكرة الرئيسية للفصل والأفكار الفرعية وبعض التفاصيل الهامة .

*احرص على الاحتفاظ بملخصات الفصول لديك في ملف خاص أو قم بإلصاقها في آخر الكتاب ، فإنّ هذه الملخصات بمثابة مُختصر لهذا الكتاب.

٧٥ معرفة مدى احترام الناس للعالم بعد موته

من ثمار طلب العلم الشرعي بصدق وإخلاص لله تعالى، أن الرب تعالى يقذف في قلوب الناس محبة واحترام وتقدير هذا العالم الرباني، وهذا الاحترام والتقدير ليس قاصراً على حال الحياة، بل حتى بعد موت العالم الرباني، فتجد الألسن تتابع في الترحُّم عليه والدعاء له ، والثناء عليه بأجمل الصفات وأسمى الخصال، وتتسابق القلوب قبل الأبدان لحضور جنازته وتشييعها تقرباً إلى الله تعالى بذلك ، فكأنَّ هذا العالم الرباني حيٌّ لم يمت !!، بل تبقى الأجيال تذكره وتترحم عليه جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل، فيا لله ما أعظمه من عزٍ ومجدٍ وسؤددٍ ؟!! ، وهذا والله هو عزُ الدنيا قبل عزِّ الآخرة !!

فعال أخي لنرى صوراً من هذا التكريم والتقدير للعلماء الربانيين بعد موتهم:

*تدبر معي هذه المشاهد الرائعة لجنازة الإمام"أحمد بن حنبل" رحمه الله ، والتي يرويها لنا الإمام "الذهبي" بقوله :

" قال"عبد الوهاب الورَّاق":ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية ولا في الإسلام مثله!!(أي مثل عدد الذين شهدوا جنازة"أحمد" وصلّوا عليها) ، حتى بلغنا أن الموضع مُسِح وحُزِرَ على الصحيح ، فإذا هو نحو من ألف ألف !!(أي مليون شخص حضروا جنازته) ،...، وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب يُنادون من أراد الوضوء!! (أي الوضوء لصلاة الجنازة على الإمام أحمد) .

* قال"ابن أبي صالح القنطري": "شهدتُ الموسم (أي موسم الحج) أربعين عاماً، فما رأيتُ جمعاً قط مثل هذا !! (أي مثل عدد الذين حضروا جنازة الإمام"أحمد" "(١)

(١) : نقلاً عن كتاب "سير اعلام النبلاء" للذهبي (١١/٣٣٩) .

*وهـــذا"ابن كثير"يقول :" وقال الإمـــام"أحمـــد" : قولـــوا لأهـــل البـــدع بيننـــا وبينكم يوم الجنـــائز !!

فقال"ابن كثير"معقباً : وقد صدق والله قول أحمـــد في هـــذا !! ، فإنـــه كـــان إمـــام السنّة في زمانه ، وعيون مخالفيه"أحمد بن أبـــي دؤاد" وهـــو قـــاضي قضـــاة الدنيـــا لم يحتفل أحد بـــموته !! ، ولم يُلتَفَت إليـــه !! ، ولما مـــات مـــا شـــيَّعه إلا قليـــل مـــن أعوان السلـــــطان !! "(١) .

*واســـتمـــع إلى"ابن كثير" وهو يقول" : " وحـــين مـــات "بشـــر بـــن الحـــارث الحافي" رحمه الله ، اجتمع في جنازته أهل بغـــداد كلهـــم ، فـــأُخرِجَ (أي النعش) بعـــد صلاة الفجر،فلم يستقرّ في قبره إلا بعد العَتَمَة !! (أي بعـــد العشـــاء لكـــثرة الزحـــام عليـــه) ، وكان النهار صائفاً فيه طـــولٌ !! .

قال"يحي بن عبد الحميد":فرأيت"أبا نصر التمّار" و"علـــي بـــن المديـــني"يصيحـــان في جـــنـــازة"بشـــــر": هـــذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة!! "(٢) .

* قـــال الحافظ"ابن كثير" واصفاً جنازة شيخ الإسلام"ابـــن تيميـــة":"قـــال البـــرزالي في تاريخه:"وفي ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعـــــدة تُـــوفي الشـــيخ الإمـــام"ابـــن تيمية" بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً بها ، وحضـــر جمـــعٌ كـــثـــير إلى القلعـــة، وأُذِن لهم في الدخرل عليه ،... ، فلما فُرِغَ من غسله أُخـــرجَ ثـــم اجتمـــع الخلـــق بالقلعـــة والطريـــق إلى الجـــامع وإمتـــلأ الجـــامع أيضـــا وصَحنُـــــه والكلاســـــة و...،وحضرتْ الجنازة في الساعة الرابعة من النهـــار أو نحوهـــا ووُضِعَـــتْ بالجـــامع ،والجند قد احتاطوا بها يحفظونها مـــن النـــاس مـــن شـــدة الزحـــام، ،...، وقـــد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكـــره ، ثـــم تزايـــد الجمـــع إلى أن ضـــاقت

---

(١) : نقلاً عن كتاب "البداية والنهاية " لابن كثير (١٠/٣٤٢) .

(٢) : نقلا عن كتاب"البداية والنهاية"لابن كثير (١٠/٢٩٧) .

الرحاب والأزِقَّة والأسواق بأهلها ومَــنْ فيهــا !! .

وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهــي شــديدة الزحــام !! ، كــل بــاب أشد زحمةً من الباب الآخر !! ، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعهــا مــن شــدة الزحام فيهــا !!،... ، وأغلَــقَ النــاس حوانيتهــم (أي دكــاكينهم) ولم يتخلــف عــن الحضور إلا مَنْ هو عاجز عن الحضور !! ، مع الــترحُّم والدعــاء لــه !! "[١] .

(١) : نقلاً عن كتاب"البداية والنهاية" لابن كثير (١٤٢/١٤) .

٧٠ إدراك قلة العلماء الراسخين في العلم

يظـن الكثير أن لقـب"العالم" أو "طـالب العلـم" شـيءٌ
ـهل المنال،يُحصّله المرء بمجرد قراءتـه لكتـاب أو كتـابين أو عشـرة كتـب،أو
له بحفظه لحديث أو حديثين أو مائة حديـث نبـوي،أو يحـوزه بمجـرد حصولـه
ى الشهادة الجامعيـة الشـرعية، وهـذا وهـمٌ خـاطئ وسـراب خـادع، لأن
ب"العالم" أو "طالب العلـم" لقـبٌ علمـي شـرعي جليـل يحتـاج إلى سمـات
واصفات خاصة تتوفر فيمن يحمل هذا اللقب الجليل،ومـا تـزال تلـك الصفـات
لسمات تتناقص ويقلُّ وجودها كلما تباعد الناس عن عصر النبـوة، فـاقرأ معـي
ىاك الله مواصفات "العالم" عنـد السـلف الكـرام ، ثـم طبّقهـا علـى واقعنـا
ىاضر ، لتتأكد من ندرة "العلماء الراسخين " في هـذا الزمـان .

ـال"محمد بن سيرين"رحمه الله : " ذهب العلم، وبقيتْ منه شذراتٌ في أوعية شـتى
"(١) ، وهذا الـكلام يقوله "ابـن سيرين"للتـابعـين فليت شعري لو أدرك"ابن
ىرين" زماننا المعاصر ماذا كان سيقـول ؟!! لعـله سيقـول : لقد ذهب العـلم
ـله !! فلم يبـق منـه شيءٌ !! والله المستعان على كل حال .

سئل"يحي بن معين"رحمه الله:" أيُفتي الرجل إذا كان حافظا لمائة ألف حديث؟!! فقال :
!! ... فقيل له : ومن مائتي ألف حديث ؟!! ...فقال : لا !! ... ، فقيل له : ثـلاث
ة ألف حديث ؟!! ... قال : لا !! ... فـقـيل لـه : ومن خمس مئة ألف حديث؟!
ال : أرجو !! (أي إذا كان المرء حافظا لنصف مليون أثر فلعله حينئذ أن يكون مؤهلاً للفتيا)"(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٦١٢/٤) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"الجامع لأخلاق الراوي" للبغدادي ج ٢ .

*عن"عبد الرحمن البغوي"قال :" مرَّ عليَّ"أحمد بن حنبل" جائيا من الكوفة ومعه كيس فيه كتبٌ، فقلت له: إلى متى وأنت تطلب العلم ؟!!(أي يكفيك ما لديك من العلم) ، إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث ألا يكفيه ذلك ؟!
فسكت عني ، فقلت:ستين ألف حديث ؟! فسكت عني، فقلت : مائة ألف حديث، فقال"أحمد":إذا كتب مائة ألف حديث فحينئذٍ يكون قد عرف شيئاً من العلم !!"(١) ، فأين مَن يحفظ مائة ألف حديث في هذه العصور المتأخرة من العلماء أو طلبة العلم !؟ .

*قال"ابن الجوزي" واصفا قلة العلماء الراسخين والمتبحرين في عصره :
"كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث ، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القران،وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنن أبي داود ، ونحوها،ثم استهانوا بهذا الأمر أيضا،وصار أحدهم يحتجُّ بآيةٍ لا يعرف معناها !! وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا !! وربما اعتمد على قياس يعارضه حديثٌ صحيحٌ وهو لا يعلم بذلك !! لقلة التفاته إلى معرفة النقل ، وإنما الفقه استخراجٌ من الكتاب والسنة فكيف يَستخرِجُ من شيء لا يعرفه !! .
لكن غلب على المتأخرين الكسل بالمرَّة عن أن يُطالِعُوا علم الحديث !! حتى إني رأيتُ بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن ألفاظ في الصحاح : لا يجوز أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قال هذا !! ،... ، ويجعل الجواب عن حديث صحيح قد احتجَّ به خصمه ، أن يقول:هذا الحديث لا يُعرَف !! ، وهذا كلُّه جناية على الإسلام !! "(٢) .

*قال"مجاهد بن جبر" رحمه الله : " ذهب العلماء فلم يبقَ إلا المتعلّمون ، وما المجتهد

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مناقب الإمام أحمد "لابن الجوزي .
(٢) : نقلاً عن كتاب "تلبيس إبليس" لابن الجوزي .

فيكم اليوم إلا كاللاعب فيمَن كان قبلكم !!"(١) ، فهـذا الكـلام يقولـه"مجـاهد" لأهل زمانه من التابعين،فليت شعري لو أدرك زماننا مـا عسـاه أن يقـول؟! .

*قـال"أبو عمرو بن العلاء" رحمـه الله المتوفـى في منتصـف القـرن الثـاني عـام ١٥٤هـ واصفا قلة العلماء الراسـخين في عصـره:

"ما نحن فيما مضى (أي ما حالنا بالنسبة لعلم مَن سبقنا من سـلف الأمـة) إلا كبقـلٍ في أصـول نـخل طِـوال !!"(٢) .

*قـال التابعي الجليل"بلال بن سعد" المتوفَى قـرابة عـام ١٢٠هـ رحمـه الله مخاطباً أهل عصره : "زاهدكم راغـبٌ !! (أي في الدنيـا وزينتهـا)، ومجتهدكـم مقصّـرٌ !! ، وعالمكم جاهلٌ !!، وجـاهلكم مُغتـرٌّ!!"(٣) .

*وهـذا"الشعبي"رحمه الله يقول : " ما سمعتُ منذ عشرين سـنة رجـلاً يُحـدّث بحديث إلا أنا أعلم به منهُ !! ، ولقد نسيتُ من العلم ما لـو حفظـه رجـل لكـان به عـالـمـاً !!"(٤).

*ورحـم الله "جلال الدين الشيرازي" المتوفى عام ٩١٨هـ الـذي قـال واصفـاً قلة العلماء الراسخين في عصـره :

" لو علم الأسلاف ، أنه يخلف مِن بعدهم نظائرنـا مـن الأجـلاف !! لأوصـوا أن تُدفَن كتبهم معهم في قبورهم ، بل لم يُظهروا قـط مـا في صدورهـم !! "(٥) ، فلـو أدرك"الشيرازي" زماننا هذا ما عسـاه أن يقـول؟!! .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"التاريخ الكبير" لابن أبي خيثمة .

(٢) : نقلاً عن كتاب" مُوضّح أوهام الجمع والتفريق" للبغدادي (١/٥) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "الزهد" لابن المبارك .

(٤) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء"للذهبي (٤/٣٠١) .

(٥) : نقلاً عن كتاب"رياض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار" للعلامة " الأماسي" .

٧٧ تفريغ وكتابة أشرطة الدروس العلمية

من الأمور المحفزة على طلب العلم والحمسة لتحصيله، أن يقوم المرء باختيار مجموعة من أشرطة الدروس العلمية الشرعية أو الإيمانية التربوية ـ وليحرص على الدروس المليئة بالفوائد والنفائس العلمية ـ ثم يقوم بكتابة وتفريغ تلك الأشرطة على الورق، بخط جميل ومرتب وواضح،ثم يقوم بعرض ما كتبه على الشيخ الذي ألقى تلك الدروس ليقوم الشيخ بمراجعة المكتوب وتصحيحه وتنقيحه، ثم يتم تسليم تلك الدروس المكتوبة إلى إحدى دور النشر لتقوم بإصدارها بشكل كتاب نافع مفيد ، يتداوله الناس بينهم ، فإنْ لم تتيسر عملية الطباعة،فيمكن للمرء القيام بتصوير تلك الدروس المكتوبة وتوزيعها على الزملاء والأقران من طلاب العلم ليعمَّ النفع بها.

إن مثل هذا الأسلوب ـ أعني تفريغ وكتابة الأشرطة ـ له فوائد متعددة منها :

* هذا الأسلوب يعتبر وسيلة للتحمس لطلب العلم،فإن المرء مع الكتابة والتدوين تعلق بذهنه مئات الفوائد والمسائل التي كتبها.وهذا شيءٌ واضح ، لأن من طرق حفظ العلم كتابته وتدوينه.

*هذا الأسلوب فيه حفظ للوقت واغتنام له في الطاعات .

* هذا الأسلوب يُساعد على انتشار تلك الدروس وعموم النفع بها عند كثير من فئات المجتمع ، بخلاف ما لو بقيت تلك الدروس بشكل أشرطة فإن الانتفاع بها يظل قاصراً على طلبة العلم فقط.

٧٨ معرفة كيف أنفق السلف أموالهم لأجل طلب العلم

قررنا في طريقة سابقة أن العلم الشرعي خيرٌ من المال والذهب والفضة، والنفس بطبيعتها تحب المال وتحرص عليه، ولكن من المتفق عليه عند كل العقلاء أنه إذا تزاحمت المطالب والمرغوبات، فلا بدَّ أن يتنازل المرء عن مطلوبه الأدنى ويُضحّي به لأجل مطلوبه الأعلى والأسمى،وكذا كان سلفنا الكرام،فلقد ضحوا بأموالهم وأنفقوها رخيصةً في سبيل طلب العلم الشرعي وتحصيله ، فتعال أخي نتأمل في تلك الملحمة الكبرى التي سطَّرها سلفنا الكرام ، "ملحمة البذل والإنفاق في سبيل تحصيل العلم الشرعي":

* كان والد"يحي بن معين" رحمه الله كاتبا"لعبد الله بن مالك"،فمات وخلَّف لابنه"يحي" ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم (أي مليون وخمسين ألف درهم) فأنفقها "يحي"كلها على طلب الحديث النبوي حتى لم يبق له نعلٌ يلبسهُ !!"[١] .
* قال"هشام بن عبيد الله الرازي": "خرج مني في طلب العلم سبع مائة ألف درهم !!"[٢] .
* قال"علي بن عاصم"رحمه الله : " دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم !!، وقال لي : اذهب (أي ارحل لطلب العلم) فلا أرى لك وجهاً إلا بمائة ألف حديث !!"[٣] .
* واستمع إلى"محمد بن سلام البيكندي"رحمه الله وهو يقول : " أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفاً ، وأنفقتُ في نشره أربعين ألفاً " .

---

١) : نقلاً عن كتاب"تهذيب التهذيب" لابن حجر (٢٨٢/١١) .

٢) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣٨٧/١) .

٣) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣١٧/١) .

*قال"خلف بن هشام الأسدي" رحمه : "أ شكل عليَّ باب من النحو، فأنفقتُ ثمانين ألف درهم حتى حذقتهُ !!(أي تعلمتهُ وأتقنتهُ) "(١) .

*وهذا "ابن الجوزي"يحكي تجربته في هذا المجال فيقول :"واعلم يا بنيَّ أن أبي كان مُوسرا وخلَّف ألوفاً من المال،فلما بلغتُ دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لي : هذه التركة كلها !!، فأخذتُ الدنانير واشتريتُ بها كتباً من كتب العلم ، وبعتُ الدارين وأنفقت ثمنهما في طلب العلم ، ولم يبقَ لي شيءٌ من المال !! "(٢) :

*عن"الجوزقي"رحمه الله قال : " أنفقتُ في طلب الحديث مائة ألف درهم، ما كسبتُ درهماً !!"(٣) .

*حكى"محمد بن الحسن الشيباني" رحمه الله قال : " تركَ لي أبي ثلاثين ألف درهم !!، فأنفقتُ خمسة عشر ألفاً على النحو والشعر ، وخمسة عشر ألفاً على الحديث والفقه !!"(٤)

*قال"محمد بن أيوب"رحمه الله :" آخر قَدمَة قدمتها البصرة ، أديتُ أجرة الورّاقين (وهم الذين يكتبون له الكتب وينسخونها) عشرة آلاف درهم !!"(٥) .

*قال"أبو بكر الأصبهاني"رحمه الله : "ر حلتُ إلى مصر ومعي ثمانون ألفاً ،فأنفقتها على ثمانين ختمةً !!(أي أنه ختم القران على الشيوخ ثمانين مرة وأنفق لأجل ذلك ثمانين ألف درهم ، فما أربح البضاعة) "(٦) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "معرفة القراء الكبار" للذهبي (٢٠٩/١) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "لفتة الكبد في نصيحة الولد" لابن الجوزي .

(٣) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٠١٣/٣) .

(٤) : نقلاً عن كتاب "تاريخ بغداد" للبغدادي (١٧٣/٢) ,

(٥) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٦٤٣/٢) .

(٦) : نقلاً عن كتاب "معرفة القراء الكبار" للذهبي (١٨٩/١) .

*قال"القفطي" في ترجمة العالم"علي بن محمد الأسدي" رحمه الله :

"وكان أبوه من أهل اليسار (أي الغنى) من أهل الكوفة ، واشتغل ولده هذا بطلب العلم من يومه ، ولما مات أبوه خلّف له زائدا عن خمسين ألف دينار ، فصرفها (أي الأسدي) كلها في طلب العلم، وتحصيل الكتب اشتراءً واستنساخاً وكتابةً!! ، وصرف من ذلك جزءاً صالحاً لفقراء طلبة العلم"[1]

*قال"إسماعيل بن عيّاش" رحمه الله :" ورثتُ عن أبي أربعة آلاف دينار، أنفقتها في طلب العلم !!"[2] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "إنباه الرواة على أنباء النحاة " للقفطي (٢/٣٠٥) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (١/٢٥٣) .

٧٩ معرفة حكم طلب العلم الشرعي

طلب العلم الشرعي ليس في كل الأحوال أمراً مستحباً مندوباً إليه،يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه،بل هناك أحوال كثيرة يكون طلب العلم الشرعي فيها أمرا واجباً وجوباً عينياً على كل فرد مسلم ، ويأثم المرء بترك القيام بهذا الفرض العيني ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : " طلب العلم فريضة على كل مسلم"(١)..

وفي أحوال أخرى يكون طلب العلم الشرعي واجباً كِفائياً يجب على الأمة في مجموعها فلو لم تقم به الأمة أو قام به من لا تحصل بهم الكفاية أثمت الأمة جميعها،وما دام الأمر كذلك فلا بدَّ من معرفة حد وضابط العلم الشرعي الذي يجب على المرء تعلُّمه وجوبا عينيا أو كفائياً.

*فاستمع إلى الإمام"ابن القيم" وهو يُبين لك أنواع العلم الواجب تعلمه فيقول :"النوع الأول :أصول الإيمان الخمسة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، .... .

النوع الثاني : علم شرائع الإسلام ، واللازمُ (أي الواجب) منها : علم ما يخص العبد من فعلها (أي يلزمه تعلم العبادات والشعائر التي يجب عليه فعلها والقيام بها) كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوع الثالث : علم المحرمات الخمس التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية

---

(١) : رواه "ابن عدي" والبيهقي في "شعب الإيمان" من حديث"انس" رضي الله عنه ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" برقم (٣٨٠٨) .

وهي المذكورة في قولــه تعــالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)، فهــذه محرمــات على كل واحد في كل حال،على لسان كل رســول لا تُبــاح قــط .... .

النوع الرابع :علم أحكام المعاشرة والمعاملة الــتي تحصــل بينــه(أي بين المرء)وبــين الناس خصوصاً (أي خاصتــه مــن زوجــة وأولاد وأقــارب) وعمومــاً(أي مــع عامــة النــاس) ، والواجب في هذا النوع يختلــف بــاختلاف أحــوال النــاس ومنــازلهم ، فليــس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مــع أهلــه وجيرانــه ، وليــس الواجب على مَن نصّب نفسه لأنــواع التجــارات مــن تعلــم أحكــام البياعــات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري. إلا ما تدعو إليــه الحاجــة(٢)

إذن يمكن القول إنه يتوجب على المسلم معرفة وطلب علم أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والخــوف مــن الله واللجــوء إليــه ،... فإن هذه ملازمة له في كل أحواله، وكذلـــك يلزمــه معرفــة وطلــب علــم الحال،أي طلب علم ما يقع له في حاله في أي حال كــان،فــإذا أراد الصــلاة لزمــه تعلم أحكامها،وإنْ أراد الحج لزمه تعلم كيفيته وأحكامــه . وإن كــان لديــه مــالٌ من الأموال الزكوية التي توفرت فيها شروط وجوب الزكــاة لزمــه تعلــم أحكــام الزكاة المتعلقة بذلك النوع . وهكذا في سائر شــؤون حيــاته العمليــة مــن نكــاح ومعاملات وبيــــوع ومنازعــات و ... و ... .

---

(١) : سورة الأعراف الآية(٣٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب" مفتاح دار السعادة " لابن القيم(٦/٢) .

٨٠ تربية النفس على ترك الكسل والتسويف والتأجيل

من مكائد الشيطان الخبيثة التي صاد بها كثيرا من الناس وصرفهم بها عن طلب العلم الشرعي وتحصيله، مكيدة"التأجيل والتسويف" ،فكلما همَّ المرء بطلب العلم وتحصيله جاءه الشيطان وسوَّل له تأجيل ذلك إلى الغد بدعوى كثرة المشاغل أحيانا، وأحيانا بدعوى تهيئة النفس للقراءة والطلب، وتارة بدعوى أن ظروفه الحالية غير ملائمة للطلب والتحصيل، وهكذا تمضي الأيام شيئا فشيئا ويتقضى العمر، وتكثر المشاغل ويكبر المرء وينزل الموت بالمرء وهناك يندم على التسويف والتأجيل، ولكن وقت لا ينفع الندم !! .

* قال"ابن القيم" واصفا هذه المشكلة بعبارة جميلة : "كلما جاء طارق الخير، صرفه بوَّاب لعلَّ وعسى"(١) .

وقد رسم لنا سلفنا الكرام العلاج الناجع لهذه المشكلة العويصة ألا وهو تربية النفس على المبادرة إلى الطاعات، وترك التسويف والتأجيل.

*وقد حثنا الرب تبارك وتعالى على المبادرة بفعل الطاعات وعدم التسويف فيها ، كما قال تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾(٢)

*عن"أبي هريرة" رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : " بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتنٌ كقطع الليل المظلم"(٣) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الفوائد" لابن القيم .

(٢) : سورة آل عمران الآية (١٣٢) . .

(٣) : رواه مسلم في صحيحه .

*وهذا "الحسن البصري"يُوصيك ويقول لك : "إياكَ والتسويف ، فإنك بيرمك ولست بغدكَ !!

قال"الحسن":"فإن يكن غدٌ لك فكِس فيه !! (أي اجتهد فيه في الطاعات) كما كِستَ في اليوم، وإلا يكن الغد لك لم تندم على ما فرطتَ في اليوم"(١) .

* واستمع إلى"ابن الجوزي" وهو يقول مُحذِّرا من التسويف :
"إياك والتسويف ، فإنه أكبر جنود إبليس"(٢).

*وهذا"ابن القيم" يقول : " أعظم الأسباب التي يُحرَم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين ويدخل عليه عدوه منها ، هما : الغفلة المضادة للعلم ، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة (أي المضاد لعلو الهمة) ،وهذان هما أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء ، ... ، فالكسل يتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة ،.. ، ولهذا استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام من الكسل؛ ففي الصحيح عنه أنه كان يقول : " اللهم إني أعوذ بكَ من الهم والحَزَن والكَسَل والجُبن والبخل وضَلَعْ الدَين وغلبة الرجال".

فإنَّ تخلُّف مصلحة العبد وكماله ،..، إما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز، أو يكون قادرا عليه لكن تخلَّف لعدم إرادته، فهو الكسل وصاحبه يُلام عليه ما لا يُلام على العجز ، وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيُلام عليه أيضا،فكثيرا ما يكسل المرء عن الشيء الذي هو قادر عليه، وتضعف عنه إرادته فيفضي به إلى العجز عنه، وهذا هو العجز الذي يلوم الله عليه"(٣).

*والكسل والتسويف هو بضاعة الحمقى والمغفلين، ولهذا لَما قيل لأحد الصالحين : أوصنا !! قال لهم : احذروا سوف!! " .

*والكسل والتسويف سببٌ للخسران والندامة ، وما أجمل قول "ابن الجوزي " معبراً

---

(١) : نقلاً عن كتااب "مفتاح دار السعادة" لابن القيم (١/١٧٤) .

عن تلك الحقيقة التي يغفل عنها الكثيرون :

"تزوّج التواني الكسل ، فتولد منهما الخسران !!"(١) .

***بل لقد كان الصالحون يُعاتبون أنفسهم على عدم مبادرتها للخير، فهذا "مالك بن دينار" رحمه الله كان يقول لنفسه :**

"**ويحك بادري !!** (أي سارعي لعمل الصالحات) **قبل أن يأتيك الأمر** (أي الموت) ، **ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر !!** ".

قال راوي القصة : **حتى كرر ذلك ستين مرة !! أسمعهُ وهو لا يراني !!**"(٢).

أخي الحبيب : إن التسويف والتأجيل سيفٌ يقطع المرء عن اغتنام زمانه ووقته في طلب العلم وتحصيله، وكم في المقابر من "قتيل سوف"، فاحذر أن تكون أنت من قتلاها وضحاياها ، فكم صرعَت قبلك من أُناسٍ ؟!! وكم قتلتْ من همم وعزائم متوقدة ؟!! فاحذر أن تكون أنت ضحيتها القادمة المقبلة !! .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "المدهش" لابن الجوزي .

(٢) : نقلاً عن كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي (٣٩٢/٤) .

٨١ حضور المجالس والدروس والحلقات العلمية

من المنشطات والمحمسات لطلب العلم الشرعي وتحصيله حضور حلقات ومجالس العلم سواءً التي تقام في المساجد أو في البيوت ، لأن مثل هذه الحلقات والمجالس لها دور كبير في تقوية الهمة وإشعال الحماسة لطلب العلم، ويتجلى هذا الدور في النقاط التالية:

*إن تلقي المرء للعلم في هذه الحلقات على يد شيخ متقن متمكن ضابط أنفع للمرء من القراءة الفردية لوحده في منزله،لأنه إذا حضر مجلس العلم وأشكل عليه شيء فيمكنه بكل سهولة سؤال المدرس عما شكل عليه فيأتيه الجواب مباشرة بكل يسرٍ وسهولةٍ ، وهذا لا يتأتى في حالة القراءة الفردية .

وحلقات العلم ومجالسه العامة والخاصة لها طعم آخر يختلف مما لو جلس المرء لوحده في بيته وشرع يقرأ في كتاب ما،وذلك لأن النفس البشرية قد جُبلت على حب موافقة الجماعة والكثرة وتقليدهم،فإذا اجتمع المرء مع أقرانه وزملائه في حلقة العلم ورآهم جميعا متحمسين لطلب العلم وأنهم مُنصتون لكلام المدرس وشرحه، تحمست نفسه لتقليدهم ومتابعتهم ينصت ويركز مثلهم .

وإذا حضر المرء حلقة العلم الجماعية فإنه لا يستطيع الانصراف من الحلقة إلا بعد انتهاء الدرس،فيضطر في مثل هذه الحالة إلى إكراه نفسه على سماع العلم حتى ولو كانت نفسه لا ترغب في سماعه لفتورها أو لحبها للكسل والخمول ، وهذا الإكراه للنفس في حد ذاته مكسب تربوي عظيم، وعلى النقيض من

ذلك لو قرأ المرء في بيته لوحده فإنه متى فتر عن القــراءة أو مــلَّ منهــا أو تكاســل عنها ألقى الكتاب جانبا وترك القراءة ،وهذه خســارة كــبرى .

*وتــلــقي العلم على يد مدرس متمكن مــن هــذا العــلم يُسهِّــل علــى الــمرء طريق الطلب ، وذلك لأن هــذا المــدرس المتمكــن يُقــدِّم ويعــرض لــه المــعــلومات بشــكــل سهــل ومُبــسَّط يَسهل عليه معــه فهــم المعلومــات وحفظها وضبطها ، وهذا لا يتأتى في حالة القــراءة الفرديــة ولا ســيما إذا كــانت لغة الكتاب وألفاظه وتراكيبه صعبةً ومعقدةً علــى الطــالب.

*والتــزاحــم بالركب في حِلَقِ العلم ،والحرص علــى المســارعة والمســابقة إليهــا ، تربية لنفس طالب العلم على التواضع للعلم وللمعلم الذي يتلقــى العلــم عنــه.

*وحــضور الحلقات والمجالس العلمية يستفيد به المــرء مشــاهدة القــدوات الحيــة من"العلماء الربــانيين"، والالتقــاء بهــم والاقتــداء بهــم في سمتهــم وخشــوعهم وهيبتهم ووقارهم وأخلاقهم وآدابهــم .

٨٢ معرفة مدى حرص السلف على حضور حلقات العلم

لقد أدرك سلفنا الكرام أهمية حضور المجالس والحلقات العلمية الشرعية في إذكاء الهمة وإشعال الحماسة لطلب العلم وتحصيله، فكانوا يحرصون على حضورها ويتسابقون إلى الجلوس فيها،بل كانوا يُزاحمون عليها بالرُكب،امتثالاً لأمر الله تعالى ولوصية رسوله عليه الصلاة والسلام ، وطلبا لتحصيل ثمار حضور مجالس العلم وحلقاته.

*وقد حثنا الرب تعالى على ملازمة مجالس العلم وحلقاته،فقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ واصبِرْ نَفسَكَ مَعَ الذينَ يدعُونَ ربّهم بالغَداةِ والعَشِيِ يُريدونَ وجهَهُ ولا تَعْدُ عَيناكَ عنهُمْ تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُنيا ﴾(١) .

*وحثنا الرسول ﷺ على حضور مجالس العلم وحلقاته، بقوله : " لأنْ أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إليَّ من أن أُعتقَ أربعة من ولد إسماعيل ، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحب إليَّ من أن أعتق أربعةً"(٢).

ولقد كانَ سلفنا الأبرار يحثون على حضور مجالس العلم بألسنتهم، وكانوا يُسابقون إليها بقلوبهم ويُزاحمون عليها بأبدانهم:

* قال"عمر بن الخطاب"رضي الله عنه:"إنَّ الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب

---

(١) : سورة الكهف الآية (٢٨) .

(٢) : رواه أبو داود من حديث"أنس" وحسنه "الألباني" في "صحيح الجامع" برقم (٥٠٦٣) .

من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب ، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب!!، فلا تُفارقوا مجالس العلماء"(١) .

*قال"الفربري"رحمه الله (وهو أحد تلاميذ البخاري) : "سمع الصحيح من "البخاري" معي نحو من سبعين ألفاً !! لم يبقَ منهم أحدٌ غيري!!"(٢) .

*قال"أبو عبد الله بن بطَّة" :" كنا نحضر في مجلس"أبي بكر النيسابوري" رحمه الله ، لنسمعَ منه الزيادات (أي في الحديث النبوي) ، وكان يُحزَر (أي يُقدر) أنَّ في المجلس ثلاثين ألف محبرةٍ !! ، ومضى على هذا مدة يسيرةٌ ، ثم حضرنا مجلس"أبي بكر النجَّاد" رحمه الله وكان يُحزر أن في مجلسه عشرة آلاف محبرةٍ !!"(٣) .

*قال"يحي بن جعفر البيكندي" : " كان يجتمع عند"علي بن عاصم" رحمه الله (أي في مجلس العلم) أكثر من ثلاثين ألفاً !!" (٤) .

*حكى"جعفر بن درستويه"قال :" كنا نأخذ المجلس في مجلس"علي بن المديني"رحمه الله وقت العصر اليوم لمجلس الغد !! ، فنقعد طوال الليل (أي في أماكننا) ، مخافة ألا نلحق مَن الغد موضعا نسمع فيه!! (أي نسمع فيه درس الحديث لشدة الزحام) ، ورأيت شيخاً في المجلس يبول في طيلسانه ، ويُدرج الطيلسان حتى فرغ !!، مخافة أن يُؤخَذَ مكانه إنْ قام للبول !!"(٥) .

*كان يحضر مجلس الإمام"أحمد بن حنبل" خمسة آلاف شخصٍ !!،خمس مائة منهم يكتبون العلم والبقية يتعلمون من الإمام"أحمد" الوقار والخشوع والأدب والسمت"(٦) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "مفتاح دار السعادة " لابن القيم (١/١٢٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير (١١/٢٥) .

(٣) : نقلاً عن كتاب" تذكرة الحفاظ " للذهبي (٣/٨١٩) .

(٤) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ " للذهبي (١/٣١٧) .

(٥) : نقلاً عن كتاب "الجامع لأخلاق الراوي " للخطيب البغدادي (٢/١٩٩) .

(٦) : نقلاً عن كتاب " مناقب الإمام أحمد " لابن الجوزي .

ل"شعبة بن الحجاج": "ما رأيتُ أحدا قــط يعــدو (أي يركــض ويجــري بســرعة) إلا
: مجنونٌ !! (والمجنون لا يُستغرَب منه هـذا التصـرف) أو طـالب حديـثٍ !! (أي أنـه
علم يركض بسرعة لأجل أن يُحصّل له مكانا في حلقة العلــم قبـل الزحـام!) "(١) .

: نقلاً عن كتاب"الجامع لأخلاق الراوي" للبغدادي (١/١٥٢) .

٨٣ إقامة مسابقات في الخطابة والإلقاء

مما يُعين على التحمس لطالب العلم الشرعي"إقامة مسابقات في الخطابة والإلقاء" بين أفراد الفصل الواحد،أو بين شباب المسجد الواحد، أو بين الزملاء في الحي الواحد.

بحيث يُكلَّف كل متسابق بإعداد وتحضير موضوع علمي شرعي مفيد وملائم لعقليات السامعين ، ثم يقوم كل متسابق بإلقاء موضوعه الذي أعدَّه إما في المسجد على جماعة المسجد بعد صلاةٍ من الصلوات، أو يُلقيه التلميذ على زملائه في الفصل.،أو يلقيه المتسابق على زملائه في رحلةٍ بريةٍ إلى الخلاء ، فتكون تلك الرحلة قد جمعت بين حفظ الوقت والترفيه عن النفس.

ثم يتم تحديد أفضل المواضيع من حيث المادة العلمية وسلامة النطق من الأخطاء اللغوية، وفصاحة اللسان وجودة الإلقاء الأدبي ،ثم تُقدَّم الجوائز والهدايا الرمزية للفائزين .

٨٤ اتهام النفس دائماً بالتقصير في طلب العلم

من أعظم الآفات التي تقتل الهمة والحماسة في النفس لطلب العلم الشرعي رضا المرء عن مستواه العلمي، واعتقاده بأنه قد بلغ في العلم مبلغا عظيماً، وأنه علاّمة عصره وأسطورة زمانه في العلم الشرعي،لأنه متى ترسخت هذه المفاهيم الخاطئة في قلبه وذهنه أصيب بمرض"الغرور والعُجب بالنفس"، وحينئذ يكسل ويفتر عن طلب العلم ، لأنه يظن أنه قد أحاط بأكثر العلم إنْ لم يكن قد أحاط به كله !! فأيُّ همة ستبقى للطلب والتحصيل حينئذ ؟!! .

وعلى النقيض من ذلك ، إذا اتهم المرء دوماً نفسه بالتقصير في طلب العلم الشرعي، ورسخ في نفسه أنه مهما حفظ وفهم من العلم فهو في الحقيقة جاهلٌ !!، لأن ما يجهله هو أضعاف أضعاف ما يعلمه !!، لأن العلم الشرعي بحرٍ عميقٌ لا شاطئ له، بل كلما ازداد المرء علما ومعرفة تبين له مقدار جهله، فإذا سرى هذا الشعور في النفس اشتعلت الهمة وتوقدت الحماسة لطلب العلم وتحصيله ، وحينئذ يسلم المرء من مرض الغرور والعجب الفتّاك،الذي هو بحق مقبرة الهمّة والحماسة.

وقد كان سلفنا الكرام يحرصون على اتهام أنفسهم دوما وأبداً بالتقصير والتفريط في جنب الله تبارك وتعالى:

*واستمع إلى الإمام"ابن القيم" وهو يُقرر هذه الحقيقة بقوله :

" فالْمُخلص لا يرضى بشيء من عمله، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحي من مقابلة الله بعمله، فسوءُ ظنه بنفسه وعمله (أي لا سوء ظنه بالله) وبغضه لها ،... ، يحولُ بينه

وبين الرضا بعمله والرضا عن نفسه"(١) .

*كان"الضحَّاك بن مزاحم" رحمه الله إذا أمسى بكى !!، فقيل له : ما يُبكيك ؟! فقال : لا أدري ما صعد اليوم من عملي !!"(٢) .

*كان"الربيع بن خثيم" رحمه الله يبكي حتى تبُلَّ دموعه لحيته !! ثم يقول : لقد أدركنا أقواماً (أي من الصحابة والتابعين) كنا إلى جنبهم لصوصاً !!"(٣) .

*قال"مالك بن دينار": "إذا ذُكِر الصالحون فأفٍّ لي ثم تُفٍّ لي !!"(٤) .

*يا فتى الإسلام : " كم من سراجٍ أطفأته الريح ؟!! وكم من عبادة أفسدها العجب؟!! ، وساعةٌ يُزري فيها العبد على نفسه (أي يتهمها بالتقصير ويُوبِّخها) خيرٌ من ساعةٍ يُدلُّ فيها بعمله!!(أي يُعجب به ويمنُّ به على الله) ، وأضرُّ الطاعات على العبد ما أنسته مساويه وذكَّرته حسناته " .

*كان بعض السلف يُكثر التهجد بالليل، ثم يقول لنفسه : يا مأوى كل سوء، والله ما رضيتكِ لله طرفة عين!!"(٥) .

فإن قلت لي: ولكنَّ نفسي إذا حفظت مائة حديث مثلاً !! طغت وعتت وشمخت وظنت أنها قد فعلت ما لم يفعله الأوائل !! فكيف أقمعها عن هذا الغرور العجيب ؟!! .

فأقول لك : اقرأ معي بتدبر الطريقة التالية :

---

(١) : نقلاً عن كتاب"مدارج السالكين" لابن القيم (٢/ ٩٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٤/٦٠٠) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "الزهد" للإمام أحمد .

(٤) : نقلاً عن نفس المصدر السابق .

(٥) : نقلاً عن كتاب " تنبيه الغافلين" للسمرقندي .

٨٥ التأمل في مقدار علم السلف وقوة حفظهم

أخي الكريم : إذا أردتَ أن تعرف مدى جهلك، وقلة علمك وفقهك في شرع الله تعالى مهما حصلت من العلم ومهما حفظت من الأحاديث والمسائل العلمية ، فتأمل وتدبر في مقدار علم السلف الصالح ومدى حفظهم،فإن الأشياء تتبين بأضدادها، فتعال معي في هذه الرحلة مع فطاحلة العلم الشرعي وأئمته وحُفاظه:

*قال"أبو زرعة" رحمه الله :"كان الإمام"أحمد بن حنبل" يحفظ ألف ألف حديث !!(أي مليون حديث)، فقيل له: وما يُدريك ؟!! فقال : ذاكرتهُ فأخذت عليه الأبواب !!"(١) .

*قال"سفيان الثوري" رحمه الله : " إني لأمرُّ بالحائك (أي الخياط الذي في السوق) فأسدُّ أُذني مخافة أن أحفظ ما يُقول !!"(٢) .

*قال"الزهري" رحمه الله : " ما استودعتُ قلبي شيئا قط !!، فنسيتهُ قط !!"(٣) .

*قال"أبو الحسن العروضي":"قلت : " لابن الأنباري" رحمه الله : قد أكثَرَ الناس في حفظك !! فكم تحفظ ؟!! فقال : أحفظُ ثلاثة عشر صندوقاً !! وكان"ابن الأنباري"يحفظ ثلاث مائة ألف بيت من الشعر شاهدةً في القرآن !! وكان يُملي من حفظه لا من كتاب !! " .

---

١) : نقلاً عن كتاب"صفة الصفوة" لابن الجوزي (٣٣٧/٢) .

٢) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢٧٢/٧) .

٣) : نقلاً عن كتاب"صفة الصفوة" لابن الجوزي (١٣٧/٢) .

*قـال"الشعبي" رحمه الله : " ما كتبتُ سوداء في بيضـاء إلى يومـي هـذا !!(أي أنـه يحفظ الحديث من حين سماعه له لأول مرة،ولذلـك فهـو غـير محتـاج إلى الكتابـة والتدويـن لأن علمـه في صدره كالكتاب!!) ، ولا حدَّثني رجلٌ بحديث قـط إلا حفظتـهُ !! (اي مـن اول مـرة اسمعـه منه)، ولا أحببتُ أن يُعيده علـيَّ !!"[1] .

*قـال"الشعبي" : " ما أروي (أي أحفظ) شـيئاً أقـل مـن الشعر !!، ولـو شئتُ لأنشدتكم (أي من الشعر) شهراً لا أُعيد !! (أي أظل أُنشدكم من الشـعر لمـدة شـهر كـامل مـن حفظي بدون تكـرار!!) "[2] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٤/ ٣٠١) .

(٢) : نقلاً عن كتاب"سير أعلام النبلاء"للذهبي (٤/ ٣٠١) .

٨٦ تذكر نشاط أهل الباطل لأجل باطلهم

قال"عمر بن الخطاب" رضي الله عنه : " أعوذ بالله من جَلَد
اجر(أي قوته ونشاطه) وعجز التقي !!"، فرحم الله "عمر" كأنه قالها وهو ينظر
زماننا وحالنا،فإنك ترى من أهل الباطل اجتهادا ونشاطا في نصر باطلهم
لدعوة إليه بكل الوسائل المتاحة لهم ، وكذا ترى من أهل الدنيا وأتباع
نهوات نشاطاً عجيبا في تحصيل شهواتهم ولذاتهم المحرمة، وعلى النقيض من
ث ترى من أهل الحق تخاذلا في العمل بالحق الذي يحملونه،وتراجعا في
عوة إليه،وإذا شئت دليلا عمليا على ما أقول فتأمل معي الوقفات التالية:

اذا يعجز أحدنا أن يقوم في ظلام الليل لِيُصلي ويُناجي ربه ومولاه ساعةً أو
عتين ؟!! ، بينما أهل الدنيا يسهرون طوال الليل على الأفلام والمسلسلات،
على معاكسة ومغازلة بعض الفاجرات، عجباً لماذا يجتهدون وهم على
طل ونعجز نحن ونتكاسل ونحن على الحق؟!! .

ذا يعجز أحدنا عن العكوف على قراءة كتاب شرعي لمدة ساعة أو
اعتين ؟!! بينما ترى أهل الدنيا الذين لا همٌ لأحدهم إلا تحصيل
هادات والمناصب الدنيوية يعكف أحدهم أيام الاختبارات على الكتاب
رسي الساعات الطوال وبشكل متواصل!! ,

ماذا يبخل بعضنا بإنفاق مائة أو مائتي ريال لشراء كتب أو أشرطة
ية شرعية مفيدة؟!! بينما أهل الباطل ينفقون آلاف الريالات من أجل

تحصيل الشهوات المحرمة أو لأجل السفر لبلاد الفجور والرذيلة أو لشراء الأغاني الماجنة والمجلات الخليعة!! .

*لماذا إذا جاءت العُطَل والإجازات ينام الكثير منا إلى الظهر أو بعد الظهر، بينما أهل الدنيا يعقدون الصفقات والاتفاقات التجارية حتى وهم في وقت الإجازة والراحة.

فيا أيها الحبيب :

قف مع نفسك وقفة محاسبة وتوبيخ ، وقل لها :

عجباً لكِ يا نفس!!أهل الباطل وأتباع الشهوات وطلاب الدنيا الفانية يجتهدون وينشطون ويبذلون ويُضحُّون لأجل باطلهم وتحصيل شهواتهم!!وأنتِ على الهدى والحق المبين ، وتزعمين أنكِ تُريدينَ جنة عرضها السموات والأرض!! ثم تتكاسلين وتفترين و تتخاذلين عن هذا الطريق ؟!! .

٨٧ اختيار الأماكن المناسبة للقراءة

القراءة في كتب، أهل العلم وسيلةٌ مهمة من وسائل تحصيل العلم الشرعي، ولكنَّ القراءة النافعة المثمرة تحتاج إلى تركيز وحضور ذهن، ولا يحصل هذا التركيز إلا باختيار مكان مناسب للقراءة ،حتى يتوجه المرء بقلبه وقالبه إلى القراءة والفهم فتحصل له الثمرة المفيدة النافعة.

* واستمع إلى"الخطيب البغدادي" وهو يُبين لك أفضل الأماكن للقراءة فيقول :

"وللحفظ أماكن ينبغي للمتحفظ أن يلزمها ،...، وأجود أماكن الحفظ :الغرف (أي العالية) دون السُفَل !!، وكلُّ موضع بعيد عن الملهيات، وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار (لأن القلب يشتغل بالنظر إليها عن حفظ العلم) وقوارع الطريق وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب (أي التركيز) غالباً !!"(١) .

*وكذلك فإن مما ينبغي التنبه إليه عند اختيار مكان القراءة أن يكون ذلك المكان خالياً من الصوارف التي تشغل القلب عن التركيز والتدبر أثناء القراءة، وذلك كالأطفال الصغار أو كالضوء الشديد أو الضوء الباهت الخافت ، أو الجلوس بجوار أناس يتحدثون أو يُثرثرون أو يتخاصمونَ .

*وكذلك ينبغي مراعاة أن يكونُ المكان بعيداً عن الضوضاء والضجيج وأصوات السيارت المزعجة، وأن تكون تهويته ودرجة حرارته مناسبة، واعلم أخي أن كل الإرشادات السابقة الذكر إنما هي في حال الاختيار،إما إذا لم يتيسر للمرء المكان النموذجي المثالي فليستعن بالله وليُجاهد نفسه على التركيز وليقرأ وليتعلم ، والله معه .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الفقيه والمتفقه" للبغدادي (٢/١٠٣) .

٨٨ تدوين العلم في كتب ومصنفات

من الوسائل المحمسة لطلب العلم، كتابة العلم وتدوينه وتصنيفه بشكل كتب ومصنَّفات أو مذكرات عامة أو شخصية أو بحوث علمية أو مقالات ورسائل مختصرة أو بأيّ صورة من صور التدوين العلمي المختلفة .

إن لتدوين العلم الشرعي وكتابته وتصنيفه فوائد جمَّة منها:

*التدوين أدعى لثبات ورسوخ المادة العلمية في الذّهن من مجرد القراءة النظرية المجردة عن تدوين المعلومات وكتابتها وتصنيفها.

*التصنيف والتأليف يستلزم من المرء البحث والمطالعة في بطون الكتب والمراجع لتحصيل مادة علمية مُوثَّقة، وهذا ربحٌ عظيم.

*الذاكرة البشرية مهما بلغت من القوة والحفظ يعتريها ضعف ونسيان وقصور، فيضيع بسبب ذلك علم كثير،بخلاف كتابة العلم وتدوينه فإنها تحفظ العلم ولو لسنين طويلة ليتناقله الناس وينتفعوا به.

وقد كان سلفنا الأبرار يحثون على كتابة العلم وتقييده وتدوينه:

*قال"الوزير ابن هبيرة" رحمه الله : " يحصل العلم بثلاثة أشياء :

أحدها : العمل به ،... فإنَّ مَنْ كلَّف نفسه التكلم بالعربية دعاه ذلك إلى حفظ النحو ، ومَن سُئل عن المشكلات ليَعمل فيها بمقتضى الشرع تعلَّم ،...

والثاني : التعليم ، فإنه إذا علَّم الناس كان أدعى إلى تعلُّمه ،...

والثالث : التصنيف ، فإنه يُخرجهُ إلى البحث، ولا يُمكَّن من التصنيف مَن لم يدرك غور ذلك العلم الذي صنّف فيه!! "(١) .

ولا بُدّ هنا من التنبه إلى أمر مهم وهو أن كلامنا السابق في الحث على تقييد العلم وتدوينه بأي صورة من صور التدوين العلمي ولا سيما الكتب والمؤلفات لا يعني أننا ندعو إلى فتح باب التصنيف والتأليف العلمي على مصراعيه لكل من هبَّ ودبَّ، فكلُّ مَن حفظ مائة حديث، أو قرأ كتابا أو كتابين أو سمع درسا أو درسين قال :"أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا !! ،ومَن مثلي؟!!" ثم لا يلبث بعد أسبوع أو أسبوعين إلا وقد أصدر كتابا في الأسواق أتى فيه بالعجب العُجاب وبما لم تأتِ به الأوائل !! .

كلا وألف كلا !! فإن هذا التجرؤ على التصنيف والتأليف هو شر مستطير وبلاء ومنكر خطير،وإنما مقصودنا أن يقوم أهل الخبرة والاختصاص والقدرة والكفاءة العلمية الشرعية بهذه المهمة !! .

وأما مَن لم يصل إلي تلك الدرجة من العلم الشرعي التي تؤهله للتصنيف والتأليف فيلزمه الاحتفاظ بما كتبه ودوّنه في أدراجه حتى يتقدّم ويرقى في سلم العلم الشرعي،فإذا وصل إلى درجة "النضج العلمي" التي تؤهله للتصنيف والتأليف فيمكنه حينئذ الرجوع إلى كتاباته وأبحاثه السابقة التي كتبها في فترة الطلب وتنقيحها وتهذيبها وتصحيح ما بها من أخطاء ، ويمكنه بعد ذلك نشرها على الناس لينتفعوا بها .

---

(١) : نقلاً عن كتاب"المنهج الأحمد" للعليمي (٣٥٢/٢) .

٨٩ معرفة حال السلف في الإكثار من المؤلفات

لقد أدرك سلفنا الكرام أن الكتاب الذي يُؤلفه العالم ويُصنّفه هو ولده المخلَّد مِنْ بعده، الذي يظل يحمل اسمه بعد موته ويُحيي ذكراه عند الناس،وهذا الولد ولد بارٌ بأبيه، فهو ينفعه حال حياته،وينفعه وهو في قبره وينفعه يوم القيامة حيث يكون في ميزان حسناته، ودرجاته، فما أبرَّه من ولد بأبيه ؟!!.

وبناءً على ذلك فقد كان السلف يستكثرون من هؤلاء الأولاد الصالحين الذين تقرُّ الأعين برؤيتهم وتنشرح الصدور بالجلوس معهم،وتأنس الأرواح بالسهر بصحبتهم ،فتعال بنا أخي الحبيب لنرى حال الآباء مع أبنائهم البررة:

*قال"ابن رجب الحنبلي" في ترجمة"العالم"ابن عقيل"رحمه الله :

"وللإمام"ابن عقيل" تصانيف كثيرة في أنواع العلوم،نحو العشرين تصنيفا،وأكبر تصانيفه كتاب"الفنون" وهو كتاب كبير جداً !!.

قال الحافظ الذهبي : لم يُصَنَّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب !! ، حدثني مَن رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربع مائة !! ،

قال"ابن رجب":وقال بعضهم : هو ثمان مائة مجلد !!"(١) .

*قال"الخطيب البغدادي": " وسمعتُ"السمسمي" يحكي أن "ابن جرير الطبري"رحمه الله مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقةً !! ، وحدَّث تلميذه"أبو محمد الفرغاني" : أنَّ قوما من تلاميذ "ابن جرير" حصَّلوا (أي حسبوا) أيام حياته،منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنةً ، ثم

---

(١) : نقلاً عن كتاب "ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب (١٤٢/١) .

قسموا عليها مصنفاته،فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقةً !! ، وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق إلا بحسن عناية الخالق !!"[١] .

*قال"محمد بن طاهر المقدسي"رحمه الله : " كتبتُ صحيح البخاري وصحيح مسلم و"أبي داود" سبع مرات !! ، ... ،وكتبتُ سنن"ابن ماجة" عشر مرات!!"[٢] .

*قال"ابن الجوزي" : " كتبتُ بإصبعيَّ هاتين ألفي مجلدة !! وتاب على يديَّ مائة ألف !!"[٣] ، وهذا رقم مذهل،لأننا لو قدَّرنا أن عدد ورقات كل مجلد هو (١٠٠) ورقة ،فيكون مجموع ما كتبه بيده على أقل تقدير (٢٠٠٠٠٠) مائتي ألف ورقة أي ما يساوي أربع مائة ألف صفحة ، لأنَّ كل ورقة عبارة عن صفحتين،وهذا رقمٌ فلكيٌّ !! .

ولذا قال شيخ الإسلام"ابن تيمية" : " كان الشيخ"أبو الفرج"(يقصد ابن الجوزي) مُفتياً كثير التصنيف والتأليف ، له مصنفاتٌ في أمور كثيرة حتى عددتُها فرأيتُها أكثر من ألف مصنَّف !! .."[٣] .

*قال"ابن رجب الحنبلي" في ترجمة الإمام "ابن الجوزي" : " لم يترك فناً من الفنون إلا وله فيه مصنَّف !! ، وسُئل (أي ابن الجوزي) عن عدد تآليفه ، فقال :زيادة على ثلاث مائة وأربعين مصنَّفاً !! .

وقال"الموفق عبد اللطيف" : " كان"ابن الجوزي لا يضيع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربعة كراريس،ويرتفع له في كل سنة من كتابته ما بين ٥٠ ـــ ٦٠ مجلداً !!"[٤].

*ذكر الشيخ"القمي" :" أنَّ بُراية أقلام"ابن الجوزي"(أي ما يتساقط من القلم عند بريه وحدّه

---

(١) : نقلاً عن كتاب"تاريخ بغداد" للبغدادي (١٦٢/٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب " تذكرة الحفاظ" للذهبي (١٢٤٢/٤) .

(٣) : نقلاً عن نفس المصدر السابق (٤١٥/١) ،

(٤) : نقلاً عن كتاب "ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب (٤١٢/١) .

التي كتب بها الحديث ، جُمعت فحصل منها شيءٌ كثير،فأوصى "ابن الجوزي" أن يُسخَّن بها الماء الذي سيُغسَّل به بعد موته، ففُعِل ذلك فكَفَتْ !! (أي لتسخين الماء) وفَضُل منها (أي بقيت منها بقية!!) "(١) .

*قال"يحي بن معين" : " كتبتُ بيديَّ ألف ألف حديث !! (أي مليون حديث) ، قال"الذهبي" معلقاً : يعني بهذا العدد المكرر من الحديث الواحد!!"(٢) .

*قال "الكوثري" : " وتفسير"أبي يوسف القزويني" المسمَّى"حدائق ذات بهجة" أقل ما يُقال أنه في ثلاثمائة مجلد !! وللحافظ"ابن شاهين"تفسير في ألف جزء حديثي !! وللقاضي"أبي بكر بن العربي"كتاب"أنوار الفجر"في التفسير في نحو ثمانين ألف ورقة !! ، ... ، و"لابن النقيب المقدسي" تفسير يُقارب مائة مجلد !! "(٣) .

*قال"الاستاذ"محمد الحجوي" : " وترك الإمام"ابن أبي الدنيا" ألف تأليف !! (أي ألف كتاب) ، وألَّف"ابن عساكر" كتابه "تاريخ دمشق" في ثمانين مجلداً !! ،...، وألَّف"أبو عبد الله الحاكم النيسابوري" ألفاً وخمس مائة جزء !!، ... ، وألَّف شيخ الإسلام"ابن تيمية" ثلاث مائة مؤلَّف في فنون مختلفة ضمن نحو خمس مائة مجلد !!، وألَّف تلميذه"ابن القيم"نحو خمسين مجلداً ، وألَّف"البيهقي" ألف جزء !! (أي من الأجزاء الحديثية) ، وألف الإمام "أبو بكر بن العربي المالكي" تفسيره الكبير في نحو ثمانين جزءاً ، وكتب "أبو جعفر الطحاوي"ألف ورقة في مسألة واحدة هي هل حج النبي عليه الصلاة والسلام قارنا أم متمتعا أم مفرداً ؟!! وبلغت مؤلفات"عبد الملك بن حبيب" عالم الأندلس ألف كتاب !! ،..."(٤) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب " الكنى والألقاب" للقمي (١/٢٤٢) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١١/٧١) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "مقالات الكوثري" لمحمد الكوثري .

(٥) : نقلاً عن كتاب"الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" لمحمد الحجوي .

٩٠ استحضار كثرة الفتن في آخر الزمان

كلما تقادم الزمان ، وتباعد الناس عن عصر النبوة انتشرت البدع وكَثُرَت الفتن والشرور العامة، حتى تصل تلك الفتن إلى قمتها وأوجها في آخر الزمان ، فهناك تترى الفتن وتتابع ، نسأل الله السلامة والعافية من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .

*وإليك صورةً مُروعةً لأيام الفتن، يُخبرنا عنها الرسولﷺ بقوله :

"إنَّ بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويُرفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج !!(أي القتل) "(١) .

*واستمع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يصف لنا صورةً مروعة لإحدى الفتن ، فيقول : "إنَّ بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ،،يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويُمسي كافراً ، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً "(٢) .

* وأيام الفتن والمحن تدع الحليم حيراناً ، لا يدري كيف يتصرف ؟!! ولا يعلم ماذا يفعل؟!! لما يراه من الفتن العظام ، فأيُّ طلبٍ للعلم سيكون حينئذٍ ؟!! .

*قال الرسولﷺ واصفاً الحالة النفسية المريرة في تلك الأيام العصيبة :

"والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا ،حتى يمرَّ الرجل على القبر فيتمرَّغ عليه ويقول : يا ليتني كنتُ مكان صاحب هذا القبر!! وليس به الدِّين إلا البلاء "(٣) .

---

(١) : رواه الشيخان من حديث"عبد الله بن مسعود" رضي الله عنه .

(٢) : رواه أحمد والحاكم ، وصححه"الألباني" في صحيح الجامع" برقم (٢٠٤٩) .

(٣) : رواه مسلم في صحيحه من حديث "أبي هريرة" رضي الله عنه .

*وأيام الفتن والمحن يشتغل القلب والذهن فيها ــ والبدن تابعٌ لهما ــ بتتبع الأحداث وسماع الأخبار والشائعات والأقاويل التي تسري في زمن الفتن كسريان النار في الهشيم ، فليت شعري ماذا يقي لطلب العلم من نصيب في القلوب حينئذٍ ؟!! .

*وأوقات الفتن أوقات عصيبة تتكاسل فيها النفس عن الطاعات وتركن إلى اللغو والثرثرة ويضعف فيها الإيمان، ولهذا لما كانت المحافظة على العبادة في زمن الفتن شاقة

وعسيرة على النفس فقد أعدَّ الرب تعالى ثوابا عظيما لمن قام بها في ذلك الوقت العصيب :

*عن "معقل بن يسار" رضي الله عنه قال:قال الرسول عليه الصلاة والسلام: " العبادة في الهرج (أي في أيام الفتن) كهجرةٍ إليَّ "(١) .

فيا إخواني : إذا كانت أيام الفتن تدع العاقل مجنونا، والقلب المطمئن خائفا مفزوعا، قد شغله الخوف والفزع عن العبادة وطلب العلم، فلنبادر من الآن باغتنام أوقاتنا وأعمارنا في الطاعات، ولنجِدَّ ونجتهد في تحصيل العلم الشرعي، ما دامت الفرصة لنا الآن سانحة، والأحوال مُيسَّرة، من قبل أن تهجم علينا الفتن تترى وهناك سنندم على ما ضاع من أوقاتنا وأعمارنا !! ولكن هيهات هيهات أن ينفع الندم حينئذٍ !! .

---

(١) : رواه مسلم والترمذي واحمد .

٩١ تحديد مواعيد نهائية لبدء ونهاية التنفيذ

إذا عزم المرء على القيام بأيّ عمل علمي شرعي كقراءة كتاب نافع أو حفظ متن من متون السنة النبوية المطهرة،أو تحقيق مسألة من المسائل العلمية المهمة، إذ' عزم على القيام بشيء من ذلك جاءه الشيطان وأخذ يُكسّله عن البدء في ذلك المشروع العلمي المفيد ، وذلك عن طريق التسويف والتأجيل بموعد البدء في تنفيذ ذلك المشروع العلمي،أو عن طريق إيهامه بأن الوقت الآن غير مناسب لتنفيذ ذلك المشروع العلمي ، أو... أو... أو... .

فإذا تغلب المرء على هذه الوساوس والمكائد الشيطانية وشرع في تنفيذ مشروعه العلمي بدون تحديد موعد محدد لإتمامه والفراغ منه، جاءه الشيطان وأخذ يثبّطه عن إتمام مشروعه والفراغ منه، ويضع أمامه العوائق والصعوبات الوهمية ليصرفه عن إنجاز مشروعه العلمي.

فإن عجز عن ذلك أخذ يُمنّيه بإكمال مشروعه العلمي فيما بعد!! فإذا كان إنجاز ذلك المشروع العلمي يستغرق مثلا شهراً فقد لا يفرغ المرء منه بسب تلك الوساوس الشيطانية إلا بعد سنة أو نصف سنة، بل ربما لا يفرغ منه مطلقاً !!وهذه في الحقيقة مشكلة عويصة،تعترض طالب العلم الصادق أثناء مشواره الحافل لطلب العلم الشرعي .

والعلاج النافع لمثل هذه المشكلة هو"تحديد مواعيد نهائية وحاسمة لبدء ونهاية تنفيذ المشروع العلمي الذي تود القيام به"،لأن مثل هذا التحديد الحاسم

التحديد الحاسم والجازم لمواعيد البداية والنهـــاية يُشــكّل ضغطــاً نفســيا قويــا على المرء، يطرد عن المرء كل كســل أو فتــور أو تســويف بـإذن الله ، لأن مثــل هذا التحديد الحاسم الجازم يجعل المرء يشعيــر بأنــه مُقــيَّد ومُرتبــط بمواعيــد معينة لا يمكنه التأخر عنها ، فأنّى له حينئــذٍ أن يتكاســل أو يُســوِّف ؟!! .

٩٢ توزيع المادة العلمية على فترات يومية قصيرة

من المشاكل التي تعترض الكثيرين من طلبة العلم أنهم إذا أرادوا حفظ مقدار معين من القرآن ، أو جُملةً من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو أرادوا تحقيق مجموعة من المسائل العلمية والبحث عنها، تراهم يعكفون على الحفظ أو البحث لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، ثم في النهاية يجدون صعوبة في الحفظ أو مشقة في البحث والتنقيب في بطون الكتب، فيملُّون ويفترون وتموت همتهم للطلب والتحصيل .

والعلاج النافع لمثل هذه المشكلة هو أنه إذا تعسَّر عليك حفظ وردك كاملا من القرآن الكريم أو من السنَّة النبوية دفعة واحدة،أو شقَّ عليك تحقيق المسائل كلها دفعة واحدة،فعليك بتقسيم المادة العلمية إلى أجزاء صغيرة تُوزِعها على فترات متفرقة طوال اليوم ، بحيث تحفظ في كل فترة القسم المخصص لها !!.

وحينئذ لن ينتهي اليوم إلا وقد حفظتَ كل ما تريد حفظه، وبكل يسر وسهولة، ولم تشعر بأي ملل أو سآمة من الحفظ،بخلاف الحفظ أو التحقيق جملةً واحدةً ، وفي وقتٍ واحدٍ متتابعٍ ، فإنه شاقّ على النفس ، ولذا تنفر منه وتتباعد عنه

٩٣ تكرار العلم ومداومة النظر فيه

كثير من طلبة العلم الشرعي يريدون أن يحفظوا العلم ويضبطوه من القراءة الأولى للكتاب أو من السماع الأول للدرس، ولا يُكلّفون أنفسهم مؤونة تكرار العلم وترداده، والحفظ. قد يكون شاقاً في أول الأمر ولكن مع الممارسة وتكرار القراءة والمراجعة للدرس يسهل بإذن الله تعالى .

* قال بعض أهل العلم:"كل شيء أفرغتَ فيه (أي صببتَ ووضعتَ فيه) شيئاً فإنه يضيق !! إلا القلب فإنه كلما أُفرِغَ فيه اتسع !!" .

*قال "الزهري":"إن الرجل ليطلب (أي يطلب العلم) وقلبه شعبٌ من الشعاب!! (أي قدرته على الحفظ قليلة وضعيفة) فلا يلبثُ أن يصير وادياً !! (أي أنه مع التكرار للدرس والمراجعة الكثيرة له تتسع وتقوى قدرته على الحفظ بسرعة) ، لا يُوضَع فيه شيءٌ إلا التهمهُ !! (أي حفظه بسرعة)"(١) .

*واستمع إلى"أبي هلال العسكري" رحمه الله وهو يصف لنا تجربته الشخصية في هذا المجال فيقول :

" وكان الحفظ يتعذر عليَّ حين بدأت أرومهُ !! (أي يشق عليَّ في بداية طلبي للعلم) ، ثم عوَّدته نفسي (أي جعلت أكرر الدرس وأراجعه مرات كثيرة) إلى أن حفظتُ قصيدة"رؤبة بن العجاج" في ليلةٍ واحدةٍ !! ، وهي قريبٌ من مائتي بيتٍ !! (أي أنه مع كثرة تكراره للمحفوظ ومراجعته له قويت حافظته حتى حفظ قصيدة مكونة من مائتي بيت في ليلة واحدة!!) "(٢) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الحث على طلب العلم" لأبي هلال العسكري .

(٢) : نقلاً عن كتاب"الحث على طلب العلم" لأبي هلال العسكري .

*قال "الزرنوجي" رحمه الله مرشداً لطالب العلم :
"ينبغي لطالب العلم أن يَعُدَّ ويُقدِّر لنفسه تقديراً في التكرار (أي تكرار الدرس) فإنه لا يستقر في قلبه (أي الدرس) حتى يبلغ ذلك المبلغ !! ، وينبغي لطالب العلم أن يُكرر سَبْقَ الأمس (أي درس الأمس الذي حفظه) خمس مراتٍ ، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مراتٍ ، والسبق الذي قبله ثلاث مراتٍ ، والذي قبله ثنتين ، والذي قبله واحدة، فهذا أدعى إلى الحفظ "(١) .

فإن قلتَ لي : حدثني عن حال السلف مع تكرار العلم والمبالغة في ترداده .
فأقول لك : اقرأ معي الطريقة التالية ففيها مبتغاك ، والله يرعاك .

(١) : نقلاً عن كتاب "تعليم المتعلم طريقة التعلم" للزرنوجي .

٩٤ معرفة حال السلف في تكرار العلم وترداده

لقد ضرب سلفنا الكرام لنا أروع الأمثلة في الجد والاجتهاد في الطلب، ومداومة التحصيل العلمي وتكرار القراءة وتردادها مرة بعد أخرى،فتعال بنا نرى شيئا من أخبارهم في هذا المجال:

*قال"أبو العرب القيرواني":"ولقد حدثني"أحمد بن تميم" أنهم وجدوا في آخر بعض كتب"عباس بن علي الفارسي" رحمه الله مكتوباً : درستُهُ (أي هذا الكتاب) ألف مرة !!"(١) .

*قال الفقيه العالم"علي بن محمد النيسابوري" رحمه الله :
" كانت في مدرسة"سرهنك" نيسابور قناةٌ لها سبعون درجة،وكنتُ إذا حفظتُ الدرس أنزل القناة وأُعيد الدرس في كل دَرجة مرةً !! ، في الصعود والنزول !! (أي أنه كان يكرر الدرس مائة وأربعين مرة!!) ،قال : وكذا كنتُ أفعلُ في كل درس حفظتُهُ !! "(٢) .

* قال"ابن بشكوال الأندلسي": "وقرأت بخط بعض أصحابنا أنه سمع"أبا بكر بن عطية المحاربي" رحمه الله يذكر أنه كرر صحيح البخاري سبعمائة مرة !!"(٣) .

* وقرأ الحافظ "برهان الدين الحلبي" رحمه الله صحيح البخاري أكثر من ستين مرةً !! ، وصحيح مسلم نحو عشرين مرةً !! سوى قراءته لهما في حال الطلب ، أو قراءتهما من

---

(١) : نقلاً عن كتاب "طبقات علماء إفريقية وتونس" لأبي العرب القيرواني .

(٢) : نقلاً عن كتابلا"طبقات الشافعية الكبرى"للسبكي (٧/٢٣٣) .

(٣) : نقلاً عن كتاب "الصلة" لابن بشكوال .

غيره عليه !!"(١) .

*وكرر الحافظ"سليمان بن إبراهيم العلوي" رحمه الله صحيح البخاري نحوا من مائتين وثمانين مرةً ، قراءةً وسماعاً وإقراءً !!"(٢) .

*وقرأ "الفيروز آبادي" رحمه الله صحيح البخاري أزيدَ من خمسين مرةً !!"(٣) .

*قال النووي في ترجمة الإمام العالم "عبد الغافر بن محمد الفارسي"رحمه الله : " وقرأ الحافظ"الحسن السمرقندي" عليه "صحيح مسلم" نيفاً وثلاثين مرةً، وقرأ عليه (أي صحيح مسلم) أبو سعيد البحيري" نيفاً وعشر مرات!!"(٤) .

*حكى"ابن مخلوف" في ترجمة العالم الشيخ"أبي محمد عبد الله بن إسحاق"رحمه الله قال : " أخذ عن "ابن اللباد"(أي طلب العلم على يديه)،ودرس"المدونة"(وهو كتاب من كتب الفقه المالكي) نحو الألف مرة !!"(٥) .

*قال الفقيه المحدث"أبو بكر الأبهري" رحمه الله : " قرأتُ"مختصر ابن عبد الحكم" خمسمائة مرة !! ، و"الأسَدِّية"(وهي كتاب من كتب الفقه) خمساً وسبعين مرةً !!، والموطأ (أي موطأ مالك) خمساً وأربعين مرةً !!، و"مختصر البرقي" سبعين مرةً!!، و"المبسوط" سبعين مرةً !!"(٦) .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "الضوء اللامع" للسخاوي (١/١٤١) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "طبقات الخواص" المشهاب أحمد الشرجي .

(٣) : نقلاً عن كتاب "فهرس الفهارس والأثبات" للكتاني .

(٤) : نقلاً عن كتاب"شرح مسلم " للنووي (١/ ٨) .

(٥) : نقلاً عن كتاب"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" لابن مخلوف .

(٦) : نقلاً عن كتاب"ترتيب المدارك"للقاضي عياض (٦/١٨٦) .

٩٥ إدراك كثرة المشاغل والارتباطات في المستقبل

يخدع الشيطان الكثيرين، ويصدهم ويصرفهم عن طلب العلم الشرعي وتحصيله، حين يُوهمهم بأنه لا داعي أن يطلبوا العلم الشرعي الآن،لأن طلب العلم يحتاج إلى صفاء الذهن وخلوه من الشواغل والصوارف، وهذا لا يتيسر لهم الآن ، ولكن المستقبل أمامهم مشرق،فهم حين ينتهون من الدراسة الجامعية سيتفرغون لطلب العلم،فإذا انتهوا من الدراسة الجامعية جاءهم الشيطان وقال لهم:ليس الوقت الآن مناسبا لطلب العلم،بل لا بُدَّ أولاً من الزواج ،لتحصلَ على الاستقرار النفسي وبعد ذلك تشرع في طلب العلم الشرعي،فإذا تزوَّج المرء جاءه الشيطان وقال له : ليس الوقت الآن مناسبا لطلب العلم بل لا بد أولاً من الحصول على وظيفة مناسبة لتتفرغ لطلب العلم الشرعي بذهن صافٍ!! ، وهكذا تمضي الأيام يوما بعد يوم، حتى يكبر المرء وتتقدم به السن ، ويهجم عليه الموت لينقله إلى ظلمات اللحود، وهناك سيندم لكن وقت لا ينفع الندم .

وحقيقةً إن اعتقاد"التفرُّغ لطلب العلم، والتخلص من الشواغل في المستقبل" هو مجرد سراب خادع،وأحلام وردية لا رصيد لها في أرض الواقع : ووهمٌ شيطاني،وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا الوهم وبطلانه وزيفه ،فتأمل معي الوقفات التالية:

*أخي: هل لديك عهدٌ وميثاقٌ من رب العالمين بأنك ستُدرك ذلك المستقبل الوردي الذي تتفرغ فيه لطلب العلم، وتتخلص فيه من الشواغل والصوارف ؟!! الجواب : كلا !! بل قد يهجم عليك هادم اللذات ومُفرِّق

الجماعات ومُيتّم البنين والبنات،فينقلك إلى ضيق اللحود ومجاورة الدود !!فماذا سينفعك الندم والحسرة حينئذ على ما ضاع من عمرك؟!!

*أخي: لا بد أن تعلم أن المرء كلما تقدمت به السن،قلَّت حيويته ونشاطه ، وضَعُفَت قُواهُ، وقلّت قدرته على حفظ العلم وضبطه، واعلم أخي أن الثوب الجديد النظيف ليس كالثوب البالي المقطّع ، وليس كالثوب الملبوس المستعمل، ورحم الله تعالى الشاعر حين قال مبيناً هذه الحقيقة :

أترجو أن تكونَ وأنت شيخٌ ... كما قد كنتَ أيام الشباب

لقد خدعتكَ نفسك ،ليس ثوبٌ ... دريسٌ كالجديد من الثياب .

*أخي : اعلم أن المرء كلما كبرت سنه وانتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا ثم مرحلة الشباب ثم مرحلة النضج ثم مرحلة الكهولة ثم مرحلة الشيخوخة ، كلما انتقل من مرحلة إلى التي تليها ازدادت مهماته ومسئولياته العائلية والاجتماعية والمالية والنفسية،وإذا شئت دليلا عمليا على ذلك فقل لي: هل الشاب الأعزب لدبه من المسئوليات كما لدى الشاب المتزوج؟ ثم قل لي:هل الشاب الذي يدرس في المرحلة المتوسطة لديه من المسئوليات مثلما لدى مَن يدرس في المرحلة الجامعية؟! فإذا كان الوضع بهذه الصورة فقل لي بربك:متى ستتفرغ إذن لطلب العلم الشرعي وتحصيله؟!! .

*أخي: اعلم أنه كلما تقدم المرء في السن ازدادت علاقاته وزياراته وروابطه الاجتماعية سواءا مع الأقارب أو الزملاء في العمل أو الدراسة، أو أهل الزوجة أو... أو... ، فقل لي بربك: وسط هذه الارتباطات والعلاقات التي يستغرق القيام بها وقتاً طويلا ماذا بقي من وقتك لطلب العلم الشرعي؟!! .

*أخـــي:اعلم أن المرء كـلما تقدمت به الســـن تنوشــته الأدواء واحتوشته الأمـراض، فيصبـح همـه الانتقـال مـن طبيـب لآخـر بحثـا عـن العـلاج والشفاء،فـهل يُرتـَجَى تحصيل العلم من شـخص مريـض قـد شـغلت قلبَـه أمراضُه،وأوهنت قـواه؟!! .

*أخـــي : اعلم أنه كلما تقدم المرء في السن تكـاثرت الهمـوم والغمـوم علـى قلبه، وازدادت الشواغل والصوارف في ذهنه، وبالتالي تقـلُّ قدرتـه علـى حفـظ العلم أو فهمه وضبطه،لأن القلب قد زاحم العلـمَ فيـه شـيء آخـر وهـو هـذه الهموم والغموم،فانتبه لنفسـك .

وبالجُملة فـإن الأمـاني والأحـلام الورديـة الكـاذبة هـي بضاعة الحمقى والمفاليس ، وهي لا تُعـوِّض ماضيـا ولا تبـني حـاضرا ولا تصنـع مستقبلاً زاهـراً ، وإنما المرء بيومه لا بغده ، وبعمله لا بأمانيـه وأحلامـه، فـهل وعيتَ الـخطـاب؟!!.

٩٦ إقامة مسابقات في قراءة الكتب الشرعية

إن مما يعين على التحمس لطلب العلم الشرعي إقامة مسابقات في قراءة الكتب الشرعية وفهمها،وذلك عن طريق اختيار كتاب علمي شرعي مفيد ونافع، وملائم لعقليات المتسابقين ومستواهم الذهني والعلمي،ثم يُعطَى المتسابقون مهلة زمنية كافية لقراءة ذلك الكتاب وفهمه وضبطه.

ثم بعد انتهاء المهلة المحددة تجرى المسابقة بين المتسابقين ، إما بتقسيمهم إلى فريقين أو مجموعتين أو أكثر حسبما تقتضيه المصلحة ، وإما إن تُقام المسابقة بشكل فردي بين المتسابقين جميعاً وفي وقت واحد،بحيث تطرح عليهم جميعا أسئلة تتعلق بالكتاب ومواضيعه والمعلومات التي احتوى عليها،وفي النهاية تُقدَّم للفائزين الجوائز التشجيعية .

٩٧ معرفة كيف صبر السلف على التقلل من الدنيا لأجل العلم

لقد صبر سلفنا الكرام على التقلل من الدنيا، ورضوا من متاعها الزائل الفاني بالقليل اليسير،حرصا على طلب العلم الشرعي وتحصيله، ولئلا يشغلهم الركض وراء زخارف الدنيا ومفاتنها عن مطلوبهم الأعظم ومقصودهم الأسمى ألا وهو معرفة الله تعالى وصفاته وأحكامه، والتفقه في دينه، والدعوة إليه على بصيرة،ولو شاءوا رحمهم الله ، لكانوا من أكثر الناس جمعاً للأموال، ومن أعظمهم تحصيلا للدنيا، ولكنهم آثروا الباقي على الفاني، فربح بيعهم وربحت تجارتهم :

*قال"مالك بن أنس" رحمه الله : " لا يبلغ أحدٌ من هذا العلم ما يُريد حتى يُضرَّ به الفقر ، ويُؤثره (أي العلم) على كل شيء!!"(١) .

*قال"حجاج بن الشاعر" رحمه الله : " جمعتْ لي أمي مائة رغيف ، فجعلَتْها في جرابٍ ، وأرسلتني إلى "شبانه"(وهو أحد المحدثين العلماء) بالمدائن ، فأقمتُ ببابه مائة يومٍ ، كل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دجلة فآكلهُ !! ، فلما نفدت (أي الأرغفة) خرجتُ !! (أي رجعت إلى والدتي) !!"(٢) .

* قال"إبراهيم بن عمر الجعيري" رحمه الله : " كنتُ في أول الأمر (أي في بداية طلبي للعلم) اشتري جزرا بفلسٍ !! ، فأتقوّت به ثلاثة أيام !!"(٣).

*قال"عبد الله بن أبي داود" رحمه الله :

---

(١) : نقلاً عن كتاب "المجموع" للنووي (١/٦٤) .

(٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٢/٥٥٠) .

(٣) : نقلاً عن كتاب"فوات الوفيات "لابن شاكر الكتبي (١/٤٠) .

"دخلت الكوفة (أي رحلت إليها لطلب العلم) ومعي درهمٌ واحدٌ !!، فاشتريتُ به ثلاثين مُدّاً من باقلاء (أي الفول) ،فكنت آكلُ منه وأكتب عن"الأشج عبد الله بن سعيد الكندي" ، فما فرغ الباقلاء حتى كتبتُ عنه ثلاثين ألف حديثٍ ما بين مقطوع ومُرسل !!"[١] . ،

*وما أجمل قول القائل يُسلّي نفسه عن زخارف الدنيا ومفاتنها:

الجوع يُدفع بالرغيف اليابس ... فعلامَ أُكثِرُ حسرتي ووساوسي؟!!
والموت أنصَفَ حين ساوى حُكمَه ... بين الخليفة والفقير البائس

*قال"محمد بن أحمد البرقاني" رحمه الله : " دخلتُ"أسفرايين" (أي رحلت إلى تلك المدينة لأجل طلب العلم) ، ومعي ثلاثة دنانير ودرهم واحد،فضاعت الدنانير، وبقي الدرهم فقط،فدفعته إلى "البقّال" وكنتُ آخذ منه في كل يوم رغيفين، وآخذ من"بشر بن أحمد" جزءا من الحديث،وأدخل مسجد الجامع فأكتبه،وانصرف بالعَشِي وقد فرغتُ منه !!(أي فرغت من كتابة ذلك الجزء الحديثي) ،فكتبتُ في مدة شهر ثلاثين جزءاً ، ثم نَفِدَ ما كان لي عند البقّال ، فرحلتُ عن البلد"[٢] .

---

(١) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٢/٧٦٨) .

(٢) : نقلاً عن كتاب، " تاريخ بغداد " للبغدادي (٤/٣٧٥) .

٩٨ استحضار نعمة الله عليك بالمال والصحة والفراغ

أخـــي : قف مع نفسك واسألها :كم من الناس في العالم الإسلامي الممتد يتمنون الحصول على بعض الكتب العلمية الشرعية المفيدة ليقرأوا فيها وليطلبوا العلم منها ؟!! ، ولكنهم عاجزون عن تحصيل وشراء مثل تلك الكتب لأنهم فقراء لا مال لديهم لشرائها ،كم هم ؟!! إنهم كثيرٌ وكثيرٌ!! بل في بعض الأماكن يتمنى أهل القرية بكاملها مُصحفا واحدا ليقرأوا فيه فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً !! بينما أنت قد حباك الله تعالى بالمال الذي تستطيع به شراء ما تريد من الكتب الشرعية ، بل إنني أقول:

إن لديك في بيتك عشرات الكتب الشرعية في أفخر طباعة وأبهى حُلّة ، فلماذا أعرضتَ عنها وعن القراءة فيها ؟!! مع أن هناك الآلاف الذين يتمنون الحصول على كتابٍ واحد منها ليقرأوا فيه !! .

*أخي :قف مع نفسك وقفة أخرى، واسألها : كم من الناس عبر العالم الإسلامي الفسيح يتمنون طلب العلم الشرعي وتحصيله، ولكنهم عاجزون عن ذلك لعدم وجود فراغ لديهم للتعلم والتحصيل،لأن أحدهم يخرج من بيته من بعد الفجر لطلب الرزق ولا يعود إلا مع الغروب أو بعد ذلك، وهو مُنهَكُ القُوى،ضعيف الجسم ، قد مزّق الجوع بطنه ، فلا يملك إلا أن يتعشى ثم ينام مبكراً استعداداً لغدٍ مليء بالأعمال الشاقة !! فقل لي بربك :

كيف يمكن لمثل هذا الشاب الكادح البسيط أن يطلب العلم الشرعي وسط هذه الأعباء والأشغال الشاقة؟!! بينما أنتَ بعد انتهاء الدوام المدرسي أو

الوظيفي متفـــرغٌ لا شـــيءَ لديـــك !! فلمـــاذا أعـــرضتَ عـــن طلـــب العلـــم الشرعي وتـــحصيله ؟!! .

*أخـــي:اسأل نفسك:كم من الناس يتمنـــون طلـــب العلـــم الشـــرعي، ولكنهـــم عاجزون عن ذلك، بسبب المرض الذي أقعدهم عـــن حضـــور الـــدروس والحلقـــات العلمية،أو حال بينهم وبين القراءة والتحصيل العلمي!!ثـــم تـــأمل في حـــالك فـــإذا أنتَ صحيحٌ مُعافى،فلماذا أعرضت ــ وأنت صحيـــحٌ مُعـــافى ـــ عـــن الطلـــب والتحصيل ؟!! وغيرك يتمنى مثل هذه الصحة والعافية ولكنه قـــد حُـــرِمَ منهـــا !!.

واستـــحضار المرء لنعمة المـــال والصحـــة والفـــراغ والأمـــن التي ينعم بها ، وكذلك نعمة وفرة الكتب الشـــرعية وكـــثرة الـــدروس والحلقـــات العلمية، لا بد أن يُشعل حماسته للتحصيل العلمي،لأنه متـــى اســـتحضر هـــذه النعـــم العظام التي أنعم بها عليه ذُو الجلال والإكرام، فلا بـــد أن يســـأل نفســـه:

هل قمتُ بشكر هذه النعم حقَّ شكرها ؟!! هل أديـــتُ حقهـــا ؟!!

واعلم أخي أن النعم إذا لم تُشكَر ذهبـــت وولـــتْ ، وقـــلَّ أنْ سُـــلِبَتْ نعمـــةٌ ثـــم عـــادت إلى أهلهـــا !! .

قـــال الله تعـــالى : ﴿ وَلَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1]، فـــأين الشاكرون لنعم الله تبارك وتعـــالى ؟!! .

---

(١) : سورة إبراهيم الآية (٧) .

٩٩ تحويل المجالس العامة والفارغة إلى مجالس علم

أكثر المجالس في هذه الأيام إن سلمت من الحرام والغيبة والنميمة، فلن تسلم من اللغو والثرثرة والقيل والقال،فيا ليت أن بعض الصالحين إذا حضر مثل هذه المجالس اللاغية العابثة،أمسكَ بزمام الحديث فيها، وحوَّلها من مجالس ثرثرة ولغو، إلى مجالس إيمانية ذات أسلوب علمي سهل ومبسَّط مناسب لعقليات العوام والسامعين، كأن يتحدث المرء عن الأمور التي تنقض عقيدة التوحيد، أو عن مفهوم أنَّ التوحيد ليس فقط مجرد كلام باللسان بل هو كذلك واقع عملي يظهر أثره في حياة المرء وتصرفاته وسلوكياته،أو يتحدث عن كيفية صلاة النبي عليه الصلاة والسلام ، أو يتحدث عن أحكام المسح على الخفين،أو يتحدث عن كيفية تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ، أو عن أخبار السلف الكرام وقصصهم، أو...، أو . ..، أو... ، إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة المفيدة.

*وقد حذَّرنا الرسول عليه الصلاة والسلام من إضاعة مجالسنا واجتماعاتنا في اللغو والثرثرة والعبث والهزل، فقال ﷺ: " ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يُصلوا على نبيهم ﷺ إلا كان عليهم تِرة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم به "(١) .

*وكان أصحاب محمد ﷺ يغتنمون مجالسهم في تدارس العلم والتناصح والتعاون على البر والتقوى :

---

(١) : رواه أحمد والترمذي وأبو داود وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

*عـــن"أبي سعيد الخدري" رضي الله عنه قـــال : " كـــان أصحـــاب محمـــد ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقـــرأوا ســـورةً !!"(١) .

(١) : رواه الحاكم في "المستدرك" ونقله عنه "ابن جماعة" في كتابه"تذكرة السامع والمتكلم".

١٠٠ معرفة كيف آثر السلف العلم على الزواج

لئن كانت لذة النكاح هي أعلى لذات الجسد والبدن الحسية،فإن لذة معرفة الله تعالى والعلم به وبأحكامه وشرعه ، هي أعلى لذات القلب والروح المعنوية ، فإنْ أمكن تحصيل اللذتين جميعا بالحلال فهذا هو عين التمام، وإنْ لم يمكن تحصيل إحداهما إلا بالتخلي عن الأخرى ، فإنَّ العاقل البصير الناصح لنفسه يُؤثر لذة العلم والقلب والروح على لذة الجسد والنكاح التي تشاركه فيها البهائم العجماوات، وكذا كان سلفنا الكرام يفهمون الأمور، وعلى هذا المنوال كانوا يتصرفون :

*شاهد الإمام"أبو بكر بن الأنباري" رحمه الله جاريةً بديعة الجمال في السوق تُعرَض للبيع، فوقعت في قلبه فاشتراها ثم نقلها إلى منزله ،... .

قال"ابن الأنباري": وكنتُ قد اشتغلتُ بالبحث عن مسألة من المسائل العلمية، فتشوَّش قلبي واشتغل بتلك الجارية عن البحث عن تلك المسألة !!

فقلتُ لخادمي:خذْ الجارية وامضِ بها إلى السوق وبِعْها !! فليس قَدرُها أن تشغلني عن علمي!! ، فأخذها الغلام ليبيعها، فقالت له : دعني أُكلّم"ابن الأنباري" بحرفين !!، فذهب بها إليه ، فقالت لابن الأنباري" : لماذا بعتني ؟!! هل بي عيبٌ؟!!

فقال لها : مالكِ عندي عيبٌ !! غير أنكِ قد شغلتني عن علمي !! .

فبلغ الخبر الخليفة"الراضي بالله"فقال : لا ينبغي أن يكون العلم في قلب أحدٍ أحلى منه في صدر هذا الرجل !! (أي ابن الأنباري لأنه آثر لذة العلم على لذة النكاح والتمتع بالنساء الجميلات)" "(١) .

*قال"أبو إسحاق الحبّال":"كنت يوما عند"أبي نصر السجزي" رحمه الله ، فدُقّ البابُ، فقمتُ ففتحتهُ ، فدخلت امرأة وأخرجت كيساً فيه ألف دينارٍ ، فوضعته بين يدي الشيخ (أي بين يدي "ابي نصر") وقالت له : أنفِقْها كما ترى!! فقال : ما المقصود ؟!! فقالت : تتزوجني،ولا حاجة لي في الزواج، ولكن لأخدمكَ !! (أي انها عرضت نفسها عليه ليتزوجها لأجل أن تتمكن من خدمته والقيام على شئونه إجلالا للعلم الشرعي الذي يحمله في صدره) .

فأمرها بأخذ الكيس وأنْ تنصرف ، فلما انصرفت قال"أبو نصر":

خرجتُ من"سجستان" بنية طلب العلم ، ومتى تزوجتُ سقط عني هذا الإسم !! ، وما أُوثِرُ على ثواب طَلَب العلم شيئاً !!" (٢) .

*وما أجمل ما قاله"عمر بن محمد النسفي" رحمه الله ، لمن رغبت في الزواج منه،فخاف أن تشغله عن طلب العلم الشرعي فقال لها:

ثقلتُ ذريني واعذريني فإنني ... شُغفتُ بتحصيل العلوم وكشفها
ولي في طِلابِ العلم والفضل والتقى ... غنيً عن غناء الغانيات وعزفها

وليس هذا الأمر مقصورا على النموذجين المتقدمين،بل هناك علماء نبلاء فضلاء كثيرون آثروا طلب العلم الشرعي على الزواج ومِن هؤلاء العلماء:شيخ الإسلام"ابن تيمية"، والإمام"النووي"،و"هنّاد بن

---

١) : نقلاً عن كتا ب" صفحات من صبر العلماء " لعبد الفتاح أبي غدة .

٢) : نقلاً عن كتاب "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٣/١١١٩).

السَّرِي"الحافظ المحدث،و"أبو البركات عبد الوهاب الأنماطي"، و... و... و...، وغيرهم كثير.

وفي ختام هذا المبحث لا بد من التنبيه إلى أنه ليس مقصودنا بذكر بعض النماذج للعلماء العزّاب الذين آثروا لذة العلم والتعلم على لذة النكاح،ليس مقصودنا بذكرهم الحث على ترك النكاح لأجل طلب العلم ، بل مقصودنا أن نبين للقراء الكرام كيف أن بعض السلف الكرام كانوا يُؤثرون طلب العلم وتحصيله على كل لذائذ الدنيا ومُتعِها، حتى متعة النكاح التي هي أعلى لذت الجسد الحسية،وقد أعانهم على ترك النكاح ما رزقهم الله به من قلة الفتن والشهوات والمغريات في زمانهم ، وما حباهم به الله تعالى من تقوى وخشية لله تمنعهم وتعصمهم من الوقوع في الفواحش والمنكرات ، أما في هذا الزمان فقد تبدلّت الأمور وتغيَّرت الأحوال ، وحينئذ لا تعارض بين طلب العلم وبين النكاح،فليجمع المرء بينهما إذ تيسر له ذلك .

١٠١ اتخاذ زميل تلازمه لطلب العلم

تحدثنا في طريقة سابقة عن أهمية مصاحبة الصالحين والحريصين على طلب العلم في إشعال الهمة والحماسة للتحصيل والطلب، ولكن قد لا يتيسر للمرء العثور على هؤلاء الحريصين على طلب العلم والجادّين في تحصيله ، وإنْ وُجِدُوا فربما لا يتيسر للمرء الجلوس معهم ومخالطتهم إلا قليلا.

ومن هنا ينبغي للمرء أن يبحث له عن زميلٍ صالح، وخِلٍّ جادٍّ ناصح، بحيث يكونان متلازمين في أغلب الأوقات، فيحثُّ كلٌّ منهما صاحبه على الطلب والتحصيل ، ويشدُّ كلٌّ منهما من أزر الآخر ، ويُسدد كل منهما الآخر إنْ أخطأ، ويُعينه ويُحفزه إن أصابَ ووُفّق، ويُغيّب كل منهما للآخر ما حفظه من العلم، ويقرآن سوياً، ويُراجعان سوياً،ويبحثان المسائل ويُحققانها سوياً،ويا حبذا لو جعلا لهما برنامجا خاصا بهما لطلب العلم الشرعي ، علاوةً على حضور الحلقات والمجالس العلمية العامة والخاصة.

إن اتخاذ مثل هذا الزميل الصالح الناصح الملازم لك، والذي يُشاركك برنامجك لطلب العلم، هو من أعظم الوسائل المعينة على التحمس لطلب العلم الشرعي ، لأن المرء ضعيفٌ بنفسه قويٌّ بإخوانه الصالحين الناصحين الجادّين .

١٠٢ البحث في بطون الكتب عن المختارات الجميلة

مما يُعين على التحمس لطلب العلم الشرعي أن يقوم المرء بالبحث والتنقيب في بطون الكتب ولا سيما كتب السِيَر والتراجم والتواريخ عن الدرر والنفائس العلمية المفيدة، والقصص الجميلة المؤثرة، والكلمات الحكيمة الصادقة، والأبيات الشعرية الأدبية الرائقة ، ثم يقوم بتدوينها وكتابتها ، وبعد تنسيقها وتهذيبها وترتيبها يقوم بإرسالها إلى بعض المجلات الإسلامية لتقوم بنشرها على صفحاتها، أو يمكنه كتابة وتنسيق تلك الفوائد والمختارات في صحيفة حائطية تُعلَّق على لوحة الإعلانات في المسجد ، أو تُعلَّق في مكان بارز في المدرسة أو في المنزل ، ليعمَّ النفع بها .

الخـــاتمـــة

وبعد : يا فتى الإسلام ها نحن قد عشنا سوياً عبر أكثر من ١٠٠ طريقة للتحمس لطلب العلم الشرعي،تجولنا خلالها بين آيات الكتاب العزيز، وقطوف السنة المطهرة، ورياض وقطوف السلف الصالح وأحوالهم، واقتبسنا من كلماتهم الذهبية، وها نحن الآن قد وصلنا إلى خاتمة المطاف وساعة الوداع .

ولا بدَّ أخي في الله ، أنَّ الهدف من هذه الرحلة الشيِّقة قد بان لك الآن ولاح ، ألا وهو التحمس لطلب العلم الشرعي ، وما من شك أن وسائل وطرائق تحقيق هذا الهدف قد استبانت أمامك، وأصبحت الطريق واضحة المعالم،بارزة المظاهر ، وها هي مئات الكتب الشرعية بين أيدينا تُنادينا لنقرأها !! وها هي حلقات العلم ومجالس الذكر التي تمتلئ بها المساجد تدعونا إليها لنحضرها، وها هي كل السبل والظروف مهيأة أمامك،وإنَّ أمتكَ تنتظرك وترقبك !!.

فيا فتى الإسلامُ : هُبَّ من غفلتك واستيقظ من رقدتك، وانفض عنك غبار الكسل والخمول،وابدأ المشوار وسرْ في طريق طلب العلم الشرعي، وتَجَاوز العقبات والصعاب، وسَطِّر بعزمك وهمتك صفحات ملؤها الجد والاجتهاد والبذل والتضحية في سبيل تحصيل العلم،واحمل لواء العلم الشرعي وامضِ في الطريق وعناية الله تحرسك ، وملائكة السماء تظللك بأجنحتها، وقلوب المؤمنين الصادقين معك تدعو لك وتهفو وتتطلع إلى ذلك

اليوم الذي نصر فيه دين الله بعلمك، وتكون فيه إماماً يُقتَدَى بك في الخير والهدى والتقى .

فيا فتى الإسلام : إلى المسير إلى السير إلى المسير، وإلى الأمام إلى الأمام،ومن نصرٍ إلى نصرٍ ، ومَنْ سار على الدرب وصل ، والله يحفظك ويرعاك ويُسدد على درب الخير والهدى خطاك . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(تمّ الكتاب بحمد الله تعالى)

قائمة بأهم المراجع

١ ــ القران الكريم .

٢ ــ صحيح البخاري.

٣ ــ صحيح مسلم .

٤ ــ سنن"أبي داود" و" الترمذي" و"النسائي" و"مسند أحمد" .

٥ ــ صحيح الجامع الصغير للألباني.

٦ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني.

٧ ــ كتاب" مفتاح دار السعادة" "لابن القيم" .

٨ ــ كتاب" الفوائد" "لابن القيم" .

٩ ــ كتاب "سير أعلام النبلاء " "للذهبي" .

١٠ ــ كتاب"تذكرة الحفاظ" "للذهبي" .

١١ ــ كتاب" البداية والنهاية" "لابن كثير" .

١٢ ــ كتاب"تاريخ بغداد" "للخطيب البغدادي" .

١٣ ــ كتاب"الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" "للخطيب البغدادي" .

١٤ ــ كتاب"الفقيه والمتفقه" "للخطيب البغدادي" .

١٥ ــ كتاب"صفة الصفوة" "لابن الجوزي" .

١٦ ــ كتاب"صيد الخاطر" لابن الجوزي" .

١٧ ــ كتاب"فضل علم السلف على علم الخلف" "لابن رجب" .

١٨ ــ كتاب "جامع بيان العلم وفضله" "لابن عبد البر الأندلسي" .

١٩ ــ كتاب "شرف اصحاب الحديث" للخطيب البغدادي " .

٢٠ ــ كتاب "المُحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي" "للراسهرمزي" .

٢١ ــ كتاب" تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" " لابن جماعة" .

٢٢ ــ كتاب" ترتيب المدارك في تراجم أصحاب الإمام مالك" "للقاضي عياض" .

٢٣ ــ كتاب"طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي" .

٢٤ ــ كتاب" طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى ، وذيله " لابن رجب الحنبلي " .

٢٥ ــ كتاب "وفيات الأعيان" "لابن خلكان" .

٢٦ ــ كتاب "حلية الأولياء" "لأبي نعيم الأصبهاني" .

٢٧ ــ كتاب " صفحات من صبر العلماء" لأبي غدة .

فهرس موضوعات الكتاب